الإسلام والمسلمون

فى غرب أفريقيا

- ٢ -

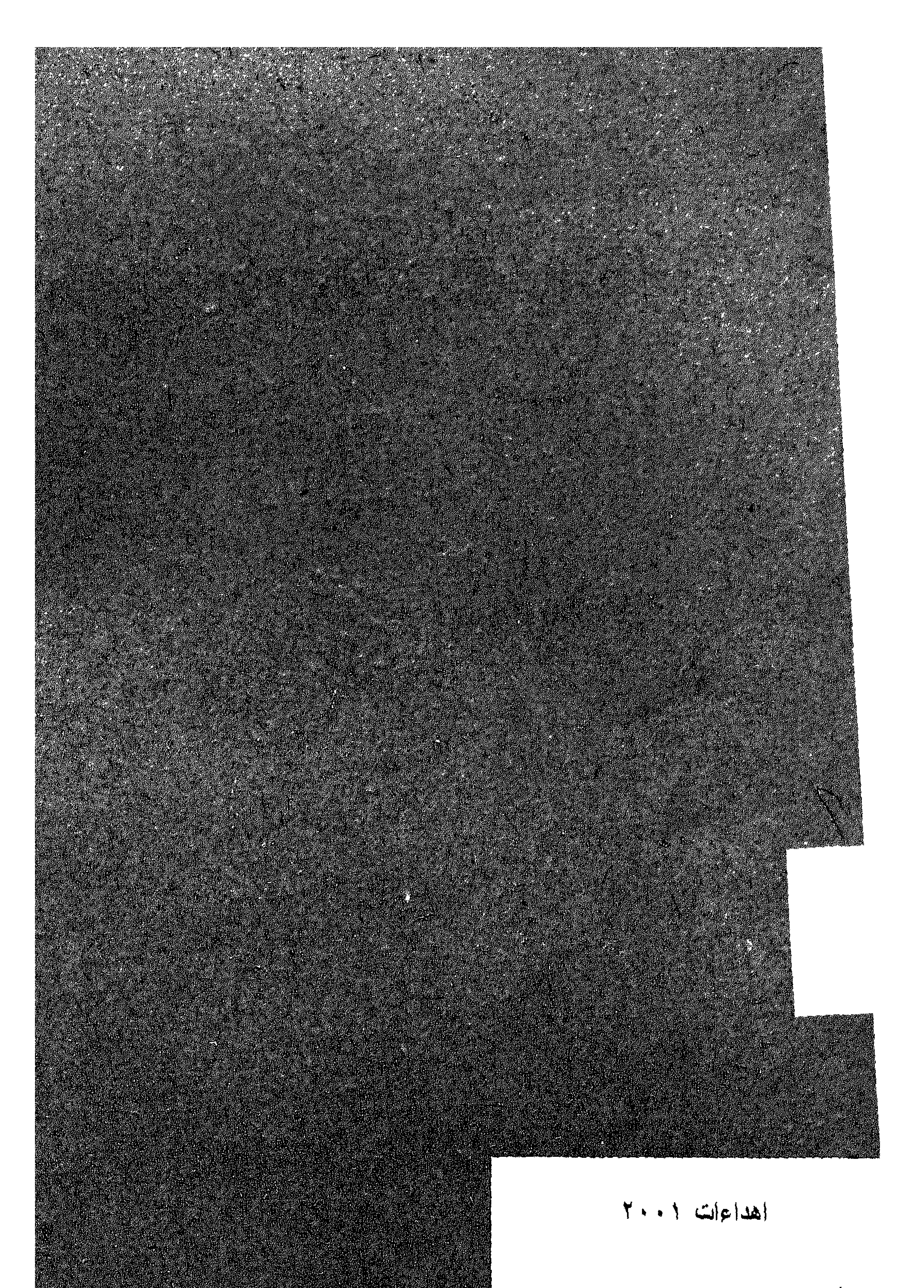
دكتور

عبد الرحمن زكى

مجموعة محاضرات
ألقيت
فى معهد الدراسات الإسلامية

مطبعة يوسف ٢٥٤٧٠





الإسلام والمسلمون

فى غرب أفريقيا

دكتور

عبد الرحمن زكى

مجموعة محاضرات
ألقيت
فى معهد الدراسات الإسلامية

مطبعة يوسف
ت : ٢٥٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الدائرة الإفريقية هى إحدى الدوائر الثلاثه التى حددها الرئيس جمال عبد الناصر لينطلق فى رحابها نشاط الجمهورية العربية المتحدة فى محيط سياستها الدولية ، فقد قال سيادته عنها فى (فاسفة الثورة) :

ـ فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الإفريقية قلت دون استفاضة ودون إسهاب : إننا لانستطيع بحال من الأحوال ـ حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مايون من الإفريقيين .

ـ لانستطيع لسبب هام وبديهى هو أننا فى إفريقيا .

ـ ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله .

ـ ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل مانستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ـ ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضاً أن للسودان ـ الشقيق الحبيب ـ تمتد حدوده إلى أعماق إفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

ـ والمؤكد أن إفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى إفريقيا ونتصور أنه لايهمنا ولا يعنينا .

ـ ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه القاهرة معهداً ضخماً لإفريقيا يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعياً إفريقياً مستنيراً ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب الأرض ورفاهيتها.

وهذه المحاضرات التى ألقاها الأستاذ عبد الرحمن زكى على طلبة السنة الثانية بالمعهد توضح كيف كانت الأمة العربية طوال العصور توالى إمداد شعوب القارة بالهداية الإسلامية وتضفى عليها بقدر استطاعتها معالم الحضارة الإسلامية.

ثم طغى الاستعمار على القارة فعرقل امتداد هذه الهداية، وأغلق منافذ انتقالها وأشاع الظلام فى أرجاء القارة.

ولم يقف عند هذا الحد، بل مضى يسلب خيرات القارة، ويستعبد شعوبها، ويحرمها كل مقومات الحياة الحرة الكريمة.

وإذا كانت مصر الآن ـ منذ مشرق الثورة ـ تبذل كل تضحية، وتجود بكل جهد مادى ومعنوى، فى سبيل تحرير أقطار القارة من الاستعمار، وتثبيت استقلال ما تحرر منها، فإنها إنما تفعل ذلك مسترشدة بهدى الإسلام فى تحقيق الإخاء الإنسانى على أساس المساواة، وتنفيذ تعاليمه فى المعاونة على رفع نير العبودية عن إخواننا فى الإنسانية وفى الجوار.

وهم بعد ذلك أحرار فى اعتناق أى دين، فشعار الإسلام: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى».

وبعد، فيسعدنى أن أقدم هذا الكتاب الذى يساهم مساهمة إيجابية فى نشر الوعى العام بإحدى الدوائر الثلاثة فى سياستنا القومية؟

عميد المعهد

الدكتور
محمد عبد الله العربى

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام فى غرب أفريقيا

دخل الإسلام القارة الإفريقية عبر سيناء بصحبة الجيش العربى الذى فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص عام ٢٠ هـ / ٦٤٠ م ، وبعد أن تم الاستيلاء على الاسكندرية وهزيمة القوات الرومانية فى عدة معارك أصبحت مصر القاعدة العسكرية التى انطلقت منها الفتوح إلى برقة وليبيا وتونس وبلاد المغرب . ولقد قاوم البربر ، وهم غالبية سكان شمال إفريقيا العرب الفاتحين مدة طويلة ، واشتبك الجانبان فى معارك كثيرة كان من أهمها سبيطلة (٦٥٠ م) ، ثم توغل عقبة بن نافع على رأس جيوشه ، وفيما بين (٧٠ هـ — ٧٠٨ م) انتهت مقاومة البربر أمام الجيش العربى بقيادة الحسن بن النعمان ، وألحق المغرب سياسيـاً بدولة الخلفاء الشرقية (الأمويين والعباسيين) ، وتولى موسى بن نصير زمام المغرب . وفى عام ٧١١ حشد جيش عربى بربرى ، بقيادة طارق بن زياد ، واجتاز المضيق وتوغل فى الأندلس ، وفى سنوات قلائل ضمت إسبانيا إلى الدولة العربية الكبرى . . .

ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب ـ القاعدة الأمامية لنشر العربية والإسلام فى غربى أفريقيا وفى الأجزاء الجنوبية من الصحارى الكبرى .

وكان نفوذ البربر ليس مقصوراً على الأقاليم التى تمتد على ساحل البحر المتوسط ، فالمعروف أن أول من ملك منهم الصحراء زعيم اسمه بتلوثان

(توفى عام ۲۲۲ ه/۸۳٦ م) ، وملك بعده بلثان (ت ۲۸۷ ه/٩٠٠ م) ، ثم ابنه تميم إلى عام ٣٠٦ ه/٩١٨ م . ثم افترق أمرهم ١٢٠ عاماً إلى أن قام فيهم أبو عبد الله وحج ثم توفى بعد ثلاثة أعوام من رياسته ، وقام بأمرهم من بعده صهره يحيى بن إبراهيم .

وكان لهؤلاء البربر ، وبخاصة تجارهم ، الفضل فى الدعوة للإسلام بين القبائل الزنجية التى تقطن الصحراء ، كما يرجع الفضل أيضاً إلى مراكز تجارتهم الموجودة فى السهول التى تلى تخوم الصحراء .

وأول ما يقابلنا من القبائل البربرية التى عملت فى سبيل نشر الدعوة : صنهاجة ، وقد سكن أفرادها ديار الصحراء الممتدة بين موريتانيا (شنقيط) إلى جبال حجار ، وإلى الجنوب إلى حدود السودان الغربى .

وفى القرن التاسع اتحدت صنهاجة مع قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة ، وكان هدف هذا الاتحاد العمل على تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء ، فيما بين أقصى الشمال حيث تنزل قبيلة ولاتة ، وأقصى الجنوب حيث كانت تقع مملكة غانة . ولم يكتب لهذا الاتحاد العمر الطويل ، فوهن أثره وتفرقت كلمة القبائل ، وانتهزت غانة تلك الفرصة فازدهرت وتسلطت على بعض أجزاء الصحراء التى يؤمها تجار القوافل من البربر والعرب .

ولما اعتنقت صنهاجة الاسلام فى القرن العاشر، تسرب الدين الحنيف عبر الصحراء ، وبدأت المراكز التجارية فى الصحراء ، ومنها أودغشت ، وهى المركز الأمامى لتجارة غانة على حافتها الشمالية ، تتسم بالطابع الاسلامى .

وفى حوالى عام ۱۰۲۰ واجه زعماء لمتونه وجداله ومسوفة ، وهن من صنهاجه ، قوة غانه النامية . ولذلك عادوا ثانية إلى توحيد كلمة القبائل أمام الخطر المحدق . وكان تارسينا ، وهو زعيم لمتونة ، أول زعيم صنهاجى مسلم أدى فريضة الحج ، وفى مكة امتلأت رأسه بفكرة الجهاد ضد الزنوج

الوثنيين ودعوتهم للإسلام ، وقد استشهد وهو يقاتلهم (١٠٢٣) . ويمكن القول بأنه كان الرجل الأول الذى غرس بذرة الكفاح الإسلامى فى غرب السودان ، وتبعه الرجل الثانى ، وهو يحي بن إبراهيم زوج ابنته ، ليكمل رسالته ، وكان يحي شيخ قبيلة جدالة .

لقد شاء القدر أن يظهر هذا الرجل فى جدالة ، فهو رجل استنارت بصيرته ، وتيقظ وعيه ، وضاق ذرعاً بما تعثر فيه قومه من الجهالة وسوء الفهم لمبادىء الإسلام . فلقد أراد أن يستنير ويستزيد من تحصيل العلم ، فعهد بأمور القبيلة إلى ابنه ، وأخذ يتجول فى بلاد المغرب طلباً للمعرفة . فوقف على مبادىء الإسلام القويمة ، وعقد العزم أن يذيعها بين الملثمين . فأدى فريضة الحج مع بعض الصنهاجيين عام ١٠٣٥ ، وبعد عودته أدرك يحي بن إبراهيم أنه لا يستطيع أن يباشر هذا العمل بمفرده ، لأن شئون قبيلته تستأثر بجانب كبير من وقته ، ولذلك استقر رأيه على أن يدعو أحد العلماء لتعليم قومه مبادىء الإسلام وتثقيفهم دينياً ، ويخلصهم من الاعتقادات الخاطئة ، ولذلك ذهب إلى القيروان ، وهى المركز الإسلامى العام ، حيث قابل أحد علمائها المتضلعين فى فروع الثقافة الإسلامية ، وهو أبو عمران الفاسى شيخ فقهاء المالكية ، وبعد أن تلقى عنه ما أراد ذكر لأستاذه أنه يريد أن يذيع بين قومه تقاليد القيروان الدينية ، وطلب منه أن يرشح له أحد فقهاء المالكيين ليصحبه إلى قومه فى الصحراء ، ورأى أبو عمران أن يحيله على تلميذه فقيه السوس ، وجاج بن زللوى اللمتونى ، لاعتقاده أنه يصلح للقيام بهذا الواجب ، وذلك لمعرفته بعادات الملثمين وأساليب حياتهم واختار له وجاج تلميذه الصنهاجى عبد الله بن يس العالم المجرب القوى الإيمان ، فأقبل على واجبه الذى اختير له وجعله هدف رسالته . وقد استطاع بفضل خبرته ومعرفته بلهجات البربر وإخلاصه لدعوته وتفانيه ، أن يكسب الأنصار ويضم تحت لوائه جموعاً حاشدة تدين له بالطاعة والولاء .

بدأ عبد الله بن يس يبث تعاليمه فى بادىء الأمر بين اللمتونيين ، ولما رأى بعض زعمائهم يضعون العراقيل فى طريقه تركهم وذهب مع يحيى بن إبراهيم إلى قبيلته جدالة ، حيث عظم تأثيره وذاعت دعوته ، ودانت له فى النهاية لمتونة ومسوفة . ولما توفى يحيى بن إبراهيم الجدالى (٤٤٠ هـ/١٠٤٨م) وقع اختيار الزعيم الدينى على يحيى بن عمر اللمتونى ليخلفه ويتولى شؤون الحرب والجهاد .

ولما كان عبد الله بن يس يعلم أن رجاله سوف يخوضون غمار معارك شتى لنشر دعوتهم ، شيد رباطاً يأوى إليه أصحابه ليتفرغوا للعبادة والجهاد ورأى عبد الله أن يستفيد من فكرة إنشاء الرباط لتخريج جماعة مدربة على الحرب ، متأهبة للتضحية للدفاع عن العقيدة وصد غارات الأعداء . ولما استوثق من ثبات مركزه وتوحيد صفوف قبائل الملثمين ، بدأ غزواته لإخضاع قبائل المغرب وأماراته .

المرابطون (١٠٥٦ — ١١٤٧)

وفى حوالى ١٠٥٤م كان رجال الرباط (الذين عرفوا فيما بعد بالمرابطين) قد استولوا على أهم مركزيين تجاريين غربى الصحراء الكبرى ، هما : سجلماسة فى الشمال ، وأودغشت فى الجنوب ، وهى المركز الأمامى لغانة . ثم فتح درعه وأغمات . وتوفى فى أثناء تلك المعارك يحيى بن عمر اللمتونى (١٠٥٦) فى معركة بتغريلة ، فعين مكانه أخوه أبو بكر بن عمر .

وسرعان ما اختار أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين قائداً لمقدمة جيشه وكان ذلك على أثر ما أظهره يوسف من ضروب الشجاعة وإحكام التدبير فى المعارك القبلية ، واتفق بعد ذلك أن قتل عبد الله بن يس فى أثناء مقاتلة برغواطة (١٠٥٩) ، فخلفه أبو بكر بن عمر وتابع حروبه ، ومنذ ذلك الحين

عرف التاريخ أسم يوسف بن تاشفين (١٠٦١ – ١١٠٦) مؤسساً لدولة المرابطين .

ورأى أبو بكر بن عمر أن يختار موقعاً مناسباً يشيد فيه عاصمة جديدة لملكه ، وأعجبه موقع فى بسيط حافل بالزرع والماء ، فأقام فيه القصور والدور ، وأطلق على المدينة الجديدة اسم « مراكش » . وكان تأسيسها فى أوائل عام ٤٥٤ ﻫ (١٠٦٢ م) ثم جاءت الأنباء من الجنوب عن نشوب حرب بين قبيلتى لمتونة وجدالة ، وكان هذا الصراع ينطوى على تهديد خطير لحركة المرابطين فى الوقت الذى كانوا يتحفزون فيه لمنازلة أعدائهم ومد نفوذهم فى الشمال حتى يبلغ شواطىء البحر المتوسط ، فلم يجد الأمير أبو بكر بدأ من المسارعة إلى العودة إلى الجنوب ، لتأمين مؤخرته ، وللإبقاء على التضامن بين القبيلتين . ولما أراد أن يستخلف أحد رجاله قبل ارتحاله لم يجد خيراً من ابن عمه يوسف ، فعقد له على المغرب ، وفوض إليه الأمر ، وأمره بالمضى فى محاربة قبائل البربر من زناتة ومفرادة وبقى يفرم خصوم صنهاجة .

وكان اختيار يوسف للقيام بهذه المهمة اختياراً موفقاً ، فقد كان الموقف عصيباً ، وقد أحدقت الأخطار بالدولة الناشئة ، وبينما كان الملثمون يقاتلون فى الجنوب ويحاولون جمع شملهم ، كانت قبيلة زنانة وأحلافها يستنهضون الهمم ويؤلبون الناس للوقوف فى وجه الملثمين . وكان الموقف يستلزم الحزم وحشد القوى لخوض غمار المعارك الحامية القادمة . ولا غرو أن يصبح يوسف سيد الموقف وأن يحرز الانتصارات السريعة ويقود رجاله إلى النصر ، فقد نجح فى جميع غزواته، وفتح مدينة فاس ، وأخضع المغرب الأقصى كله .

وفى تلك الأثناء أخضع الأمير أبو بكر العصاة فى الجنوب، وأعاد الوفاق بين القبيلتين ، وصارع ملوك الزنوج ، ثم عاد إلى المغرب الأقصى فى عام

٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) ، ولما رأى حسن بلاء يوسف وتقدير المرابطين له ، أحضر شيوخ لمتونة وكبار رجال الدولة ، واستدعى الشهود والكتاب والخاصة والعامة ، وأقر بالتخلى ليوسف عن الأمر فى المغرب . وقد ظلت له السيادة الاسمية حتى أدركته الوفاة سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) بعد أن تم له غزو غانة (١٠٧٦) والانتصار عليها .

ثم أخذ يوسف فى تنظيم جيشه ، وأدخل فيه فرقاً من زناتة والقبائل الأخرى ، وزاد عدده ، وأقام سلسلة من الحصون امتدت من مراكش فى الجنوب إلى فارس فى الشمال ، ومن تلمسان إلى انجة فى المغرب . وباختصار ، استطاع يوسف بحكمته أن ينشر الأمن والطمأنينة فى بلاده فذاعت شهرته فى العالم الإسلامى .

المرابطون والقضاء على غانة

يعتبر القضاء على غانة خاتمة تلك الفترة الطويلة التى سادت خلالها تلك الدولة على السودان الغربى ، وأدى سقوطها إلى انتصار الإسلام السياسى فى المنطقة الساحلية بين نهرى سنغال والنيجر مما أجبر أسرة السوننكة الغانية على اعتناق الإسلام . ليس هذا فقط ، بل إنهم عملوا أيضاً على نشر الإسلام بين الأهالى الذين كانوا لايزالون يحكمونهم . وأدى نجاح قوات المرابطين فى تلك الأنحاء إلى تحرك هجرات قبلية ، فانتشر السوننكة فى عدة ديار فسيحة ، وهاجر (السيرر) إلى تكرور (فوتا تورو) وعبر السنغال إلى جهات شتى .

لما مات أبو بكر (١٠٧٨) انتهى حلف صنهاجة واختفى نفوذه وسيادته على السنغال والنيجر . واستمرت جدالة فى احتلالها المناطق المطلة على شواطىء الأطلنطى ، وبقيت لمتونة فى أدرار وتاجنت ، وتمسكت مسوفة بمنطقة الحوض فى الصحراء ، وقد امتاز تاريخها بعد تلك الفترة بالمعارك المستمرة .

وهنا يجب أن نقف قليلا لنقرر حقيقة تاريخية، وهى أن بعض المؤرخين بالغوا فى وصف الجهد الذى اضطلع به المرابطون فى نشر الإسلام بين أهل السودان الغربى ، وقالوا إنه بفضلهم وحدهم تم دخول الإسلام ، وفات أن الإسلام تسرب فى هدوء بصحبة تجار قوافل الصحراء من الشمال إلى الجنوب قبل أيام حركة المرابطين فى أثناء القرنين التاسع والعاشر . وكان هؤلاء التجار يمنحون كامل الحرية فى مزاولة تجارتهم وتأدية واجباتهم الدينية ، بل والدعوة إلى دينهم أيضاً فى حرية مطلقة .

ومما يؤيد هذا وجود مدن إسلامية وأحياء يسكنها المسلمون فى المدن الوثنية ، ثم اعتناق زعماء التكرور الدين الإسلامى؛ فضلا عن اعتناق كثير من سكان الإمارات السودانية الدين الحنيف .

والواقع أن المرابطين عملوا على الإسراع فى مهمة تحويل الزنوج إلى الإسلام بدلا من سيرها ببطء تدريجى . وبعد سقوط غانة تسلمت راية الإسلام دولة مالى الإسلامية التى سرعان ما أصبحت أعظم الدول الزنجية الإسلامية فى غرب أفريقيا ،

واستمر الإسلام ينتشر عن طريق الوسائل السلمية أى الدعوة الهادئة ، وكان لقبائل السوننكى فى غانة الفضل العظيم فى الدعوة له . وقبول الإسلام بين سكان الساحل الغربى الأفريقى بإقليم ماسينا يرجع إلى السوننكى ، وكان لاتصالهم التجارى برجال مالى الفضل فى إيصال الإسلام إلى حافة منطقة الغابات الكثيفة عند خط الاستواء .

وفى خلال خمسين سنة عقب وفاة عبد الله بن يس ، كان التجار المسلمون وصلوا إلى جنوب منطقة السفاناه السودانية وعلى وشك اختراقهم الغابات . بل إن بعض أهالى مالى (ماندى ديولا) اخترقوا الغابات بحثاً عن تجار جوز الكولا . وقد اجتذبت المدن التجارية الإسلام ، ومن تلك ملك

مدينة جنى ، الذى أعتنق الإسلام فى مستهل القرن الثالث عشر ، وسرعان ما اقتدى به رعاياه ، فأصبحت جنى مركزاً إسلامياً هاماً فى السودان الغرب. كذلك تمبكتو التى قامت بهمة الطوارق حوالى عام ١٠٩٦ / ٩٧ ، فسرعان ما أصبحت عند القرن الثالث عشر مدينة تجارية ، ومركزاً إسلامياً يضىء الصحراء .

هكذا رأينا الإسلام ينتشر فى مناطق الساحل الغربى بين موريتانيا فى الشمال ، والسنغال وغينيا وغانا فى مرحلته الانطلاقية الأولى . ثم كان لقبائل الفولة الفضل فى نشره فى منطقة السنغال فى القرن ١٦ / ١٧ . وقد تحمس المسلمون لدينهم لدرجة واضحة فيما بين ١٧٧٦ و ١٨٩٠ . وفى القرن التاسع عشر أسلم كثير من أفراد قبائل الولوف والليبوس .

وفى القرن السابع عشر انتشر أتباع الطريقة القادرية فى غينيا ، ولا سيما بين قبائل الفولة .

وانتشر الإسلام فى مالى (السودان الغربى) فى أخريات القرن ١٣ أو ما قبل ذلك ، كما تسربت الطريقة القادرية التى تفرعت منها القادرية البكائية وكان ذلك بهمة الشيخ عمر البكاى ، ومن ثم كثرت المراكز الإسلامية والمعاهد .

ودخل الإسلام المنطقة التى تحتلها اليوم جمهورية ساحل العاج ، ولاسيما فى الشمال ، بفضل الجماعة الإسلامية الأولى التى اعتنقته فى القرن ١٣ فى أثناء سطوة دولة مالى ، وكانت أهم مراكز المسلمين فى توبة وكونج واندوكو وجويلة ، ولكن نلاحظ أن المد الإسلامى قد تراجع هناك بعد اضمحلال نفوذ مالى حوالى القرن ١٥ ، ثم استرد مكانته فى النصف الأول من القرن ١٩ حينما نهض الزعيم الروحى عمر تال بدعوته فى السودان الغربى .

وانبثق نور الإسلام فى داهومى ، ولاسيما فى مناطقها الساحلية ، فيما بين

عامى ١٧٠٠ و ١٧٢٠ بوساطة التجار القادمين من كانو (شمال نيجيريا) الذين عرفوا باسم المعلمين . وقد وفدت هجرة إسلامية قوية بزعامة مشايخ القادرية من الشمال الشرقى منذ القرن ١٧ ، ثم انتشرت التيجانية بعد عام ١٨٧٠ ، كما نشط مسلمو مدينة «بورتو نوفو» وعملوا بهمة فى سبيل الدعوة وأقاموا المدارس الدينية كما شيدوا المساجد ..

والمعروف أن الإسلام انتشر فى شمال نيجيريا بفضل الإمبراطوريات الإسلامية التى ضمت هـذه البلاد إليها ، وهى مالى وسنغاى وبرنو ، ومنذ ذلك الحين سادتها فى فترات كثيرة روح إسلامية قوية ، ومن أهمها تلك الحركة المباركة التى نهض بها الشيخ عثمان بن فوديو والشيخ محمد الأمين الكانمى منافسه القوى فى برنو خلال القرن التاسع عشر .

●●●●●●●●●●●

- ٢ -

غانة فى العصور الوسطى

٣٠٠ م — ١٢٤٠

غانة فى مؤلفات العرب :

يرجع أول نص عربى صريح عن السودان الغربى إلى المؤرخ ابن عبد الحكم (٨٠٣ — ٨٧٠) ، عند ما تحدث عن الحملة التى جردت إلى السوس جنوب المغرب والسودان سنة ٧٣٤ م ، فقال : « وغزا عبيد الله بن عبيدة الفهرى السوس وأرض السودان ، فظفر بهما ظفراً لم ير مثله ، وأصاب ما شاء من ذهب ، وكان فيما أصاب جارية أو جاريتان من جنس تسميه البربر « أجان » (١) .

وفى أقل من عشرين سنة بعد ذلك نظم عبد الرحمن بن حبيب طريق القوافل بين جنوبى المغرب الأقصى وأودغشت على حافة الصحراء الجنوبية وذلك بأن حفر عدة آبار مياه جديدة (٢) ، وقد تكلم عن هذه الطريق مؤلف كتاب الاستبصار حوالى ١١٩٢ ، قائلا : إنه يخرج من نهر درعة إلى غانة . وكان أول من ذكر غانة من العرب : الفزارى الفلكى الذى ذكر قبيل عام ٨٠٠ م عدة بلاد أفريقية منها إقليم بلاد التبر ، ثم الخوارزمى

(١) ابن عبد الحكم : فتوح أفريقية والأندلس ، نشر النص العربى والترجمة الفرنسية البرت جاتو عام ١٩٤٨ ص ١٢٢ .

(٢) أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب طبعة عام ١٩١٣ ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

الجغرافى قبيل عام ٨٣٣ الذى حدد موقع غانة فى خريطته التى نقلها عن بطليموس (١) . وذكر اليعقوبى الجغرافى (عام ٨٧٢) « ملك غانة عظيم ، وفى أرضه معادن التبر ، وهو صاحب عدة ممالك كثيرة » . ثم كتب ابن حوقل الجغرافى (ح ٩٧٧) ـ وكان قد زار أودغشت ـ فقال إن لملوك هذه المدينة صلات بملك غانة أغنى ممالك العالم لذهبها . ثم جاء البكرى (١٠٦٧م) فزودنا بأوفى المراجع عن السودان الغربى فى العصور الوسطى ، فذكر موقع غانة ووصف أحوال الشعب وملوكها (٢) .

أما ابن بطوطة الرحالة المغربى المعروف (حوالى ١٣٥٣ / ٥٤) ، فقد كان ثانى المؤلفين العرب الذين زاروا السودان الغربى ، وأولهم ابن حوقل ، ونلاحظ أنه لم يذكر غانة لأنها لم تكن قائمة ، كدولة كبرى فى أثناء رحلته ، ولكنه وصف أحوال وعادات الشعب الذى كان يسكن أرضها .

وهناك إثنان من المؤرخين السودانيين ، كتبا عن تاريخ بلادهم بعد مؤرخى العرب ، وقد زودانا بمعلومات طيبة وفيرة عن غانة ومالى وسنغاى ، أولهما محمود كعت الذى كتب « تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس » فيما بين ١٥١٩ و ١٦٦٥ (١) ، وثانيهما عبدالرحمن السعدى قبيل عام ١٦٥٥ الذى ألف تاريخ السودان الذى يعتبر من المراجع الأصلية (٢) .

---

(١) يوسف كمال : الأطلس الجغرافى الكبير ج ٣ لوحة ١ ص ٥١٠ عام ١٩٣٠ ، ومن ٥٤٠ و ٥٤١ .

(٢) البكرى ، المرجع المذكور فى ص ٣٢٧ ـ ٣٣١ .

(٣) نشره وترجمه المستشرقان هوداس وديلافوس ، باريس ١٩١٣ ، وقد أعيد نشره عام ١٩٦٤ .

(٤) نشره وعلق عليه هوداس ، باريس ١٨٩٨ .

غانـــة

اقتبست «غانة» أسمها من المدينة التى كانت حاضرة الدولة قبل أن تصبح إمبراطورية ، وتتفق كلمة المؤرخين على أن مملكة غانة تأسست حوالى عام ٣٠٠ م ، ثم نمت واتسعت رقعتها ، فامتدت من نهر نيجر إلى ساحل الأطلنطى غربا وشمالا عند حافة الصحراء الكبرى ، وكانت تشغل فى مراحلها الأولى أراضى البلاد التي كانت تعرف بإسم السودان الفرنسي (جمهورية مالى اليوم) .

ثم تحولت « غانة » على مر الزمن من مملكة إلى إمبراطورية ، قبل إزدهار دولة المرابطين بمائة سنة تقريبا ، حتى بلغت أسمى مكانة فى تاريخها خلال السنوات الخمسين التى سبقت عصر المرابطين الذهبي .

ولقد استطاع شعب غانة أن يقيم دولته الفتية ، ولا يدل هذا الإسم على الشعب ، ولكنه أطلق على الطبقة الحاكمة أحيانا ، أو على الحاضرة كما ذكرنا ، وكان أول ملوكهم « كاز » ، فاتخذ قرب « تنكبت » عاصمة له وتمكنت هذه الدولة ـ أو بعبارة صحيحة الأسرة الأولى التى تألفت من أربعة وأربعين ملكا فى المدة الممتدة من القرن الرابع حتى القرن الثامن الميلادى ـ أن تبسط حكمها بين أوكار وحوض فى الصحراء الكبرى ، واستطاع فى آخر هذا القرن أحد شعوب الماندى ، وهو السوننكة ، أن يرث دولة غانة واستولى على الحكم سنة ٧٧٠ م .

ويمدنا الإدريسى الجغرافى العربى بصورة لمجتمع غانة وأسلوب معيشة الشعب وحكامه ، إذ قال : أن عمارة القصر الملكى كانت تزينها التماثيل والرسوم المنقوشة ولوحات الصور وتتخللها النوافذ الزجاجية .

كما يصف «محمود كعت» مؤلف تاريخ الفتاش جانباً واحداً من البذخ

الذى كان يتسم به بلاط كانيسا أى أحد ملوك غانة فى نهاية القرن السابع ، فيقول فى وصف الاسطبلات الملكية :

« لم يكن هناك جواد واحد من جياد الملك الألف لاينام إلا إذا فرشت تحته طنفسة ، وكانت الجياد توثق برباط من الحرير المجدول حول العنق وفى القدمين ، وكان لكل جواد ثلاثة أشخاص لخدمته يأخذون أماكنهم فى جواره ، ويعنى أحدهم بطعامه ، وثانيهم بسقيه ، وثالثهم بما يخرج منه » .

ويذكر مرة أخرى مؤلف تاريخ الفتاش أن الملك كان فى كل ليلة يجلس على عرش من الذهب الأحمر ، ويحيط به حاملو الشعلات النارية ، على حين يشاهد عشرة آلاف من رعاياه وهم يتناولون طعام العشاء من مطابخ القصر .

تلك هى إحدى صور البذخ التى كان يعيش فيها أباطرة غانة ، فقد كان الملك يتوسط دائماً أبهة بلاطه الرائع ، تلك الأبهة التى تعكس دون مبالغة بذخ دولته وفرط ثروتها . كان يتخذ مجاسه فى إيوان الملك ، وقد رصعت ملابسه بالجواهر ، ويضع على رأسه ما يشبه التاج الذهبى ، ويحف به طاقم من الجياد المطعمة بالحلى الذهبية ، ويقف خلفه عشرة من الغلمان الوصفاء يمسكون الدرقات والسيوف المذهبة ، وإلى اليمين يقف آباء الأمراء التابعين لسلطانه ، وهم مرتدون الملابس الجميلة ، وقد رصعوا شعورهم برقائق الحلى ويجلس الوزراء أمام الملك ، ويقف حاكم المدينة عند قدميه ، وتحرس كلاب الصيد الإيوان الملكى ، وحول رقابها الأطواق والأجراس الذهبية والفضية ، وتلك كانت تتبع الملك دواماً أينما ذهب .

وكانت تقرع الطبول الملكية عند بداية أى حفل يشترك فيه الملك ، وكانت تعرف « بالدبسا » ، أما أتباعه الوثنيين فيركعون أمامه ثم يأخذون التراب من الأرض ويضعونه على رؤوسهم ، ويبدي المسلمون من رعاياه الاحترام بالتصفيق له .

فإذا مات الملك وضعت جثته على الطنافس والوسائد تحت قبة من الخشب وتوضع الأثواب وألوان الطعام والشراب إلى جانبها ، وكان يدفن معه المقربون من الخدم والأتباع الذين يشرفون على خدمته الخاصة فى أثناء حياته ، ثم تغطى المقبرة بالحصير ، ويشترك الجمع المحتشد بإلقاء التراب على القبة حتى تصير كومة عالية ، ثم يحيطونها بخندق .

وقد احتوت الخزانة الملكية فى غانة على سبيكة ضخمة من الذهب كانت رمز الملكية ، اشتهر أمرها فى العالم المعروف إذ ذاك ، وقدر بعض الخبراء زنتها بثلاثين رطلا ، وذكر ابن خلدون أنه بعد أن سقطت مدينة غانة فى قبضة المرابطين (١٠٧٦ م) وبعد ثلاثمائة سنة بيعت تلك السبيكة إلى أحد التجار فى مصر وقدر زنتها طناً .

وكانت صلات غانة التجارية مع العالم الخارجى من الأهمية بمكان ويرجع ذلك إلى توسط موقعها ، فقد كانت تشغل رقعة الأرض التى تقع عند الطرف الجنوبى لطريق القوافل الغربية عبر الصحراء الكبرى التى امتدت بين سجلماسة فى بلاد المغرب مارة بتغازة التى اشتهرت بمناجم الملح .

وكانت « غانة » تستورد القماش والمنسوجات الحريرية والنحاس والملح وتصدر تراب الذهب وربما الجلود أيضاً .

ولم يكن معظم ذهب « غانة » يعثر عليه فيها ، لكن كانت « ونجارة » أهم المصادر التى أمدتها به ، وكان شعب الونجارة يقطن بقعة فسيحة امتدت ثلاثمائة ميل طولا وخمسين عرضاً فى جنوب منطقة نهر سنغال . وليس من اليسير أن تعرف بالدقة موقع الذهب فى ديار « ونجارة » .

وقد ذكر ابن حوقل الجغرافى العربى (حوالى عام ٩٧٥ م) أنه شاهد فى « أودغشت » على حافة الصحراء (وكانت على مسيرة خمسة عشر يوماً إلى غربى مدينة غانة) صكا قيمته ٤٢٠٠٠ دينار كتب على ذمة تاجر فى سجلماسة ،

مدينة غانة أو كومبى

ومدينة غانة أو « كومبى » كما أسماها شعب غانة هى عاصمة الامبراطورية السوداء، تألفت من قسمين هامين ، يقع كل قسم منهما على تل ، وتمتد نحو الوادى على رقعة سهل فسيحة ، وكان كل قسم يبعد عن الآخر نحو ٦ أميال يقطن المسلمون أحدهما ، ويسكن الوثنيون القسم الآخر ، وقد أطلق المسلمون على ذلك القسم « الغابة » ، لأن الأحراش كانت تحيط بها من كل جانب . وهى موضع تقديس الأهالى ، وبها المقابر الملكية ، ويعيش الكهنة والسحرة وعباد الأوثان فى الأحراش ، كما أقيم فيها سجن عتيد ليقضى فيه المحكوم عليهم بالموت أيامهم الأخيرة .

وكان فى المدينة الإسلامية اثنا عشر مسجداً ، وقد عاش فيها كثير من العلماء ورجال الدين والأدب والطلاب ، وكانت اللغة العربية لغة التدريس ليس عند المسلمين فحسب ، بل فى جميع أنحاء الامبراطورية .

وكان فى المدينة الوثنية مسجد واحد يؤدى فيه ضيوف الملك من المسلمين الصلاة ، يقع إلى جوار دار القضاء .

وقد شغل مناصب الدولة المسلمون والوثنيون على السواء ، ويذكر المؤرخ البكرى أن غالبية الوزراء كانوا من المسلمين ، وأن القائم بشئون الترجمة فى بلاط الملك ووزير الخزانة كانا من المسلمين أيضاً .

كان قسما المدينة « أى : كومبى » مشيدين بعناية ، بنى بعض دورها بالحجارة وبعضها باللبن .

وقد ذكر ابن خلدون أن عدد سكانها كان كبيراً وأنها ـ أى المدينة ـ كانت من أكبر مدن العالم وأكثرها ازدحاماً بالسكان ، وكان أهلها يرتدون الملابس الصوفية والقطنية والحريرية والمخملة ، كما ازدهرت فيها صناعات نسج الأقمشة ، وزراعة التمر ، وصناعة النحاس والأحجار الكريمة والدروع والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة .

وقد استمد البكرى وصف كومبى حاضرة غانة من المعلومات التى كان يحصل عليها من تجار البربر الذين عرفوا المدينة جيداً ، وتتحدث معظم هذه المعلومات عن رخاء كومبى ونشاطها التجارى وروعة القصر الملكى .

تلك هي نظرة شاملة لما كانت عليه أحوال غانة ومجتمعها فى الشطر الأول من تاريخها الوسيط ، وننتقل الآن إلى التحدث عن تاريخها وأهم الأحداث التي مرت بتلك الامبراطورية السوداء .

الطوارق (الملثمون) :

كان لإسلام قبائل الطوارق (الملثمين) فى القرن التاسع الميلادى أثر فى تطور الأحداث الهامة فى المغرب الأفريقى والسودان ، ولا سيما بعد أن قام حلف لجمع شمل الملثمين بزعامة اللمونى « تيولان بن تيكلان » الذى اعتنق الإسلام ، وكان من أهداف الحلف ، التوسع نحو الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربى ، ولذلك كان لابد أن يصطدموا بغانة التى كانت قد وصلت إذ ذاك إلى أوج مجدها وتوسعها ، حتى لقد وصفها ابن خلدون بقوله : « كانوا أعظم أمة وأضخم ملك » (١) ، وامتدت منطلقة نفوذهم من ثلية نهر نيجر جنوباً حتى مدينة أركى فى الشمال ، وتقع على مسيرة سبعة أيام من مضارب قبيلة لمتونة غرب وادى نون ، ولكن كان من حسن طالع حلف الملثمين الصنهاجى أن دبت عوامل الضعف فى هذه الدولة الزنجية الكبيرة فى ذلك الوقت بالذات .

ولقد زحف الملثمون بجيوشهم حتى استولوا على أودغشت واتخذوها حاضرة لهم ، وفرضوا الجزية على المغلوبين ، وقد انتهز شعب صوصو فرصة هذا الاعتداء على جارته غانة ، فضربها من الجنوب .

---

(١) ابن خلدون : « العبر » ج ٦ ص ١٩٩ .

ثم تفككت روابط الحلف بين قبائل الملثمين عام ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) فانتهزت غانة أحوال تفرق الحلف وبسطت ظلها على ما حول مدينة أودغشت مرة أخرى ، ولكنها لم تستطع استرداد أملاكها السابقة بعد استقرار الملثمين فيها . ويبدو أن غانة قنعت بالسيطرة على أودغشت ، لأن ذلك معناه التحكم فى طريق التجارة بين بلاد السودان وسجلماسة والمغرب ، وفى ذلك ربح طائل لاقتصادياتها ، ومن ثم وقفت غانة ثانية على قدميها طوال السنوات الخمسين التالية قوة عظيمة فى السودان الغربى .

ولعل أهم آثار الاحتكاك أن تسرب الإسلام إلى غانة للمرة الأولى ، بفضل ما خلقته العلاقات التجارية بين بربر الشمال وزنوج السودان .

ثم بدت عوامل جديدة أثرت على العلاقات بين قبائل الملثمين ، فاتفقت كلمتهم على إعادة الوحدة والحلف مرة ثانية ، فكروا على غانة ثانية واستولوا على أودغشت ، ويحتمل أن يكون ذلك قد تم حوالى عام ٣٥٠ هـ (٩٦٠ م) فإن ابن حوقل (المسالك ص ٧١) طوف بديار الملثمين فى ذلك الوقت تقريباً ، ودخل أودغشت ، ووصف قوة ذلك الحلف الجديد .

وعادت صنهاجة لبسط ظلها من جديد على الديار الممتدة من جبال دون فى الشمال إلى ثنية النيجر فى الجنوب ، ولم تهدأ ثائرة النضال ، واستردت أودغشت ، وتفرقت كلمة الملثمين ، وعمتهم الفرقة من جديد فى أوائل القرن العاشر ، وانتظروا فرصة مقبلة .

ولم تنته أحداث الملثمين عند هذا الحد . كانت المعارك الأولى نقطة البداية ، حتى انطلقت دعوة دينية انبثقت فى صفوفهم ، تلك الدعوة التى وحدت صفوفهم وأذكت فى نفوسهم الرغبة فى الجهاد .

وقبل أن نتحدث عن آثار تلك الدعوة فى مهاجمة غانة نقول : إن قبائل صنهاجة فى الجنوب لم تستطع العيش فى ظل الفرقة بين قبائلها ، فقد

كانت أحلاف زناتة والمصامدة فى الشمال لا تزال تسد مسالك المغرب والمحيط ، وكانت غانة تهدد تجارة السوذان ، وهى مصدر رزق لقبائل صنهاجة الضاربة فى الصحراء ، فكان لزاماً أن يتحدوا ليقووا ، وقد تم فعلا نوع من التحالف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ، بفضل الجهود التى بذلتها لمتونة (١) .

ويبدو أن أهداف هذا الحلف الجديد كانت الهجوم على ملك غانة ، والسيطرة على طرق التجارة ، واسترداد ما فقده الحلف من مصالح تجارية وربما كان هـــذا الحلف قد تم حوالى عام ٤٢٤ هـ (١٠٣٢ م) بزعامة أبى عبد الله بن نارشت اللمتونى(٢) .

ولكن لم يكتب لهذا الحلف أن تطول مدته ، فقد قتل زعيمه وهو يقاتل ملك غانة ، وهزمت لمتونة وأخفقت فى استعادة أودغشت والسيطرة على مصادر ثروة السودان (٣) .

وكان من نتائج تلك الهزيمة أن تخلت لمتونة عن زعامة قبائل الملثمين ، ويرجع بعض أسباب هزيمتها إلى أن مضارب رجالها كانت فى أقاصى الشمال قرب حدود المغرب الأقصى ، وكان انتقالها إلى الجنوب وتخطيها حوض نهر سنغال للهجوم على السودان يتطلب الجهود والأموال ، فلم تستطع أن تمضى فى هذا الجهاد حتى تبلغ هدفه .

وآلت زعامة الملثمين إلى قبيلة « جدالة » ، فأسرعت إلى المعركة التى كانت لاتزال مستمرة إذ أنها لو تخلت عن القيادة لذهبت قوة الملثمين . وعادت غانة تتسرب إلى الشمال ، وتقضى على الجهود التى بذلت فى نشر

---

(١) الدكتور حسن محمود « قيام دولة المرابطين » ص ١٠١

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٥ ص ١٨٩ .

(٣) البكرى « المغرب » ص ١٧٥ .

الإسلام ، وكانت جدالة أقدر على كفاح السودان لقرب ديارها من مملكة غانة ، وأعرف بأحوال البـــلاد وطباع أهلها ، ولغناها أيضاً . وكان « زعيم » جدالة فى ذلك الوقت يحيى بن إبراهيم الذى كانت تربطه بأبى عبد الله صلة القرابة .

* * *

فى يوم من الأيام كان الزعيم الطارقى يحيى بن إبراهيم مارا بالقيروان عقب عودته من تأديته فريضة الحج ، فالتقى بابن عمران الفقية الفاسى الذى دهش حينما علم بجهل يحيى وأتباعه بشؤون الإسلام ، فلمس حاجتهم إلى من يثقفهم ويهديهم إلى السبيل المستقيم ، ورأى أن يبحث عن مرشد صالح ليمكن الإسلام القويم فى نفوس رجال يحيى ، فوقع أختياره (٢) بعد زمن على عبد الله بن يس السجلماسى ، وكان من آثار هذا الاختبار الموفق إبتداء الامتداد لنفوذ مذهب مالك من القيروان إلى المغرب الأقصى ، وتخطيه تخوم هذه الديار نحو الجنوب وانتشاره فيما بعد فى بلاد السودان الغربى .

رحل ابن يس وأخذ يمهد للوحدة السياسية إلى جانب التمسك بأهداف الإسلام ، لكنه لم يوفق كما أراد ، فاتبع طريقة أخرى .

رأى أن يهاجر نحو الجنوب مع بعض رفاقة إلى جزيرة تقع عند مصب نهر سنغال الأدنى ، واتبع حياة التصوف والزهد والمرابطة ، وبدأ الناس يجتمعون حوله ويلتمون لرباطه ، واتخذوا اسم المرابطين . والحق يقال إنه وقع على كاهل ابن يس أن ينشىء جيلا جديداً من المسلمين ، ويهيئهم للون من حياة الجهاد ، ويعدهم للقتال ، ويغرس فى صدورهم فى

---

(١) دله ابن عمران أولا على تلميذه « وجاج بن زلاوى اللمتونى فقيه السوس » ، وهذا أرشده إلى تلميذه الصنهاجى عبد الله بن يس السجلماسى .

الوقت نفسه مبادىء الإسلام الصحيح . حتى إذا ما زاد عدد أنصاره من هؤلاء المرابطين خرج من رباطه ليحقق أهداف السياسة التى رسمها ، وسار على رأس مجاهديه الشبان إلى السودان ، فاتجه إلى الشرق نحو ثنية النيجر ، ودخل مدينة أودغشت عام ١٠٥٤ ، وانتزعها من ملك غانة الذى كان قد أستردها من الملثمين بعد سقوط الحلف الصنهاجى - ثم حمل أهل غانة على اعتناق الإسلام فدانت به غالبيتهم .

كانت المعارك بين الجانبين مريرة جدا . . هذا يدافع عن عقيدته ، وذاك يدافع عن أرضه . . وفقد فى هذه المعارك مئات القتلى .

وقد استشهد فى إحدى المعارك يحيى بن عمر (١٠٥٦) ، ثم أوغل المرابطون فى تقدمهم إلى الجنوب ، وحالفوا زعيم التكرير فخاض غمار الحرب إلى جانبهم .

وكان من نتائج هذا النجاح أن انضمت قبيلة لمتونة إلى المرابطين ، ثم عاد ابن يس إلى الشمال ووحد عدة قبائل أخرى انضمت تحت زعامته .

وسوف لانذكر هنا أعمال ابن يس وأتباعه فى المغرب الأقصى بعد انتصاراته وفتوحه فى الأندلس ، فهى كثيرة ومتشعبة . ومما يؤسف له أنه مات فى أشد اللحظات حرجا . إذ استشهد فى قتال برغواطة (عام ١٠٥٧) م ، وبموته فقد المسلمون زعيما ومجاهدا أفريقيا من كبار المناضلين فى نشر الدعوة ، فقد أقام دولة واحدة تحت لواء المرابطين والأقاليم الشمالية الخصبة التى تضم السوس وأغمات وسجلماسة وتوابعها ، وفضلا عن ذلك كان قد انتهى من دعم أسس ثابتة لإمبراطورية كبيرة تقع حدودها فى خارج أفريقية .

أختار المرابطون خليفة لابن يس ، ولم يعش طويلا ، آل الأمر إلى أبى بكر بن عمر الذى جعل مقر حكمه فى أغمات ، فى المكان الذى قامت

محلية فيما بعد مراكش الحالية . واستطاع أبو بكر بعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة أن يهزم مملكة السوننكة الخاضعين لغانة ، ويضم بلادهم إلى دولة المرابطين ، وانكمش سلطان غانة وتفككت ممالكها واستقلت بعض أقاليمها .

وكانت غانة مع ذلك تنتهز الفرصة للانتقام من المرابطين ، وتهدد طريق سيادتهم بين كل حين وآخر . أو ليست الصحراء ميدانا فسيحا لقتال الكر والفر ؟ ولذلك كان القضاء على غانة هدف الجماعات المتحمسة بين المرابطين ، ولا سيما فى خطة أبى بكر حينما قلد قيادة الجيش الشمالى من قواته عام ١٠٦٣ إلى يوسف بن تاشفين ، وعاد إلى حرب الصحراء .

وجاء تنفيذ تلك الخطة بعد أربع عشرة سنة ، فتمكن بمساعدة تكرور (١) من الاستيلاء على كومبى ، وفرض الإسلام على جميع البلاد . وقد تم له هذا النصر على إمبراطورية غانة عام ١٠٧٦ م ، ومن ثم صارت إليه وإلى رجاله مواطن الذهب الغنية ، وهى أهم مصادر الثروة السودانية فى ذلك الحين .

نهاية إمبراطورية غانة :

لم يكن لسقوط غانة الآثار البعيدة المدى المنتظرة التى كان يتوقعها الزعماء الأفريقيون فى ذلك الحين . ذلك لأن انهيار المرابطين كان سريعا فى الجنوب ، بل أسرع من نهايتهم فى الشمال ، فقد عادت من جديد الخلافات التى كانت دواما سبب ضعفهم وفشلهم ، وذلك لأن بعض قبائلهم ـ ومن بينها مسوفة ولمتة ـ رفضتا العمل معا تحت زعامة لمتونة ، تلك القبيلة

(١) موطن قبائل التوكولور ، وتقع غربى غانة ، ويعرفون باسم التكارير . وكانوا يؤلفون شعباً تجارياً نشطاً أخضعتهم فى القرن الحادى عشر .

التي كانت بمثابة العمود الفقرى للمرابطين ، فى حين ظلت جدالة وأقفسة بعيدة عنهما .

وآل الأمر إلى يوسف بن تاشفين بعد موت أبى بكر عام ١٠٨٧ م ، ولم يكن سيد شمالى أفريقية فحسب ، بل صاحب الكلمة فى الأندلس ، حينما انتصر على الملك ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦) .

وفى خلال عشرة أعوام بعد هزيمة غانة ، كان المرابطون قد أسسوا إمبراطورية امتدت من السنغال غربى أفريقية إلى نهر الأبرو فى الأندلس ، وقد دامت تلك الإمبراطورية حوالى مائة عام إلى أن قامت فى أعقابها دولة الموحدين .

وفى أثناء تفكك المرابطين وانشغالهم بدولتهم فى الأندلس ، استطاع السوننكة إحدى ممالك غانة أن يستعيدوا استقلالهم ، ولكنهم كانوا كالمرابطين تعوزهم الوحدة وتسودهم الروح القبلية . فإنهم لم يستفيدوا بمزايا الظروف والأحداث المعاصرة ، فعاد الشقاق إلى صفوفهم ، ورغب كل إقليم أن يستقل ببلده ولم يعملوا فى سبيل وحدتهم للثبات فى وجه عدوهم المشترك فى الشمال .

وفى عام ١٢٠٣م استولى سونجروا ، ملك الصوصو ، أقوى ممالك غانة على حاضرة البلاد ، وكانت عواقب هذا الاستيلاء خطيرة جداً كما سنرى . كان من أهمها خروج بعض التجار المسلمين والسوننكة الأغنياء إلى الصحراء ، ثم شيدوا بلدة جديدة فى الصحراء تقع على بعد بضع مئات من الأميال إلى شمالى كومبى (١) على قطعة من الأرض كانت تستخدمها

(١) أشار أبو الفداء وابن خلدون فى القرن الرابع عشر إلى كومبى التى يبدو أنها كانت لا تزال باقية إلى ذلك التاريخ . ولا شك أنه التبس عليهما الأمر وخلطا بولاته . كما أثبت ذلك أحد الرواة الأجانب .

القوافل ، كان أسمها « ولاته » ، ثم نمت البلدة على مر الأيام وأصبحت من أهم الأسواق فى الصحراء الكبرى ، أما كومبى فقـــد محى أثرها من التاريخ .

فى تلك الأيام كانت « مالى » الصغيرة دولة تمر فى مرحلة الانطلاق ، وخشى سومنجرو أن يعلو شأنها يوماً من الأيام فتهدد دولته ، ولذلك قرر أن يضربها قبل أن تقوى عليه ، فوجه ضربة نحو جيشها ، وانتصر عليه ، وأخرى نحو بيتها المالك فذبح أحد عشر شقيقاً كان سيؤول إليهم حكم « مالى » ، ولم يذبح شقيقهم الثانى عشر لأنه كان كسيحاً لا أمل فيه . ولم يكن هذا الشاب الكسيح سوى « سوندياته » الذى آل إليه حكم « مالى» فيما بعد وشيد إمبراطوريتها ، وقضى على غانة قضاء تاماً وضمها إلى ملكه .

- ٣ -

مالى فى العصور الوسطى

(١٢٣٨ — ١٤٨٨)

مالى فى مؤلفات العرب :

ربما يكون أبو عبيد الله البكرى (القرن الحادى عشر) أول مؤلفى العرب الذين ذكروا « مالى » وملكها المسلم فى مؤلفاتهم . ومع ذلك فإنه يلاحظ أنه ذكر « مالل » وليس مالى (١) . وقد رجع البكرى فيما كتبه إلى الإدريسى الجغرافى الأندلسى الذى توفى حوالى عام ٩٧٣ .

وذكر الإدريسى (حوالى ٩٥٤) مال أيضاً ، وقال إنها تقع فى بلاد لملم . وكان ابن فضل الله العمرى أغزر الكتاب العرب الذين تناولوا مالى (١٣٤٢ - ٩) كتب عنها عدة صفحات فى كتابه المعروف « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » . وقد ذكر العمرى أن « مال تعرف عند العامة بتكرور ، ويطلق على سلطانهم فى مصر سلطان التكرور ، والواقع أنه لو سمع هذا لأنف منه ، لأن التكرور إنما هو إقليم فى مملكته ، والأحب إليه أن يقال (صاحب ملى) لأنه الإقليم الأكبر ، وهو به أشهر وليس بمالى من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة دون غيره ، لعدم انتزاعها منه والاستيلاء عليها استيلاء تاماً »(٢) . والمعروف أن العمرى

(١) البكرى « وصف بلاد أفريقية » نشره دى سلين . ط ثانية عام ١٩١١ ص١٧٨ .
(٢) راجع أيضاً صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٥ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٦ وقد نقل عن العمرى .

تناول مالى فيما كتبه فى أثناء حكم ملكها منسا سليمان ، وذكر جملة الأقاليم التى اشتملت عليها مالى حينذاك ، وهى: غانة وزاجون وتورونكا وتكرور وسنغانة وبانبوغو وزرقطبانة وبترة ودامور وزاغة وكبارة وبرغورى وكوكو. يضاف إليها بعض الأقاليم الصحراوية التى كان يؤلف سكانها غالبية من البربر .

ويقول ابن خلدون إنه لما قابل الشيخ عثمان مفتى غانة فى عام ١٣٩٣ ذكر له أن برمندانه كان أول ملوك مالى الذين اعتنقوا الإسلام ، وقد تناول ابن خلدون مالى فى كتابه « العبر » فقال عنها إنها اشتملت على خمس ممالك ، وإن كل إقليم منها مملكة بذاتها . وهى :

١) مالى ، ٢) صوصو ، ٣) غانة ، ٤) كوكو ، ٥) تكرور . وهذه الممالك تؤلف أربعة عشر إقليما .

ومن أهم الرحالة العرب الذين كتبوا عن مالى فى أهم عصورها ابن بطوطة ، زارها فى أيام منسا سليمان (١٣٥٢ — ١٣٥٩) ، ووصف لنا أهم مدنها وأحوالها وعاداتها وطعام أهلها وتقاليدها . . وقد أمدنا بصورة حية من مجتمع شعب مالى ، لم يصل إلينا مثله ، وسيأتى الكلام عن هذه الرحلة فيما بعد .

وهكذا رأينا عناية طائفة هامة من مؤرخى العرب ورحالتهم يعنون بتاريخ هذه الدولة الإسلامية : البكرى والإدريسى والعمرى وابن خلدون وابن بطوطة ، ونضيف إليهم أيضا القلقشندى (القرن ١٥) صاحب صبح الأعشى .

* * *

شق الإسلام طريقه إلى الأسرة الحاكمة فى مالى فى منتصف القرن الحادى عشر ، وكان هذا حينما غزا المرابطون بقيادة ابن يس ديار غانة

الخارجية (١٠٥٠) ، ونلتقى فى نفس تلك السنة للمرة الأولى باسم «برمندانة» ملك مالى الذى اعتنق الإسلام ثم أدى فريضة الحج .

ولم تصل إلينا تفصيلات من تاريخ مالى فى القرنين التاليين حتى عام ٩٣٥ ، وهى السنة التى تغلب فيها سندياته على « سومانجورو » ملك صوصو ، ومن ثم بدأ يشيد مجد دولته الفتية بفضل جيشه المنظم ، فتم له إخضاع الدول المجاورة فى خمس سنوات ، وخرب ماتبقى من عاصمة غانة (١٢٤٠) ، ثم نقل حاضرة مملكته فى جريبة إلى مدينة أطلق عليها نيانى أو مالى ، وذلك لكى تتوسط دولته ، وسرعان ما اجتذبت إليها تجار المغرب فاتخذوا منها مقاما لنشاطهم واحتلت مكانة عاصمة غانة .

سندياته (١٢٣٠ - ١٢٥٥)

يتسم عصر سندياته (مارى جاطة) مؤسس إمبراطورية مالى بالحروب المتعاقبة ، فلما جلس على العرش لم يكن يتنبأ له أحد بما وفق إليه من الأعمال المجيدة ، ولم يكن محبوباً عند رعاياه ، فخشوا بأسه وبطشه ، ولكنه كان على أى حال بناء دولة .

أحاطت به الأخطار فى بداية حكمه ، فالتجأ إلى بعض شجعان الرماة فى بلاده ونصبهم حراسا له . وقد رأيناه يقضى على صوصو ، ويوجه ضرباته ضد الممالك المجاورة . ومنها البلاد التى كان يحكمها عمه ، فارغمه على أن يقدم ولاءه له ونصبه قائدا فى جيشه الجديد ، ثم اتجه الى الغرب وغزا البلاد التى تقع فى إقليم فوتاجالون ، ثم سار إلى الشرق عابرا النيجر ، وأخضع القبائل التى اعترضته فى طريقه إليها ، وبعد قتال استمر عدة أعوام عاد إلى جريبة حاضرة مملكته الأولى على رأس جيشه الظافر (١٢٣٤) .

وفى العام التالى تم انتصاره على صوصو ، ثم دأب على تنظيم شئون دولته الفتية . واتجه سندياته (١٢٤٠) إلى عاصمة غانة القديمة وخربها

تماما ، لكنه استبقى ملكها الذى رضى بالخضوع له ، وسمح له بالاحتفاظ بلقب « ملك غانة » ، وحرم على جميع حكام الإقاليم استعمال الألقاب الملكية .

ولم يمتشق سندياته الحسام مرة أخرى ، ولكن انتشرت حاميات جيشه بين ساحل الأطلسى إلى كانو وكتسينه وزارية فى الشرق ، وإلى قلب الأدغال فى الجنوب ، وأوغلت شمالا فى الصحراء ، وأصبحت مالى أقوى دولة فى السودان الغربى لها بأس وسيادة ، ونظم إدارية ، فضلا عما كانت تمالكه من مناجم الذهب فى ونقاره . وعلى ذكر هذا المعدن النفيس ، فقد حاول سندياته أن يحول قبائل ونقاره عن الوثنية إلى الإسلام ، ولكنهم لم يستسلموا وأوقفوا العمل فى الذهب ، فاضطر إلى مهادنتهم وتركهم لعباداتهم وتقاليدهم ، فاستأنفوا أعمالهم ، واستمرت أحوال دولته محتفظة بازدهارها التجارى .


كان سندياته قاهر غانة المؤسس لمجد وعظمة مالى فى القرن الثالث عشر وفى سبيل ذلك لم يتبع سياسة نشيطة حربية من أجل النهوض بمملكته الصغيرة ، والعمل على رفعها إلى مستوى الدولة القوية فحسب ، لكنه عمل جاهداً على دعم نظم الإدارة فى بلاده وتشجيع الزراعة ولاسيما زراعة القطن.

ومات سندياته عام ١٢٥٥ م بعد حكم استمر خمساً وعشرين سنة .

منسا على — ولى (١) ١٢٥٥ — ١٢٧٠

جلس على عرش مالى بعد موت سندياته ابنه منسا ولى ، وكان من أعظم حكام بلاده ، ومحبا للسلم ، قام بتأدية فريضة الحج على عادة برمندانة عام ١٠٥٠ م . وقد أشار القلقشندى لخروج منسا ولى للحج فى

(١) تذكرة المراجع العزبية «منسا ولى». ومعنى منسا بلغة مالى السلطان . ومعنى ولى على



أهم الممالك السودانية فى غربى إفريقية أثناء القرن الرابع عشر

أيام السلطان بيبرس فى قافلة كبيرة اجتازت الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات والذى يمتد من هذه المدينة وينتهى عند أهرام مصر . وكان لهذا الحجيج صدى ودوى فى أنحاء أفريقية وبعض بقاع العالم العربى .

جنح منساولى إلى السلم ، ولكن قادته لم يشاركوه فى سياسته ، ورأوا أنه لم يبق لهم عمل فى ظل راية الهدوء ، ولذلك قاد بعضهم جيوشه وغزوا أقاليم أخرى ، فضم أحدهم بامبوك (١) وقام آخرون بغزو كونكودوجو وجنجران وونقارة .

ولم يقف أحد من المؤرخين على أحوال مالى فى أيام هذا السلطان ، ولكنهم يتفقون على أنه فيما بين ١٢٧٠م و١٣٠٧ تولى حكم البلاد ما لا يقل عن سبعة من الملوك ، نذكر منهم والى شقيق ولى ، ثم خليفة ، وكان يغلب عليه الحمق ، يرمى الناس بالسهام فيقتلهم ، فوثب عليه أهل مملكته فقتلوه ، وملك بعده سبط من أسباط « مارى جاطه » اسمه أبو بكر ، ثم تغلب على الملك مولى من مواليهم إسمه ساكبورة (١٢٨٥) فاغتصب العرش ، ومد حدود دولته على حساب جيرانه ، فغزا تكرور فى الغرب ، وونقاره وجاو (٢) عاصمة سنغاى فى الشرق ، وكان نجمهـا بدأ يسطع بين الممالك الأفريقية ، فقوى سلطانه بين شعوب السودان ، ورحل إليه التجار من المغرب .

وفى ظل هذا الإمبراطور انتشر الرخاء فى مالى ، وحافظت البلاد على رقعتها ، وعمها الهدوء وشملها الرقى . وفى عام ١٣٠٠ عزم ساكبورة على الحج إلى بيت الله ، وكان ذلك فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى مصر . ولما أدى الفريضة قرر أن يتبع طريق أكسوم فى الحبشة والسودان الشرقى ، ولا ندرى سبب ذلك ، وعلى أى حال فإنه لما ترك

---

(١) بامبوك إقليم اشتهر بالذهب وقد ذكره العرب وونقارة فى مؤلفاتهم .

(٢) جاو أو جاغ عاصمة سنغاى . وقد ازدهرت كمدينة إسلامية . وكانت من أشهر أسواق للملح وفاقت معظم البلدان المجاورة .

سفينته ووطئت قدماه البر الأفريقي هجم عليه بعض أهالى الدناكل عند ساحل تاجورة فى الصومال وقتلوه ، وكانت مدة حكمه ١٥ سنة .

وتولى الحكم فى أعقابه ثلاثة ملوك خلال سبع سنوات ، كانوا ضعافاً نذكر منهم « قو بن السلطان مارى جته » و « محمد بن قو » ثم انتقل الملك من ولد مارى جاطه إلى ولد أخيه أبي بكر والد منسا موسى العظيم .

منسا موسى (١٣٠٧ — ١٣٣٢)

تولى عرش مالى عام ١٣٠٧ م ، ودوى اسمه فى القارات الثلاث . ولم يتول حكم تلك الامبراطورية من يدانيه فى القدر وعلو الهمة ، فقد جاهد لإعلاء شأن بلاده ، وكان مصلحاً كبيراً .

سأله ابن أمير حاجب والى مصر فى أيام الناصر محمد بن قلاوون (١٣٢٤ — ١٣٢٥) فى أثناء مروره بالقاهرة للحج عن سبب انتقال الملك إليه فقال :

« إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مئين من السفن وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين . وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عادت سفينة واحدة وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم فقال : سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب ، وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتين ، فلم يصدقه ، فجهز ألفى سفينة ، ألفاً للرجال ، وألفاً للأزواد ، واستخلفنى ، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه » ، وهكذا آل الحكم إليه .

سياسة الفتح :

استولى جيشه فى مستهل أيام حكمه على ولاته وتنبكتو ، ووصلت قواته إلى جاو فى منطقة النيجر الأوسط ، وامتدت دولته فى آخر حكمه إلى تكرور غرباً وإلى دندى شرقاً ، وبلغ نفوذه إلى قلب الصحراء حيث أروان وتادمكت (١) . وأوغلت سيادته حتى فوتاجالون جنوباً . ونلاحظ أن منسا موسى لم يعتد على استقلال ديارجنى المجاورة له ، وممالك موصى التى كانت تشغل حوض الفولتا فى جنوبى إمبراطورية مالى .

نبدأ الكلام على زيارته إلى مصر فى أثناء مروره بها فى رحلته الطويلة إلى بيت الله (١٣٢٤ م) لما تركته من الانطباعات الهامة فى أنحاء العالم الإسلامى ، بل وفى أوروبا أيضاً .

منسا موسى فى مصر :

تعتبر قافلة الحج التى مرت بمصر بصحبة السلطان منسا موسى من أروع مظاهر ثراء هذا العاهل الأفريقى . كان ذلك فى العام السابع عشر من حكمه (١٣٢٤) ، وقد رافق السلطان حشداً كبيراً من الوزراء والعلماء والأتباع وقدر بعض المؤرخين عددهم بحوالى ١٢٫٠٠٠ .

مر بولته وتوات ورجا ورجله فسرته على شاطىء البحر المتوسط فى برقة ، واتجه منها بإزاء الساحل إلى القاهرة ، وهى فى ذلك الحين مركز الحياة الإسلامية وكعبة العلماء ورجال الآداب ، ولما وصل إليها استقبله الأمير أبو العباس أحمد بن الحاكى المهمندار ، الذى ندبه السلطان الناصر محمد للإشراف على ضيافة السلطان ، ثم قدم الناصر محمد عدة هدايا ، منها حمل كبير من الذهب الخام ، ولم يدع أميراً أو رب وظيفة إلا نفحه من هذا الذهب .

---

(١) تادمكت مدينة بصحراء المغرب على مسيرة خمسين يوما من غانة إلى الشرق (البكرى ص ١٨)

واستقبله الأهالى أينما سار بكل مظاهر الحفاوة التى تليق بمقام ضيف جليل ، وكان يرى ممتطياً ظهر جواد ، يسبقه خمسمائة من العبيد ، يحمل كل منهم قضيباً من الذهب ، زنة الواحد خمسمائة مثقال (١) ، وكان العاهل سخياً خيراً يتدفق المال من يديه ، ويهب المنح إلى كل من يتصل به ، وكأنه لم يبتغ من وراء ذلك إلا الظهور بمظهر السلطان الكبير الذى يحكم دولة عظمى.

ثم حدثت أزمة لكنها مرت بسلام، فقد وجد رجاله صعوبة فى إقناعه بزيارة سلطان مصر ، وفازوا أخيراً بتنفيذ رغبتهم ، وتقابل العاهلان ، وقد عمل الناصر محمد كل ما فى وسعه لراحة ضيفه وحاشيته طوال مدة إقامتهم فى بلاده .

ويمدنا القلقشندى (٢) بأخبار مفصلة لتلك الزيارة نقلها عن المهمندار الذى كلف بمرافقة السلطان .

وقد ذكر ابن أمير حاجب والى مصر « أنه كان معه مائة حمل ذهباً أنفقها فى سفرته على من بطريقه إلى مصر من القبائل ، ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز توجهاً وعوداً ، حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه ، ولما عاد إلى بلاده بعث إليهم بما استدانه منهم.

وقد تألفت قافلة منسا موسى من مائة جمل على كل منها حوالى ثلاثمائة من الأرطال التى اشتملت على الهدايا النفيسة ، وكان السلطان يدفع لما يشتريه من العروض المصرية أضعاف ثمنها ، وأقبل على شراء الرقيق من النساء ، والأقمشة الحريرية . وفى أثناء إقامة منسا موسى فى مصر هبط سعر الذهب عن ثمنه العادى لوفرة ما وجد منه ، وظل منخفضاً مدة طويلة . وابتاع السلطان جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده مناهل الثقافة

---

(١) المثقال ثمن أوقية من الذهب .

(٢) القلقشندى : ج ٥ ص ٢٧٩ — ٣٠٠

الإسلامية . وظل الناس فى مصر يذكرون ما أحاط بتلك الزيارة كأنها من الأحداث العالمية ، ويتناقلون أخبارها سنين طويلة .

وقد تكررت مظاهر الكرم فى الحجاز فى أثناء الحج ، وأنفق المال بسعة فى كل مكان ذهب إليه . وفى أثناء إقامة منسا موسى فى مكة اتصل به « الساحلى » الشاعر الأندلسى (١) فالتحق بخدمة السلطان ، وقد اشتهر هذا الأديب بكفاءته فى فن البناء ، فطلب إليه السلطان أن يشيد مسجداً كبيراً فى مدينة جاو . وقد بقى هذا المسجد حوالى ثلاثمائة سنة ، وكان مشيداً بالآجر .

وفى أيام منسا موسى انتعشت التجارة والعلوم فى تمبكتو ، وسرعان ما أصبحت أهم أسواق السودان الغربى ، ولا سيما بعد انتقال سوق الذهب إليها ، كما اجتذبت التجار من درعة وسوس وسجلماسة وفزان ومن مصر أيضاً .

ومات منسا موسى عام ١٣٣٣ تاركا إمبراطورية مهيبة الجانب متقدمة على دول أفريقية الزنجية ، فى اتساع رقعتها ، وفى أحوالها الاقتصادية والثقافية ، بل فى نظامها الاجتماعية .

ويمكن أن نقول بحق إن منسا موسى كان رائداً لفكرة إنشاء اتحاد أفريقية الغربية . كان المالى فى أيامه لا يشعر بالغربة ، سواء أقام فيما يعرف اليوم بغامبيا أو سيراليون أو غانة ، كان لا يعرف إلا مواطن يعيش فى مالى . ولكن لم يكتب لهذا الاتحاد أن يعيش طويلا بعد وفاة منسا موسى ، فقد عادت القبائل تحن إلى نظمها وأساليب حياتها القبلية الأصلية ، فنهض موصى (Mossi) (١) فى باتنجا فى إقليم فولتا العلوى يغير على مالى،

---

(١) توفى فى تمبكتو عام ١٣٤٦ .

(١) تؤلف قبائل موصى شطراً كبيراً من أهالى أفريقية الفرنسية (سابقا) حيث يتمركز توزيعهم حول واجد وجو ويصل إلى الأطراف الشمالية من ساحل غانة . وقبائل موصى زراعيون .

وكان على عرشها ابن منسا الصغير ، ثم تدفقت غاراته الوحشية على تمبكتو واصطدم بحاميتها وحرق دورها . ومهد هذا الحاكم الضعيف لأحداث هامة .

ومما يثير الدهشة أن هذا الحاكم كان قد منح لأميرين من سنغاى ، وهما على كولن ، وسلمن نار ، حريتها ، وأطلق سراحهما ، وكانا فى بلاط مالى على عادة أولاد الملوك الذين فى طاعتها للخدمة وكان على كولن لبيبا وفطنا ، فأضمر الهروب إلى جاو حيث أعلن نفسه ملكا على بلاده (١٣٣٥م) واتخذ لقب (سنى) ومعناها « المحرر » .

وخلف « مغان » عمه سليمان (١٣٣٧) شقيق منسا موسى ، فبدأ حكمه بالعمل على إصلاح ما فسد من شؤون الدولة وإعادة الأحوال إلى ما كانت عليه قبل اعتلاء مغان العرش . ومع أنه فشل فى استعادة جاو ، فقد استطاع أن يعيد سيادته إلى معظم البقاع التى خرجت عن طاعة مالى .

وفى عام ١٣٥١ سافر ليؤدى فريضة الحج ، ومر بعدة بلاد أكد فيها سيادته ، ومنها تكدا (١) إحدى مدن القوافل التابعة لسلطان الطوارق فى الصحراء ، وقيل أنه كان يمر بها كل سنة قوافل يقدر عددها باثنى عشر ألف قافلة قادمة من نيانى (مالى) تقصد القاهرة ، وكان بالقرب منها مناجم النحاس تمد المغرب ومصر ومالى وبلاد الهوسا وبرنو بحاجتها منه .

منسا سليمان (١٣٥٢ - ١٣٥٩)

تولى الحكم بعده منسا سليمان شقيق منسا موسى ، وقد اجتمع له ما فتحه أخوه من بلاد السودان وأضافه إلى سلطان الإسلام ، وشيد المساجد والمدارس ، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك .

---

(١) مر ابن بطوطة بتكدا فى أثناء رحلته ، وكانت من أكبر مدن الطوارق ، تخضع سلطانها اسميا لمالى .

وفى أيام منسا سليمان زار الرحالة المغربى ابن بطوطة دولة مالى ، وتنقل بين مدنها الكبرى ، وقابل السلطان ، والتقى بطائفة كبيرة من العلماء والتجار ، وقد حدثنا عن تلك البلاد وأحوالها المختلفة التى لم يصفها مثله أحد من المؤرخين أو الجغرافيين العرب الذين عنوا بدول السودان الإسلامية .

بدأ ابن بطوطة رحلته من مسوفة (٧٥٣ هـ — ١٣٥٢) بعد مغادرته أيوالاتن ، ومر بزاغواى ، ثم وصل إلى نهر النيجر وعليه بلدة أكارسنخو حيث ينحدر منها النهر إلى كابرة وزاغة ، وكلها مدن إسلامية ، ولما وصل إلى نهر صنصرة ، وهو على نحو عشرة أميال من مالى ، ركب قارباً إلى مدينة مالى ، فنزل عند مقبرتها ، ثم قصد إلى محلة السكان البيض حيث كان فى انتظاره السيد محمد بن الفقيه الجازولى ، وكان قد استأجر له داراً فتوجه اليها وجاءه صهر الفقيه بشمعة وطعام .

وسنترك الكلام بعد ذلك لابن بطوطة ليحدثنا حديث الملم بأحوال مالى غاية الإلمام (١) ، وسيبدأ حديثه بوصف مقابلته لمنسا سليمان .

كان السلطان منسا سليمان (منسا معناها السلطان) هو الذى يحكم مالى فى ذلك الحين ، وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء .

تقدمت فسلمت على منسا سليمان ، وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى ، فأجابهم بلسانهم . فقالوا لى : يقول لك السلطان أشكر الله فقلت : الحمد لله والشكر على كل حال .

ولما انصرفت بعد إلى الضيافة توجهت إلى دار القاضى . وبعث القاضى بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه ، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافى

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ص ٣٠٢ — ٣٠٨ .

القدمين ، فدخل على وقال : قم ، جاءك « قماش » السلطان وهديته ، فقمت وظننت أنها الخداع والأموال ، فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز ، وقطعة لحم بقرى مقلوة بالفرتى (الدهن) وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير .

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إلى فيهما شيء من قبل السلطان ، ودخل شهر رمضان ، وكنت خلال ذلك أتردد إلى « المشور » وأسلم عليه وأقعد مع القاضي والخطيب ، فتكلمت مع دوغا الترجمان ، فقال : تكلم عنده وأنا أعبر عنك بما يجب ، فجلس في أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له :

« إني سافرت في بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولي ببلادك أربعة أشهر ولم تضفني ولا أعطيتني شيئا » ، فماذا أقول عنك عند السلاطين ؟ فقال : إني لم أرك ولا علمت بك . فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه ، وقالا : إنه قد سلم عليك وبعثت إليه الطعام ، فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها ، ونفقة تجرى على ، ثم أعطى القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرون من رمضان ، يسمونه الزكاة ، وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا ، وأحسن إلى عند سفرى بمائة مثقال ذهباً .

وصف جلوس السلطان بقبته :

قال ابن بطوطه : للسلطان قبة مرتفعة بابها بداخل داره ، يقعد فيها أكثر الأوقات ، ولها من جهة المشور « طيقان » ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة ، وتحتها ثلاثة منشأة بصفائح الذهب ، أو هي فضة مذهبة وعليها ستور « ملف » فإذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم أنه يجلس ، فإذا جلس أخرج من شباك أحد الطيقان (شرابه) حرير قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم ، فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال

والأبواق ، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى أيدى بعضهم القسى ، وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدرق ، فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ، ويجلس أصحاب القسى كذلك ، ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ، ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين ، وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبة فنجا موسى ، وتأتى الفرارية ، وهم الأمراء ، ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحداريه يمنة ويسرة فى المشور، ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة وعلى رأسه عمامة ذات حواش لهم فى تعميمها صنعة بديعة ، وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب ، وفى رجليه الخف والمهاميز ، ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفاً غيره ، ويكون فى يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضة وسفانان من الحديد .

وقال ابن بطوطة إن أهل السودان كانوا يكرهون منسا سليمان لبخله ، وكان قبله منسا مغا ، منسا موسى وكان كريماً فاضلا يحب البيض ويحسن إليهم وهو الذى أعطى أبا اسحق الساحلى فى يوم واحد أربعة آلاف مثقال ، وأخبرنى بعض الثقات أنه أعطى مدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد .

نظام مملكة مالى

ويزودنا القشقلندى بصورة جلية للتنظيم الإدارى فى هذه البلاد فيقول : « وكان بهذه المملكة : الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين . وإن السلطان لا يكتب شيئاً فى الغالب بل يكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء ، فيفعله ، وكتابتهم بالخط العربى على طريقة المغاربة » .

أما مقدار العساكر فقد ذكر الشيخ سعيد الدمالى :

« إن مقدار عسكره مائة ألف نفر ، منهم خيالة نحو عشرة آلاف فارس ، وباقيهم رجالة لا خيل لهم » .

أما الإقطاعات لأمراء هذا السلطان وجنده والإنعامات عليهم فإن من أكابرهم من يبلغ جملة ماله من الملك فى كل سنة خمسين ألف مثقال من الذهب ، وأنه يتفقدهم مع ذلك بالخيل والقماش ، وأن همته كلها فى تجميل زيهم وتمصير مدنهم .

وأمدنا ابن بطوطة بمعلومات طيبة عن مجتمع مالى ، فقال إن من أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شىء منه ، ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ، ولو كان القناطير المقنطرة ، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه ، ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام ، ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموقع يستحق به حتى يذهب إلى المسجد ، وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ، ولا ثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان ليوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة .

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه . ولقد دخلت على القاضى يوم العيد وأولاده مقيدون ، فقلت ألا تسرحهم ؟ فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ، ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفى رجليه قيد ثقيل فقلت لمن كان معى : ما فعل هذا أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن .

وذكر ابن بطوطة أن من مساوىء أفعالهم أن الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا ، ولقد رأى فى رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة ، فإن عادة الفرارية : « أن يفطروا بدار السلطان ، ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فمن فوقهن من جواريه وهن عرايا ، ومنهم جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدباً ، ومنهم من يأكلون الجيف والكلاب والحمير » .

ويظهر أن ابن بطوطة قد طابت له الأحوال فى مالى (نيانى) بدليل أنه مكث فيها ثمانية أشهر ، ثم عقد النية على مغادرتها إلى تمبكتو فى نهاية فبراير عام ١٣٥٣ . فامتطى جملا لأنه لم يكن معه مائة مثقال من الذهب يشترى بها جواداً . ولم يذكر لنا الرحالة شيئاً كثيراً عن تمبكتو سوى أنه شاهد مقبرة الساحلى الشاعر والمهندس الأندلسى ، ثم ركب قارباً صغيراً انحدر به فى النيجر ، ومر بعده قرى صغيرة لأهل سنغاى ، ومر بمدينة جاو التى قال عنها إنها مدينة حسنة المنظر ، ولم يذكر شيئاً أكثر من ذلك ، وبعد ما قام مدة شهر حول جاو وتركها بصحبة قافلة من تجار غدامس فى طريقها إلى تكدا المشهورة بمناجم النحاس .

علاقة مصر بمالى

كان لمالى صلة قوية بمصر فى أيام المماليك الشراكسة ، وكان للتكاررة (نسبة إلى تكرور أى مالى) جالية كبيرة فى مصر منذ العهد الفاطمى ، وعرفت مدينة بولاق « بولاق التكرور » نسبة إلى أحد الصلحاء التكاروة هو الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكرورى ، وكان يعاصر الخليفة العزيز الفاطمى ، فلما توفى بنى له قبة ومسجداً عرف باسم جامع التكرورى وجدد هذا المسجد ووسع على عهد المماليك البحرية عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م (١) وخصص فى الأزهر رواق من أروقته للتكاررة عرف باسمهم .

(١) جدده ووسعه الأمير محسن الشهابى مقدم المماليك .

وهناك صيغ خاصة وألقاب معينة فى الدواوين المملوكية لمخاطبة ملوك التكاررة ، ورغم قوة ملك التكاررة ، ورغم أن مملكته ، كما ينعتها المعاصرون أعظم ممالك السودان ، ورغم اعتداده بنفسه وإسلامه ، فإنه لم يستطع إلا أن يقبل الأرض لسلطان المماليك نزولا على العرف السائد . ومن التكاررة من خدم فى الجيش المملوكى وترقى حتى وصل إلى الرتب العالية ، مثل عنبر التكرورى الذى رقاه قايتباى فى عام ٩٠١ هـ / ١٤٩٥ م إلى نائب مقدم المماليك ثم صار مقدماً فى عام ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ .

نهاية مالى

ولى الحكم بعد وفاة منسا سليمان ابنه قنبتا ، ومات لتسعة أشهر من ملكه ، وربما قتله منافسه ابن مغا ، وجاء بعده مارى جاطه الثانى بن منسا مغا ، بن منسا موسى ، فأقام أربع عشرة سنة (١٣٥٩ — ١٣٧٣) أساء فيها السيرة ، وأتلف ما أقامه أسلافه بسرفه وتبذيره ، حتى انتهى به الحال فى الإسراف أنه كان بخزائنه حجر ذهب زنته عشرون قنطاراً من غير سبك ولا علاج بالنار ، فباعه إلى أحد التجار المترددين عليه بأبخس ثمن ، وأنفق ذلك كله فى الفسق ، ومع ذلك فإن عهده يتسم بإحياء الصداقة بين بلاده وسلطان المغرب الأقصى من ناحية ، وتعزيزه المودة بسلطان مصر من ناحية أخرى ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم حتى لا يكاد يفيق ، فمرض به عامين حتى مات عام (٧٧٥ هـ - ١٣٧٣ / ٧٤ م) .

وملك بعده ابنه موسى فنكب عن طريق والده ، وأقبل على العدل وحسن السيرة ، وتغلب عليه وزيره فجره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسن تدبير .

وحاول خلفاء مارجاطه أن يحكموا دولتهم ويعيدوا إليها سطوتها ، ولكن كان كل ذلك عبثاً ، فقد استقلت جاو وسقطت أروان وولاته وتمبكتو

ومعظم الأقاليم الشمالية فى قبضة الطوارق ، أما التوكولور والولوف فهاجموا مالى بوحشية لا توصف من الجنوب الغربى ، وانتهزت الفرصة قبائل موصى من الجنوب ، فالتهمت قطعة كبيرة ضمتها إلى بلادها .

ونتريث قليلا لنتكلم عن المراحل التى مرت بتمبكتو ، فقد ظلت تحت حكم مالى المباشر إلى عام ١٤٣٣ ، وفى ذلك الحين تركها سكانها من الطوارق بزعامة عقيل اجملوال ، ميممين شطر الصحراء الطلقة ، وخلفوها تحت رعاية حاكمها الصنهاجى محمد نادى الذى كان يشرف على إدارتها منذ أيام مالى ، وكان هذا الحاكم يجمع الضرائب ويحتفظ بثلثها ، أما ثلثاها فكان يبعثه إلى عقيل اجملوال .

ومات محمد نادى وخلفه ابنه عمر ، فاستمر على عادة أبيه فى علاقته بالطوارق . حتى فاجأه عقيل الذى صمم على جمع الضرائب بنفسه ، وبدأ رجاله يعبثون فى دور الأهالى ويعتدون على النساء ، الأمر الذى من أجله حقد عمر عليهم ، ومن أجله أرسل رسالة سرية إلى « سنى على » ملك سنغاى فى جاو ، فحشد جيشاً كبيراً وقاده إلى تمبكتو ، فلما اقترب منها وضح حقيقة الموقف أمام عقيل وعمر ، أما عمر فقد حنق لما سببه بنفسه ، ورأى أنه كان داعيا لسنى على غزو البلاد ، فانضم إلى قوات عقيل الفارة ، ولاذ الاثنان بالهرب متجهين إلى ولاته ، وأخذا معهما حشداً من العلماء ورجال الدين الذين كانوا يعملون فى عهد سنكورة .

وفى يناير سنة ١٤٦٨ دخل سنى على تمبكتو وذبح جنوده آلاف الأهالى الذين تعاونوا مع الطوارق ، وهم أعداء سنغاى الذين كانوا ينتهزون الفرص دواما للاعتداء عليهم .

وخيم ضباب كثيف فى خلال الأعوام الأخيرة فى تاريخ مالى ، ففى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر كان حكام مالى قد تسربت

إليهم الخيبة والفشل ، أعداؤهم يحيطون بهم من كل جانب ، مما جعلهم يستنجدون بالحاميات البرتغالية التى نزلت على الشاطىء الغربى من أفريقيه ولكن ذهبت نداءاتهم سدى ، فقد كانت قبضة سنغاى على بلادهم قوية ، ولم يستطع البرتغاليون التوغل فى قلب السودان لأنهم كانوا مشغولين بدعم مراكزهم الجديدة على السواحل الغربية .

وفى القرن السابع عشر كان حكام مالى قد عادوا ثانية إلى المكان القديم الذى نشئوا فيه منذ قرون . إلى دولتهم المتواضعة فى كنجابة .

ودارت عجلة الزمن فنهضت مالى مرة أخرى عام ١٩٦٠ ، ووقفت بين أسرة الدول الحديثة ، دولة مسلمة تدعم الدين الحنيف .

— ٤ —

سنغاي فى نهاية العصور الوسطى

(١٤٦٤ — ١٥٩١)

السنغاى مجموعة من القبائل الزنجية ، موطنها اليوم على امتداد شاطىء النيجر الأوسط العلوى ، ابتداء من موقع بلدة بوسة فى نيجيريا اليوم إلى جنوبى مدينة جاغ عند الجزء الشمالى من ثنية النيجر . وكان موطنهم قبل ذلك فى دندى القديمة (١) .

وقد عرف المؤرخون العرب ورحالتهم أيضاً مملكة سنغاى باسم كوكو ، وكانت هذه أشهر مدنهم قبل تأسيسهم دولتهم سنغاى الكبرى .

كوكو فى مؤلفات العرب

كانت كوكو بلدة تجارية هامة ، تقع فى شمال كانكو التى ذكرها الجغرافى الخوارزمى ، وكانت ملتقى عدة طرق للقوافل إلى المغرب ومصر وكانم . وقد ذكر المؤلفون العرب أنه كان يقطن الشاطىء الأيمن لثنية النيجر ، قبائل من السود المزارعين ، أما عند الشاطىء الأيسر شمالا فكانت تعيش فيه غالبية من البربر الرحل ممن اعتنقوا الإسلام ، وبعض قرى صغيرة كان يقطنها بعض السود الذين يعملون فى صيد السمك أو فى الزراعة .

ويعتبر اليعقوبى (٨٧٢ م) كوكو أهم الدول السوداء على أيامه ،

(١) يطلق لفظ سنغاى على المنطقة التى تقطنها قبائل سنغاى أو على الشعب نفسه .

ويقول أنها تطلق أيضاً على عاصمة الدولة . وكانت تخضع لها عدة ممالك تدين لكوكو بالولاء والسيادة . وكانت لأهميتها التجارية أن ارتبطت بعلاقات مع التجار المسلمين ، والمعروف أن أبو يزيد مخلد بن قيداد الثائر الخارجي التونسي ولد بكوكو (حوالى ٨٧٤ م) حينما كان يعمل بها أبوه بالتجارة .

ولا نكون مغالين إذا قلنا إننا لا نستفيد كثيراً مما ذكره البكرى (حوالى ١٠٥٠) والإدريسى (حوالى ١١٥٠) وابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) أما المقريزى (حوالى ١٤٢٠) فقد ذكر فى مخطوط له كلمة جوجو عندما تكلم عن قوافل حجيج سلاطين الملوك السود (١).

وقد تكلم الحسن بن محمد الفاسى المعروف بليون الأفريقى (حوالى ١٥٢٦) كثيراً عن سنغاى وجاغ ، ولم يشر إلى كوكو .

وهكذا تكون مراجعنا الأساسية فى تاريخ سنغاى هى ما كتبه المؤرخون السودانيون وفى طليعتهم أحمد بابا عالم تمبكتو (النصف الثانى فى القرن ١٦) ، وذلك فى كتابه «تكملة الديباج» (٢) ، والمؤرخ عبد الرحمن السعدى (حوالى ١٦٥٥) فى كتابه المعروف « تاريخ السودان » (٣) ، والمؤرخ محمود كعت (١٥٢٠ ، ١٥٩٩) فى كتابه « تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس » (٤) ، وأخيراً كتاب « تذكرة النسيان

---

(١) Macrizi : Description des races des noirs et Pelerinages des Sultans du Tekrur

ترجمة جودفرى ديمومبينس عن العمرى ص (١٤٣٥)

(٢) أحمد بابا : تكملة الديباج الذى نشره A. Cherbonneau بقسطنطينية بعنوان : Essai sur la litterature arabe au Soudan dapres le Tekmtle ted Dibadj.

(٣) عبد الرحمن السعدى ـ تاريخ السودان الذى نشره وترجمه O.Houdas فى باريس عام ١٨٩٨ .

(٤) محمود كعت ـ ترجمة هوداس ودلافوس باريس ١٩١٣ .

فى أخبار ملوك السودان ، لمؤرخ مجهول الاسم (حوالى ١٧٥٠)، ويعتبر تكملة لكتاب السعدي (١) .

الاسلام فى سنغاى

المعروف أن زا - كوسوى (Za-Kosoi) كان أول ملوك سنغاى الذين اعتنقوا الإسلام حوالى ١٠٠٩ ، وكان أول عمل له أنه نقل عاصمة بلاده من كوكيا (وربما كوكو) إلى جاو (جاغ) لكى تتوسط مملكته ولتكون قريبة من طرق التجارة الممتدة عبر الصحراء إلى الشمال ، وفى ذلك الحين اعتنق الإسلام حكام سنغاى ، وظل الشعب وثنياً . ولا يعرف سوى القليل من تاريخ مملكة سنغاى فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ، باستثناء أسماء ملوكها القدامى ، وقد أثبتها المؤرخ السعدى فى كتابه «تاريخ السودان»

ولقد جاء تحرير سنغاى من سيادة مالى بفضل الشقيقين « على كولن وسلمان نار » ، وهما أخان ولدا فى ليلة واحدة ، وكانت أم كل منهما شقيقتين وولدتا كذلك فى ليلة واحدة (يقول البعض إنهما توأم) ، فلما بلغا عمر الاستخدام أخذهما سلطان مالى فى طاعته للخدمة على عادة أولاد الملوك ، واعتاد على كولن أن يغيب فى بعض الأحيان ثم يعود . وبقى يزيد فى الغياب فترة حتى عرف مسالك سنغاى ، فأضمر الهروب إلى بلده ، فاستعد لذلك بالأسلحة والأزودة ، وخبأها فى مكامن متفرقة فى الطريق ، ثم فطن أخاه وأطلعه على سره . وذات يوم خرج الأخوان وتوجها إلى سنغاى ، فلما فطن سلطان مالى أرسل فى أثرهما بعض رجاله ليقتلوهما ، ولكنهم فشلوا بالرغم من تكرر القتال بين الطرفين ، وأخيراً وصلا إلى بلدهما . فكان على كولن سلطاناً على أهل سنغاى وتسمى بسن (سنى) أى المحرر ، وقطع

---

(١) تذكرة النسيان — ترجمة هوداس ، باريس ١٩٠١ .

صلة بلاده بسلطان مالى ، وقد كان ذلك فى حوالى عام ١٢٧٥ .

ولم تطل مدة استقلال سنغاى بعد تولى سلمان نار الملك عقب وفاة أخيه ، فقد استطاعت مالى أن تعيدها إلى سيادتها (ولو إسمياً) أى أنها كانت مملكة تابعة لمالى . ويدل على ذلك ماذكره ابن خلدون (ج١ص٢٦٤) وما ذكره ابن بطوطة الذى كان قد مر بكوكو وأقام فيها شهراً (١٣٥٣) وقال إنها كانت تابعة لمالى ، وكان العمرى أيضاً (١٣٤٢) قد ذكرها ضمن ممالك مالى التابعة لها .

وفى أيام منسا موسى الثانى (١٣٧٣ — ١٣٨٧) بدأ إشراف مالى على سنغاى يضعف ، وبخاصة فى المنطقة الشمالية لثنية النيجر حيث توجد طرق القوافل التجارية ، ولذلك أوفد موسى حملة بقيادة وزيره الشجاع « مارى جاطة » ليخضع قبائل تلك المنطقة عند كوكو ، وكذلك قبائل الطوارق بالقرب من تادمكت . ولم تطل آثار تلك الحملة ، ففى حوالى ١٤٢٠ نهض مادوجو (محمد داعو) ملك سنغاى بحملة تخريبية ضد مالى ، وأخضع قبائل النبارة ، وتمكن من تثبيت دعائم حكمه ، وتخلص من سيادة مالى ، وهكذا فعل من خلفه فى الملك ، حتى تولى حكم سنغاى ابن محمد داعو ، وهو المعروف باسم سنى على ، وكان ذلك فى عام ١٤٦٤ / ٦٥ .

سنى على (١٤٦٤ - ١٤٩٢)

يعتبر مؤسس إمبراطورية سنغاى ، وكان أول ما أقدم عليه أن استولى على تمبكتو (١٤٦٨) وطرد منها الطوارق ، وفى سبيل ذلك أحرق معظمها وقتل الآلاف من سكانها ، واستمر رجاله ينهبون المدينة وما جاورها مدة طويلة إلى أن طهر المنطقة كلها ، وأصبح سيد الأراضى التى تحيط بثنية النيجر ، ولذلك يلقبه بعض المؤرخين بإمبراطور النيجر .

وفى ١٤٧٠ — أخضع منطقة ثنية النيجر كلها ، ثم استولى على جنى (جنة)

وغيرها ، وباتنجا هي موطن قبائل الموشي الباسلة .

وفي ١٤٨٠ وصل جيش سني علي إلى بلاد الموشي (Mossi) بعد أن غزا شمالها ، وكانوا قد هددوا سنغاي ونهب عاصمة الموشي التي احتوت على المقر الملكي (١٤٨٣) ولكنه فشل في إخضاع الموشي نهائياً ، وظلوا شوكة في مؤخرة بلاده .

واستمر حكم سني حوالي ٢٨ سنة ، حول فيها دولتـــه الصغيرة إلى إمبراطورية قوية ، ولولا ما اتصف به من الأخلاق الحازمة والصرامة لما حقق آماله ، وفي ١٤٩٢ توفي وخلفه ابنه أبو بكر داعو .

وكان محمد بن أبي بكر الطوري ، من كبار قادة سني علي ، قد دبر مؤامرة ضد الملك ، فثار عليه وهزم جيشه وانتصر أبو بكر الطوري ، ومن حسن طالعه أن مات الملك وبذلك انتهت أسرة زا بعد أن حكمت سنغاي حوالي ١٨ قرناً .

وتلقب محمد بن أبي بكر بلقب اسكيا بعد أن تولى حكم البلاد في ١٤٩٣ .

اسكيا محمد الكبير (١٤٩٣ - ١٥٢٨)

منشيء أسرة اسكيا الجليلة التي بلغت سنغاي في ايامها اوج الازدهار تحلى بصفات الحاكم الجليل ، واقام جهازاً إدارياً منظما ، وألف جيشاً مدرباً بدلا من قوات سني علي غير النظامية ، وعني بالشئون الإسلامية .

١٤٩٥ - ١٤٩٧ : أدى اسكيا محمد فريضة الحج ، وخرج في قافلة كبيرة اتسمت بمظاهر الأبهة ، وكان بصحبته المؤرخ محمود كعت ، وقد مر بمصر وتعرف على العالم المصري جلال الدين السيوطي . وكان من أهم رجال العلم في ايامه محمد المغيلي الذي عاش في تمبكتو أهم المراكز الإسلامية في سنغاي ، وكان فيها المساجد الكثيرة ومعهد سنكوري الديني ، كما انه شيد في جني جاغ معاهد العلم فاجتذبت العلماء من المغرب والبلدان المجاورة

وأطلق عليه صديق العلم والعلماء . وفى تمبكتو ازدهرت تجارة الكتب على أيامه بالرغم من غلاء ثمنها ، وكانت لدية خزانة كتب جليلة يستعين بها أهل العلوم والآداب فى بحوثهم .

١٤٩٨ — ١٥١٥ : ويطلق على هذه الفترة : فترة التوسع ، قام فى أثنائها بعدة حملات عسكرية لتوسيع رقعة بلاده ، ونشر الإسلام بين الوثنيين الماندنجو والفولة فى الغرب ، والبربر الطوارق فى الشمال ، والموشى فى الجنوب « الإقليم الصحراوى » ، وقبائل الهوسا فى الشرق ، وأجبرهم على على دفع الجزية . وقد لقى مقاومة عنيفة من قبائل الموشى . وفى الغرب خضعت له مالى وامتدت حدود سنغاى إلى حدود تكرور القديمة . وقد وصلت سيادته في الشمال إلى تغازة ، وفي الشمال الشرقى إلى أجاديس البربرية .

خاتمة حياة اسكيا :

كانت خاتمة حياته مليئة بالمآسى ، فقد ثار عليه ثلاثة من أبنائه بزعامة موسى أكبرهم ، فاستنجد أسكيا بشقيقه ، وسرعان ما قتله أبناء أسكيا . ثم ساروا إلى جاغ وأجبروا والدهم على التخلى عن العرش لابنه موسى ، ثم نفوه إلى جزيرة نائية (١٥٢٨) فى نهر النيجر ، وبعد مرور أعوام أعاده ابنه اسماعيل إلى جاغ حيث عاش بقية حياته بعد أن كف بصره وقاسى خلالها الألم واليأس ، ثم مات فى عام ١٥٤٢ تاركا دولة فسيحة .

خلفاء أسكيا الكبير

اسكيا موسى (١٥٢٨ – ١٥٣١) اغتيل .

اسكيا محمد بنكن (١٥٣١ – ١٥٣٧) عزله اخوته .

اسكيا اسماعيل (١٥٣٧ — ١٥٣٩) اشتهر بشجاعته .

اسكيا إسحق (١٥٤٣—١٥٤٩) :

كان من أجل ملوك سنغاى ، وفى أيامه بدأت الغيوم تتبلد فى سماء العلاقات بين المغرب وسنغاى ، وتقدم إليه سلطان المغرب عدة طلبات فرفضها .

اسكيا داود (١٥٤٩—١٥٨٢) :

تولى بعد وفاة أخيه إسحق ،فواصل حملاته ضد قبائل الموشى والفولة فى ماسينا ، وكانت مالى قد خرجت عن طاعته ، فأرسل إليها حملة تغلبت عليها . أخذت العلاقات تسوء من جديد بين المغرب وسنغاى ، ومع ذلك كان يبدو فى الظاهر أن كل شيء على مايرام ، ثم توفى .

اسكيا الحاج محمد الثانى (١٥٨٢ — ١٥٨٦) :

فى أوائل توليه الحكم أرسل السلطان أحمد المنصور سلطان المغرب رسوله يحمل إليه الهدايا ويهنئه بالسلطنة ، وتبادل الملكان الهدايا . وفى الواقع لم يكن غرض هذا الرسول ومن معه من أعضاء السفارة سوى الوقوف على أحوال سنغاى وقوتها ، وكان المنصور قد دبر خطة لغزو السودان (سنغاى) وأعد ترتيبات الحملة العسكريه بكل دقة . وقد حدثت مناوشات عنيفة بين البلدين طالب المنصور فى خلالها أن يستولى على مناجم الملح فى تغازة وبنصيب كبير من الذهب .

تحالف الإخوة ضد شقيقهم فخلعوه وولوا مكانه محمد بن اسكيا داود .

اسكيا محمد بانى (١٥٨٦--١٥٨٨) : حكم حوالى ثلاث سنوات .

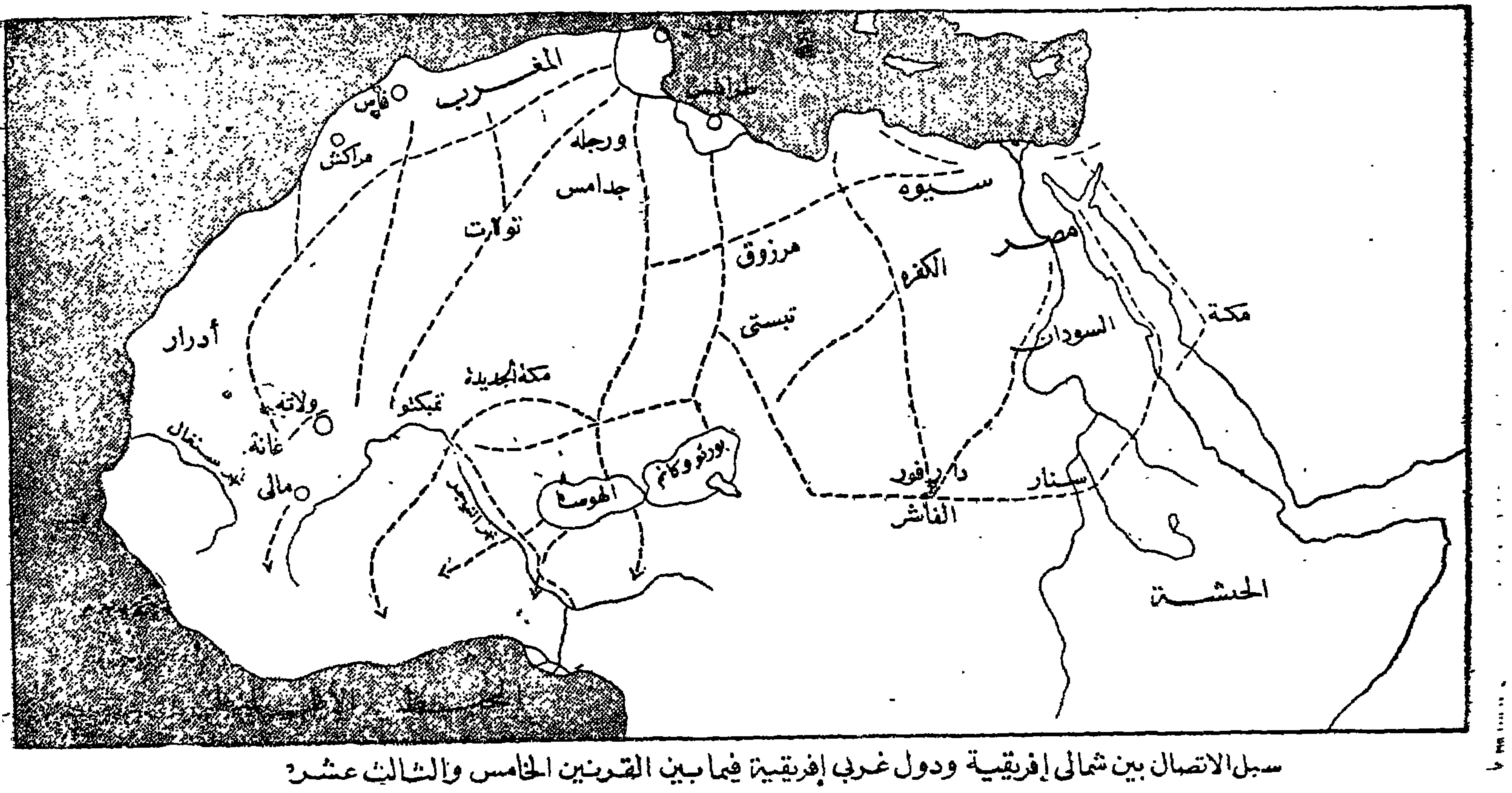
اسكيا اسحق الثانى(١٥٨٨ — ١٥٩١) :

اشتد الجفاء فى أيامه بين بلاده والمغرب ووجه أحمد المنصور الذهبى حملة عسكرية كبيرة لفتح سنغاى وللاستيلاء على موارد الذهب فى ونقارة . . وفيما يلى نورد موجزاً للأحداث :

١٦ أكتوبر ١٥٩٠ : سارت الحملة المغربية بقيادة جودر ، وكانت تضم خيرة المقاتلين فى المغرب من حملة الأسلحة النارية والفرسان ، وكانت تشتمل على بعض قطع المدفعية . وبالرغم من خسائر الحملة فى الطريق فقد وصلت إلى بمبـــا فى منتصف الطريق بين تنبكتو وجاغ ، وكان زعماء سنغاى يظنون أن الحملة ستتبع طريق الغرب ولكن فوجئوا بوصول الحملة المغربية من طريق شمالى عبر قلب الصحراء الكبرى ، ولذلك فوجئت سنغاى ، ولم تستطع حشد جيوشها إلا فى آخر وقت ، ووزعتها فى أماكن غير مناسبة للدفاع عن البلاد ، وكان الجند مسلحين بالرماح والسيوف والسهام أمام بنادق المغاربة ومدافعهم ، التى كانت تحصدهم حصداً وتجعلهم يفرون فى غير نظام .

معركة تنديبى بالقرب من جاغ (ابريل ١٥٩١) :

قبل أن تبدأ المعركة الحاسمة ألق سكيا بين صفوف المقاومة مئات الماشية والغنم لنشر الفوضى بينهم ، ولكن سرعان مافتح الجنود صفوفهم ومرت القطعان بأمان ، وبدأت المعركة الدموية بين صــفوف المقاتلين ، وبعد قليل بدأت قوات سنغاى فى الفرار مسرعين إلى ركوب النهر . ولم يستطع المغاربة مطاردتهم لأنهم كانوا لا يملكون القوارب التى تسهل لهم مطاردة اعدائهم . واكتفوا باحتلال جاغ حيث لقيوا الترحيب من التجار وبعض المتعلمين ، وكانت غالبية هؤلاء من المغاربة ، ثم ذاب هذا



سبل الاتصال بين شمالى إفريقية ودول غربى إفريقية فيما بين القرنين الخامس والثالث عشر

الترحاب حينما شاهد المغاربة ان المدينة التى استولوا عليها لا تستحق هـذا العناء المرير والكوارث التى لحقت بهم فى اثناء الطريق .

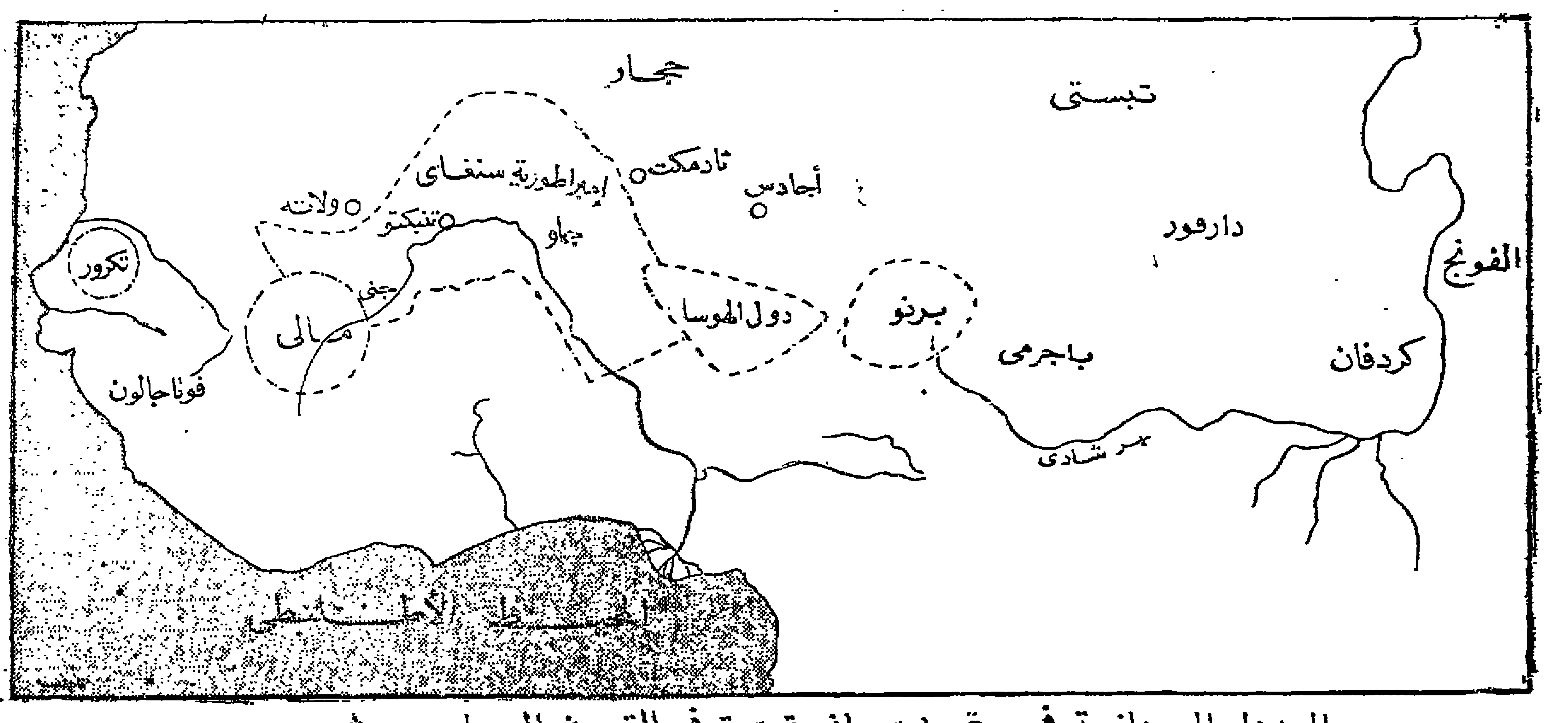
ذابت مقاومة سنغاى العسكرية ، وفتح باب المفاوضات ، وعرض الصلح على ملك سنغاى . وكان الجانبان يتوقان لإنهاء الحرب ، ولكن كان على القائد جودر ان يتصل بالمغرب للاستئذان فى الموافقة على الخطوات التى ينبغى عليه ان يتخذها . وفى خلال تلك الفترة قصد جودر مدينة تنبكتو ، وكان أهلها قد فروا إلى الصحراء وبقى بعضهم بزعامة القاضى ابو حفص عمر .

لم يوافق المنصور على شروط الصلح التى قدمها أسكيا فرفضا وأنب جودر لأنه لم يترك حامية قوية فى جاغ ولم يأخذ رهائن ، ثم امر بأن يتسلم محمود بن زرقون قيادة الجيش المغربى ، وان يقصر جودر اعماله على الواجبات الإدارية (حاكم إدارى) وشرع القائد الجديد فى بناء السفن النهرية ، وكانت المنطقة الجنوبية من سنغاى قد سادتها الفوضى .

استأنف محمود العمليات الحربية ، وبدأ رجاله يتصيدون رجال سنغاى ثم حلت الهزيمة بجيش سنغاى فانقلب الشعب على امبراطوره ، وحاول بعض قادته ان يقتلوه ، ولكنه أفلت منهم بأعجوبة ، وحاول مع اتباعه الوصول إلى كبو بالقرب من تشاد ، ولكن الظروف اجبرته ان يضع نفسه تحت رحمة بعض القبائل ، لكنهم لم يرحموه فى محنته القاسية ، وذبحوه مع ابنه وبعض رجاله ، فخلفه رئيس ديوانه محمد جاغ .

محمد جاغ (١٥٩١-١٥٩٢) :

نصب نفسه امبراطوراً ، ولكن بعض الزعماء لم يرضوا به وانضموا مع رجالهم إلى المغاربة ، فلم يكن منه إلا ان اتصل بابن زرقون وعرض عليه ان يمد جنوده بالطعام علامة على صدق نواياه ، فطلب إليه القائد



الدول السودانية في غرب إفريقية فى القرن السادس عشر

أن يتقدم بالولاء إلى معسكره فرضى بذلك وتقدم مع رجاله ، ثم دعاهم إلى تناول الطعام فقبض عليهم وجردهم من سلاحهم . ولما أدرك ذلك من كان وراء المعسكر هربوا ، وفى الحال نصب ابن زرقون حاكما واتخذ لقب اسكيا ليحكم تنبكتو نائباً عن أحمد المنصور ، ولكن رفض أهل سنغاى فى الجنوب هذا الحل (ولم تكن المنطقة الجنوبية قد أخضعت للمغاربة) واختاروا منهم ملكا ونصبوه عليهم ، ولذلك كان هناك ملكان : أحدهما فى الشمال بزعامة الحكومة العسكرية المغربية ، وثانيهما فى الجنوب لا يعترف بسيادة المغاربة ، وكان ملك الجنوب هو الزعيم نوح الذى أصبح بعد اختياره ملكا على بلاده ، وقد استطاع أن يشن حرباً متقطعة ضد ابن زرقون فأضعف قواته .

اسكيا نوح (١٥٩٢) :

فى تلك الظروف الحالكة التى مرت بسنغاى ، بث نوح روح الوطنية والمقاومة فى صدور أبناء البلاد ، وألف جيشاً سادته الحماسة لاستعادة الوطن ، ولجأ إلى حرب العصابات مستفيداً بميزات بلاده واستطاع خلال أربعة أعوام أن يكبد الأعداء الأقوياء المسلحين خسائر فادحة . وفى ذات مرة تشابك الطرفان فى دندى ، وكسب نوح نصراً معنوياً ، وأخطأ ابن زرقون فقد تبعه ، فلحقت به الخسائر الجسيمة ، واستمر الحال هكذا حوالى عامين قاسى فى أثنائهما جيش المغرب كثيراً ، وكانت الإمدادات لا تصله بسهولة . وأدرك أخيراً أنه أصبح فى نفس الموقف الذى مر بالقائد جودر ، ومع ذلك تمكنت أخيراً بعض الإمدادات من الوصول إليه ، فقرر أن يسحب قواته بانتظام (١٥٩٣) إلى الشاطئ المقابل للنيجر (الأيسر) ، ويقصد تنبكتو بعد أن يترك حامية فى جاغ .

واستمر وصول الإمداد من المغرب ، وكان المنصور يستبدل القواد

بين حين وآخر ، ومع ذلك لم يستطع هؤلاء أن يفعلوا شيئاً . لقد سيطروا على المدن ولكنهم لم يسيطروا على غالبية المناطق ، وعمت الفوضى في كل مكان ، واستمر الطوارق يغزون المراكز الصحراوية بالقرب من النيجر ويخربونها بعد نهبها ، فقضى على الأمن والهدوء ، ولم يكن الجند المغاربة أقل من الطوارق في العبث والفساد .

ولذلك اتفق علماء وأعيان تنبكتو على إرسال وفد يمثلهم بصحبة أفراد أسرهم ومعهم ممتلكاتهم الخفيفة فساروا عبر الصحراء القاسية حتى وصلوا إلى مراكش بعد ما أصابهم من الإعياء والأمراض في أثناء حبسهم في السجون ، وكان بينهم السيد ابو العباس احمد بابا فقيه تنبكتو وعالمها الكبير ، وفي أثناء الطريق سقط عن الجمل الذي كان يركبه فانكسرت رجله . فلما وصل دخل على المنصور في قصره ، ووجده قد اتخذ حجاباً بينه وبين الناس وهو من وراء الستار يتكلم ، فقال الشيخ احمد بابا :

قال الله تعالى : « وما كان لبشر ان يكلمه إلا وحياً اومن وراء حجاب » وأنت تشبهت برب الأرباب ، وإن كانت لك حاجة في الكلام معنا فانزل إلينا وارفع الحجاب عنا ، فنزل السلطان ، فقال له الشيخ : « اي حاجة لك في نهب متاعي وتصفيدي من تنبكتو إلى هنا ، حتى سقطت من على ظهر الجمل وانكسرت رجلي فقال له السلطان : « اردنا كي تجتمع الكلمة » فقال له الشيخ : « هلا جمعتها بتملك الترك تلمسان . » وكانت قد سقطت في يد الترك » .

وعلى أي حال فقد أساء حكام المغرب إلى سنغاى واذلوا كبارها وصغارها ، مما جعل ضباط ابن زرقون (١) يشمئزون من ذلك الحال ، وتبرم كثير منهم ، ولذلك قرر السلطان ان يبدل زرقون بالقائد منصور ،

(١) استشهد في احدى المعارك قبل وصول خلفه القائد منصور .

ولما وصل هذا إلى تنبكتو أسرع بقيادة حملة إلى منطقة أمبورى الجبلية التى اشتهرت ببأس رجالها والتقى باسكيا نوح ، فغلبه المنصور وهرب مع جيشه وقيل أنه مات (١٥٩٥) وبموته انتهت المقاومة الوطنية فى سنغاى بعد حرب دامت أربع سنوات .

وفى عام ١٥٩٨ أمر السلطان القائدجودر رجاله بالعوده إليه ، فكتب إليه أن يبعث من يقوم بإدارة البلاد ، فبعث القائد المصطفى الفيل ، وفى عام ١٥٩٩ عاد جودر إلى المغرب .

* * *

ثار شعب مالى ولكن تمكن القائد عمارمن كبح الثورة .. وفى أعقاب ذلك كانت البلاد فى حالة غليان مستمرة ، فثارت الطوارق والفولة وقبائل سنغاى ، ثار هؤلاء ضد قوات المغرب المحتلة ، وحل الانقسام والشقاق بين قادة وحكام الجيش ، ثم ثار أحدالضباط وطرد القائد العسكرى محمود.

وفى عام ١٦١٢ اشتبكت قوات المغرب وسنغاى فيما بين دورى وأمبورى ، وتجنب الجيشان المعركة ، وأشيع أن قائد سنغاى قد ارتشى فأمر اسكيا أن تفحص جيداً ملابس هذا القائد ، فعثر الباحثون على قدر من الذهب أخفاها القائد الخائن ، فحكم عليه بالموت ثم استؤنف القتال .

وأخيراً ضعفت الإدارة المغربية إلىحد أن القادة الباشوات اضطروا إلىدفع الجزية لملوك سيجوالوثنيين ، ثم استقلت حامية جاغ وجنى وغيرهما ولم يبق للباشوات إلا تنبكتو .

ولماساءت الحال ،قررمولاىزيدان أن يتخلى نهائياً عنسنغاى(١٦١٨) ، وأن يدفن حلم والده المنصور الذى ذهب ضحيته ٢٣٠٠٠ نفس من خيار جيش المغرب ، لم يرجع منهم سوى حوالى خمسمائة جندى . . فقد ماتوا جميعاً فى السودان (الغربى) .

وتفككت أوصال سنغاى ، وآل الحكم إلى رجال القبائل ، وتفشت الدسائس ، وعم الظلم البلاد ، وانتشرت المجاعة بصورة مروعة ، وفتك الموت بالأهالى أثر مجاعة فى عام ١٧١٦ دامت خمس سنوات .

* * *

رأينا الغزو المغربى يقضى على امبراطورية سنغاى الإسلامية وأمنها ، ولم يستطع المغاربة بالرغم من الإدارة الصارمة أن يمدوا نفوذهم إلى ماوراء المدن الرئيسية ، تنبكتو وجاغ وجنى . ولم يضعوا أيديهم على ثروة سنغاى .. لاشىء من هذا ، فقد خسروا عدة آلاف من خيرة بنيهم ، وفقدوا عتادهم الحربى ، وتركوا مرارة وحسرة فى صدور أهل السودان ، مما كان له أسوأ الأثر خلال الأعوام التالية . . وهكذا أسدل الستار على أقسى ما تعرض له السودان من الغزو الذى جاء من الشمال .. ثم استعد لغزو أجنبى آخر ، قدم هذه المرة من سواحل المحيط الأطلسى ومن الجنوب . . هو الغزو الأوربى .

— ٥ —

كانم فى العصور الوسطى

(٨٠٠ — ١٤٣٢)

تسرد الأساطير أحداث التاريخ القديم لكانو ، وتتحدث بعضها عن قدوم هجرات متعاقبة أتت من الشرق والشمال الشرقى ، متبعة الطرق القديمة المؤدية من وادى النيل ، وربما جاء بعضها هاربين فى أعقاب الحروب وأحداث الدمار التى تلت سقوط دولة كوش فى سودان وادى النيـــل وغزوات أكسوم (الحبشة) وفتوح العرب . عرف هؤلاء الأقوام بشعب ساو ، وقد عاش فى الإقليم المحيط ببحيرة شاد فى شرقها وغربها ، فشيدوا عدة مدن ، وأجادوا صناعة الفخاريات وأتقنوا عمل التماثيل البرونزية ، وقد أثبت علماء الآثار أنه كان لهذا الشعب حضارة قديمة ، وهناك من قال بانتساب هذا الشعب إلى الهيكسوس الذين غزو مصر ، وهناك من يقول بأنهم من مهاجرى مملكة مرو القديمة التى نشأت فى السودان .

وعلى أى حال فإننا نلاحظ وجود ثغرة كبيرة بين العصر الذى استقر فيه شعب الساو والعصر الذى نهضت فيه كانم الوثنية حينما تألف شعب منسجم مستقر أتيح له أن يشيد حكومة ودولة فى القرن الثامن الميلادى ولم يكن فى هذه البلاد التبر الذى كان من أهم ثروة غانا ومالى ، ولذلك لم يكن شعب كانم هدفا لغزوات أهل الصحراء أو المغاربة ، فانفرد بالسيادة

على طرق القوافل المارة بفزان فى شرقي الصحراء الكبرى وبين البحر المتوسط وتشاد وكذلك بوادي النيل . .

كانم الإسلامية

وفى الفترة الواقعة بين عامى ٨٠٠ و ١٢٥٠ م هاجر قوم عرفوا باسم « الزغاوة » وهم شعب جمع بين الخصائص الزنجية والحامية وانتشروا فى بقعة رحبة امتدت من دارفور (غربى سودان وادى النيل) حتى بحيرة شاد ، وهى المنطقة التى عرفت باسم كانم منذ القرن التاسع ، وقد أشار إلى الزغاوة أهل كانم المؤرخ العربى اليعقوبى الذى كتب تاريخه حوالى عام ٨٩٠ (١) وقال إنهم يعيشون فى أكواخ من القصب (الغاب) ولم تكن لهم مدن ، ويطلق على ملكهم « كاكازا » .

ونقابل الإشارة العربية الثانية إلى الزغاوة فى كتاب أبى عبيد الله البكرى المعروف باسم وصف أفريقية (٢) ، وهو يقول عنهم : وعلى بعد رحلة أربعين يوماً فى ترويلة (فزان) بالصحراء الكبرى تقع بلاد كانم وشعبها من الزنوج الذين يعبدون الأوثان ومن الصعب أن تزور بلادهم ... ويقال أن فى بلادهم بعض سلالة الأيوبيين الذين لجئوا إلى كانم فى أعقاب اضطهاد العباسيين . وهؤلاء ما زالوا يحتفظون بأنماط أزيائهم وعاداتهم العربية .

وقد أشار إلى بلادهم الرحالة ابن بطوطة وابن خلدون (تاريخ البربر القرن الخامس عشر) وكان الإسلام قد ساد كانم كلها .

وفى بداية القرن الثانى عشر تعرض الزغاوة لهجرة من الطوارق

---

(١) أحمد بن واضح اليعقوبى ـ التاريخ نشره المستشرق هوتسما بليدن ، ص ٢١٩ .

(٢) البكرى جغرافى عربى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٤٠ — ١٠٩٤) بقرطبة ، وقد ترجم كتابه المستشرق دوسلين (باريس عام ١٨٩٠) ، أنظر ص ٢٨ ـ ٣٠ من هذه الترجمة ، واسم الكتاب الأصلي « المسالك والممالك » .

(الملثمون) ومثلها من التبو (سكان هضبة تبستى) والتيدا ، ولم تكن هجرة شاملة بل كانت على هيئة أرستقراطية حاكمة استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها ، وكان الزغاوة قد دخلوا فى الإسلام حوالى النصف الأول من القرن الحادى عشر (١) ثم أنجبت هذه الأرستقراطية أول أسرة مالكة سيطرت على المنطقة الواقعة شرقى بحيرة شاد وأسست سلطنة كانم ، وأطلقت الأسرة الزغاوية على نفسها اسم بنى سيف (السيفية) (٢) .

وقد اتسم حكم كانم فى أيام السيفية بالإقطاع القبلى ، وكان فيها مجلس للشورى يتألف من اثنى عشر شخصاً يشرفون على تنفيذ أوامر الأمبراطور ، وكان هؤلاء جميعاً ينتمون إلى الأسرة الحاكمة ويعملون فى مجلس الشورى مدى الحياة ، ولما اتسعت أطراف إمبراطورية كانم ونمت مصادر ثروتها اشتد الخصام بين هؤلاء ، وتحول إلى معارك حامية ، فانصرفوا إلى القتال من أجل المحافظة على حقوقهم بالرغم عن أن تلك الحقوق كانت هبة من الإمبراطور .

كان السيفية رعاة من البدو الرحل غزوا وامتصوا بعض قبائل التبو فى الشمال والبربر والكانمبو (شعب كانم) ثم أسسوا كما قلنا دولتهم فى كانم وجعلوا قاعدتها فى نجمى .

ولما وصلنا من المعلومات عن الملوك الأول من السيفية مجرد أساطير ، والمعروف أن الفرع الرئيسى من أسرة سيف الأولى انقرض بموت من يسمى سلمة « سلمعة » (٣) ثم انتقل إلى فرع آخر من الأسرة نفسها استمر

---

(١) جاء فى بعض المراجع العربية الأخرى أن الإسلام دخل بلاد كانم عام ٥٠٠ هـ . ١١١٦ — ١١١٧ م .

(٢) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ص ٢٣١ ، أنظر أيضاً :
Urvoy. Y. Hiotoire de l. Empire du Bornu. Paris 1949

(٣) غزا سلمة هذا منطقة فزان حوالى ١١٩٤ — ١٢٢١ .

الحكم فى قبضته حوالي ألف عام ، وكان السلطان منذ أيام الوثنية يلقب ماي .

* * *

تتفق كلمة غالبية المؤرخين وفى مقدمتهم أورفوى على أن أول حكام كانم الذين اعتنقوا الإسلام هو ماي هوميه المعروف أيضاً باسم هوميه جيلمه الذى حكم البلاد فيما بين ١٠٨٥ — ١٠٩٧ (١) وبعد أن اعتنق أهل كانم الإسلام فى ذلك القرن (الحادى عشر) اكتسبت دولتهم أهميـة كبرى وبسطت سلطانها على بعض قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر الجنوبية الغربية والنوبة . وقد ذكر البكري الذى عاش فى القرن الحادى عشر أن كانم فى زمنه امتدت حتى نهر النيجر غرباً ، وأنها كانت تضم بقعة من بلاد الهوسا (شمال غربى نيجيريا) واستطاع أهلها أن يضموا أو يخضعوا جزءاً كبيراً من الصحراء فى نهاية القرن الثانى عشر .

وتولى الحكم بعد هوميه جيلمه ابنه دونمة دبلمة (١٠٩٨ — ١١٥٠) وكان أول من حج من ملوك كانم ، حج مرتين وفى المرة الثالثة غرق بالقرب من المياه المصرية « السويس » . وكان دونمة طموحاً جداً دفع حدود بلاده الشرقية إلى شواطى النيل الوسطى ، وكان له الإشراف المطلق على مسالك التجارة إلى الشمال حتى فزان . وفى أيامه تأزمت روابط الأسرة الحاكمة ، وبدأ التفكك ، فشبت حرب أهلية أشعلها أبناؤه ، فانسحب كل منهم إلى إقليمه ، وبالرغم من ذلك انتصر دونمة دبلمة عليهم . وخلفه ابنه برى الأول (١١٥٠ — ١١٧٦) وكان ضعيفاً أودعته أمه السجن ، وتولى بعده ، بكورو (١١٧٦ — ١١٩٣) ويعرف أحياناً باسم عبدالله بن بكورو . وجاء بعده السلطان عبد الجليل (١١٩٣ — ١٢١٠) الذى لقب بسلمة

(١) دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة برنو .

« مسلمة أحياناً » لشدة سواده ، فأخضع القبائل المجاورة بعد أن دعم قواعد دولته على أسس قوية . وبعد وفاته حكم البلاد عدد كبير من السلاطين ، وكان الضعف قد تطرق إلى البلاد قبل نهاية القرن ١٤ ، ولا سيما بعد أن تعددت هجمات قبائل البولالا عليها . وكان من نتائج ضعف كانم تغلب أهل فزان عليها . ويعتبر إدريس بن إبراهيم الذى حكم حوالى ٢٥ سنة من أقوى سلاطين كانم. تغلب على شعب ساو ، وقاتل البولالا دون أن يحرز نتيجة ، والسلطان عثمان بن إدريس الذى مات فى عاصمته نيجمى وهو يقاتل البولالا . وفى عهده توثقت العلاقات بين كانم (وبرنو) ومصر أيام المماليك . ويشهد على ذلك رسالة تبودلت بين السلطان عام ١٣٩١ والسلطان برقوق (١) .

استمر البولالا سنين طويلة يضايقون ويعتدون على كانم حتى اضطر سيف إلى الالتجاء إلى الأراضى التى تعمها المستنقعات فى إقليم السو ، واستمروا يغيرون مقر حكمهم أمام مطاردات أعدائهم . وانقسمت الدولة إلى عدة دويلات صغيرة تتابع على حكم كل منها حكام ضعاف ، ولكن حدثت صحوة مؤقتة على أيام السلطان على جاجى « غازى » الذى تولى حكم البلاد فيما بين ١٤٧٢ و١٥٠٤ ، فشيد عاصمة جديدة أسماها « برنى نجازا وجامور » غربى بحيرة شاد واستطاع ابنه ماى إدريس أن يهزم البولالا ويستعيد عاصمة كانم الأولى « نيجمى » .

ولكن انتهت فترة الصحوة القصيرة ، ففى القرن الخامس عشر نهضت دويلات للهوسا وبدأ مركز الثقل يحول إليها ولا سيما فى برنو .

ويمكن القول بأن كانم قد أفل نجمها فى القرن السادس عشر ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً من برنو ، وليس برنو جزءاً من كانم ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧

وفى الوقت نفسه بدأ نجم برنو يسطع فى وسط أفريقيا حتى وصلت إلى مكانة إمبراطورية زاهرة .

وقد ذكر القلقشندى (١) أن الكانميين اتبعوا مذهب ابن مالك ، وشيدوا مدرسة للمالكية اتخذوها مركزاً للثقافة الإسلامية ، وكانوا يرسلون أبناءهم إلى الأزهر للتفقه فى شؤون الدين . وقد برع أهل كانم فى التجارة ، وكانت لهم مراكز تجارية فى مصر والسودان وثغور البحر الأحمر .

(١) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١

- ٦ -

بجرمي ووادای فى العصور الوسطى

يعتبر بجرمى أحد بلاد السودان الوسطى ، ويقع فى شرقى بحيرة شاد ، وبجرمى بلاد خصبة ويطرأ عليها الجفاف أحياناً ، ويزرع فيها الدخان والفول وينبت الأرز فى المستنقعات ويندر فيها القمح . وتكثر فيها المراعى الصالحة لتربية الماشية ، وينمو فى بجرمى تمر الهند واللوز والقطن والنيلة ، وفيها يعيش الفيل والزرافة والفهد وفرس البحر ، وتتكاثر على ضفاف الأنهار أو فى جوارها .

ويتألف أهالى بجرمى من العناصر الآتية :

١ ـ الباجرميون ، وقد نشئوا من اختلاط السكان الأصليين بالفاتحين .

٢ ـ الكانورى ، ويعيشون فى مختلف بقاع البلاد .

٣ ـ العرب ، ويعيشون فى القرى .

٤ ـ الفولة ، وغالبيتهم رعاة .

٥ ـ القبائل السوداء ، ومعظمهم وثنيون .

والمعروف أن دولة بجرمى نشأت فى القرن السادس عشر على يد المغامرين الذين أتوا من الشرق ، وهزم هؤلاء القادمون شعب البلالة ثم اندمجوا فيهم ، وتمكنوا بواسطتهم من بسط سلطانهم على قبائل الفولة وعلى جماعات العرب ، وفرض الفاتحون الجزية على هؤلاء جميعاً ثم اعتنقوا دينهم(١) . وتقول الروايات الوطنية : إن زعيم الفاتحين « دوكنج » أو

---

(١) لم يخضع أهل بجرمى لحكام أو شعب البلالة، ولكنهم كانوا يدفعون اليهم الجزية أحياناً .

والسلطان « برنى بسى » هو الذى أسس مدينة ماسينيا حوالى عام ١٥١٣ ، وكان « برنى بسى » أول سلطـان لبجرمى ، حكم ما بين ١٥٢٢ و ١٥٣٦ ، ولقب أحد خلفائه مالو(١٥٤٨ — ١٥٦٨) نفسه بلقب سبانج وخلف مالو ابنه عبد الله(١٥٦٨ — ١٦٠٨) ، وهو الذى أدخل الإسـلام إلى البـلاد ، ومع ذلك ظل الشعب على الوثنية ، وعلى أيامه امتـد نفوذ حكومتـه إلى البلاد المجاورة .

ومن خلفائه برجمنده (١٧٣٤) ، وكان محارباً عظيما قاد حملة ضد البوركو (واداى) والـكاوار ، كما أنه هزم بعض القبائل المجاورة التى كانت تهدد البلاد . ثم خلفه علوى (١٧٣٩ — ١٧٤١) ، وقد هزمه إمبراطور برنو ، وأصبحت بجرمى تحت سيادته الإسمية . ومع ذلك فقد تمـكن السلطان محمد الأمين (١٧٥١ — ١٧٨٥) مـن خلع تلك السيادة ، فاستعادت بجرمى نفوذها الماضى . وحج الأمين ، وفى أيامه تغلغل الإسلام فى البلاد .

وفى أيام السـلطان عبد الرحمن جوارنج الأول (١٧٨٥ — ١٨٠٦) تجدد النضال بين بجرمى وسلطان واداى ، واسمه سابون ، فخربت البلاد ، وتمـكن قائد جيش السلطان عبد الرحمن من قتل مولاه ، ودب الخلاف عقب موته بين أولاده ، واضطربت الفتن فى البلاد مما دعا إلى تدخل واداى فى شئون بجرمى ، ثم اعتلى عثمان بن برجمنـده (١٨٠٧ — ١٨٤٤) أكبر أبناء عبد الرحمن العرش آخر الأمر ، غير أنه اضطر إلى أن يدين بالولاء لسلطان واداى ، وأن يدفع له الجزية ، وأصبحت بجرمى على أيامه ميدان تنافس شديد بين واداى فى الشرق وبرنو فى الغرب ، فازداد خراب البلاد ومما زاد الطين بلة تلك الغارات المتتالية التى كان يشنها عليها قناصو الرقيق من فزان . وبالرغم من تلك المصـائب الملاحقة اسـتطاع عثمان أن يثبت أمام تلك العواصف العدائية . وكان حاكما مقتدراً لا يرعى قانونا أو مثلا ، يسلب أصدقاءه وأعداءه على السواء .

وتولى ابنه عبد القادر (١٨٤٦ – ١٨٥٨) حكم بجرمى ، وقد حاول العيش بسلام مع جيرانه ، وقصر همه على شن الغارات على القبائل الوثنية وفى أيامه ظهر داعية دينى اسمه إبراهيم شرف الدين مالبث أن التف حوله كثير من أهل البلاد ، فلما خشى عبد القادر العواقب خرج على رأس جنده لقتال الداعية ، ولكن الجند لم يستجيبوا لأوامر السلطان ، ورفضوا إطلاق النيران عليه ، وقتل عبد القادر فى تلك المناوشة .

وعاد أهل واداى إلى غزو بجرمى ثانية (١٨٦٠ – ١٨٧٧) فى عهد السلطان أبى سكين ، وفتحوا ماسينيا ، وطردوا السلطان وأقاموا مكانه واحداً من أبناء عمومته ، وتمكن أبو سكين من استعادة عرشه عام ١٨٨٢ ، وظل يحكم حتى وفاته عام ١٨٩٤ . وفى أيامه ساءت أحوال البلاد وأقفرت أرضها من الزراعة . وتولى بعده «جورانج» (الثانى) الذى وقف ليصد غارات عدو جديد اسمه رباح ، الذى كان وطد سلطانه فى برنو وأصبح قادراً على تهديد سلامة بجرمى، بل تمكن أن يطويها ويغلبها على أمرها (١٨٩٢-١٨٩٧) ، فلم يكن أمام جورانج إلا ان يقبل الاعتراف بالحماية الفرنسية ، واثار هذا الاتفاق حنق رباح فهاجم جورانج ، ولما لم يستطع هذا رد الهجوم عمد إلى ماسينيه وأشعل فيها النار ، وهزم الحاكم برتونيه الذى أرسل لنجدته . ولكن قوات القائد الفرنسى لامى تمكنت من هزيمة رباح وقتله عند «كسورى» فى ٢٢ أبريل ١٩٠٠ ثم أعيد الأمن إلى بجرمى ، ومنذ ذلك الحين دخلت فى نطاق إقليم شاد الحربى . وبجرمى اليوم تضمها جمهورية شاد التى يقدر عدد سكانها بحوالى ٢٦٠٠٠٠٠ ، وعاصمتها فورت لامى . وقد نالت استقلالها منذ ١٩٥٨ ، أما منطقة بجرمى فلا يزيد عدد سكانها على ٧٦ ألف نسمة .

ماسينية :

كانت ماسينية حاضرة بجرمى أهم مدينة فى البلاد إلى منتصف القرن

التاسع عشر ، وقد شيدت شمال بحر أرجج ، وأحيطت بأسوار محيطها سبعة أميال ، وكانت دورها من الطين فيما عدا قصر السلطان ومسجداً بنى من الحجر . وخرب أهل واداى جزءاً منها عام ١٨٧٠ ، وهجرها أهلها بعد غزوة رباح ، وهى الآن تلى بوقومان فى الأهمية ، وتقع على الضفة اليسرى لنهر شارى ، ويقيم السلطان فيها .

الإسلام فى واداى

واداى اليوم إحدى مناطق جمهورية شاد المستقلة ، وهى تقع فى غربى دارفور بالسودان وشرقى بحيرة شاد ، وعاصمة واداى أبشر ، وقد احتل الفرنسيون بعض أجزاء واداى عام ١٨٩٩ ، ثم أعلنوا الحماية عليها وأخضعوها لنفوذهم . وواداى من الناحية التاريخية تتصل اتصالا وثيقاً بتاريخ دارفور وكانم وبرنو وبجرمى ، وبالرغم من ذلك فلم يعتنق شعبها الدين الحنيف إلا بعد تلك البلاد .

جاء ذكر واداى فيما كتبه الرحالة ابن سعيد المغربى عند كلامه عن منطقة بركامى (بوركو) ، وشعب الزغاوة القديم ؛ هذا الشعب الذى يحتمل أن تكون أراضيه قد وقفت مانعاً فى وجه الدعاة القادمين من الشرق (وادى النيل) .

وسكان واداى خليط من شعوب متعددة ، بالرغم أنهم ينتمون إلى مجموعة عرقية « جنسية » واحدة ، ويتكلمون اللغات ذات اللهجات المتقاربة . ومن الصعب الاهتداء بسهولة إلى تاريخ واداى القديم . ولم يذكر المؤرخ التونسى شيئاً نعتمد عليه ، وإن كان قد عنى بذكر القبائل الخمس الأصلية التى تألف منها سكان واداى . ونقطة البداية ترجع إلى أوائل القرن السادس عشر حينما قدمت قبائل التنجور الوثنية من دارفور معتدية على واداى ، وقلبت الحكومة ثم جعلت عاصمة البلاد فى كادابة (جنوب غربى أبشر) ،

ويحتمل أن يكون هؤلاء التنجور من النوبيين الذين باتصالهم بالعرب أصبحوا يتحدثون بالعربية (١) ، وقد استقروا فى دارفور فى أثناء القرن الخامس عشر واغتصبوا السلطة من أصحابها ، وبقوا يحتفظون بسيادتهم حتى استولى عليها سليمان سولون حوالى عام ١٦٣٠ ، وأمام الأمر الواقع اضطر التنجور إلى الرحيل عن دارفور ، وانتشروا فى واداى فى اتجاه الجنوب إلى حدود بحرمى.

ويلاحظ أنه كان لبعض زعماء التنجور أسماء عربية ، وقد اعتنق هؤلاء الإسلام لكنهم لم يفرضوه على القبائل المتعددة لأنهم كانوا يستمدون منها الجزية بانتظام .

ويقال إن أول من دعا إلى الإسلام فى واداى كان رجلا صالحا اسمه صالح أو جامع ، وينسبه بعض الرواة إلى قبائل الجعليين فى شندى بالسودان ، وفى عام ١٦١١ تمكن عبدالكريم من أقارب ذلك الرجل الصالح أن يضم إليه اثنين هما مابا وفردوى ، وكانا قد أسلما على يد الصالح ، ثم اتسع نطاق هذه الجماعة واتفقوا فيما بينهم على رفع راية الجهاد الإسلامى ضد التنجور ، فأعلنوا القتال ضدهم ، وغلبوا زعيمهم داود ، وهكذا أصبح عبدالكريم زعيم الجماعة الإسلامية فى واداى ، واتخذ لقب « كولاق العباسى » ، وسرعان ما جعل (دارة) « شمال غرب أبشر » مركزاً للدعوة الإسلامية ، وقبضت أسرته على أزمة حكم واداى من عام ١٦٥٥ إلى عام ١٩١١ . ولقد كانت واداى فى بعض السنين امتداداً لحكومة دارفور أو برنو ، وكانتا تهددانها بإعادة حكومة التنجور إذا تخلت عن هذه أو تلك . وبالرغم من هذا السيف المسلط ، حاول بعض سلاطين واداى التخلص من هذا التهديد ولكن دون جدوى ، حتى تمكن السلطان محمد جودة (١٧٤٥ - ١٧٩٥) من ذلك ، واستطاع

(١) يذكر الرحالة الألمانى بارت أن شعب التنجور قدم من دنقلة ، ويؤيده فى ذلك جماعة من المؤرخين (ترمنجهام ص ١٣٩) .

أيضاً أن يرسل عدة حملات ضد الوثنيين فى جنوبى البلاد ، وفى أخريات القرن الثامن عشر استولى السلطان محمد صالح على منطقة بحيرة فترى ووصل إلى كانم .

وفى خلال تلك الفتره وفد بعض الفقهاء من مملكة الفونج « سنار » ليعلموا المسلمين فى واداى ، ومن هؤلاء نذكر أسماء : أبو زيد بن عبدالقادر الذى عاصر حكم السلطان يعقوب العروسى (١٦٨١ - ١٧٠٧) ، وأبو سرور الفاضلى الذى قتله بعض أبنائه فى واداى ، وفى الوقت نفسه كانت تبعث واداى ببعض طلابها إلى السودان ومصر للتزود من مناهل العلم .

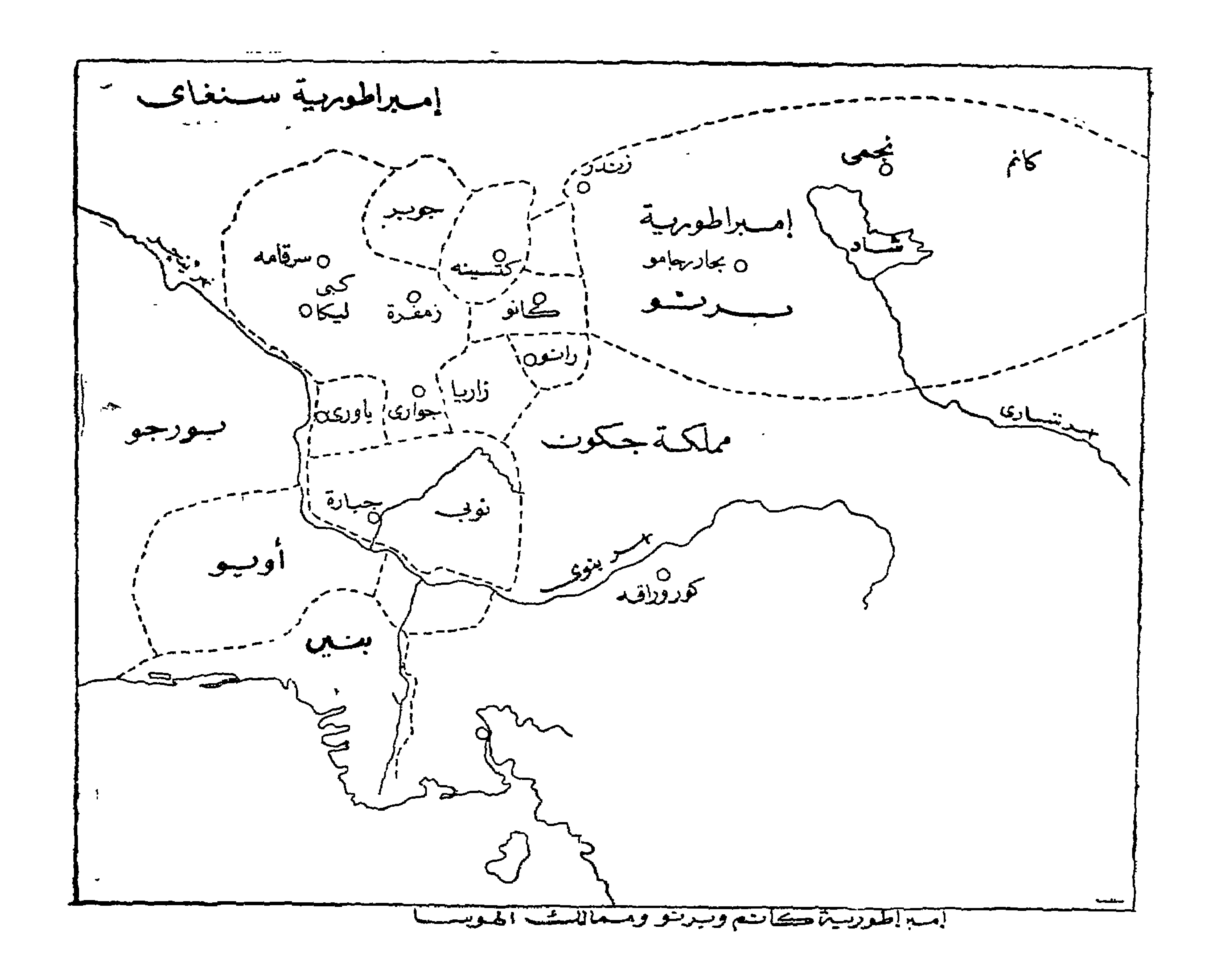
وفى أوائل القرن التاسع عشر تمكن عبدالكريم سابون (١٨٠٣-١٣) من خلع أبيه عن العرش وحكم البلاد ، وقد حاول محمد الأمين الكانمى أن يستعين به لتخليص بجرمى من سلطان برنو ، ففعل ذلك وضم بجرمى إلى واداى ، وقد نجح عبد الكريم فى فتح طرق جديد للتجارة عن طريق برقة وطرابلس ومصر ،وشجع التجار الوافدين إلى بلاده (١).

وخلفه ابنه يوسف (١٨١٤ - ٢٩) وكان قديراً ونشيطاً كأبيه ، ولكنه كان ظالما متعسفاً ، وقد اغتيل . وخلفه محمدعبدالعزيز (١٨٣٠-٤٣) ثم محمد شريف صالح (١٨٤٣ - ١٨٥٨) شقيق السلطان سابون الذى جرد حملة ضد برنو وجعل قاعدة حكمه فى أبشر بدلا من داره . وتولى فى أعقابه عدد آخر من السلاطين ، وتولى فى نهاية الأمر السلطان داود موره (١٩٠٢ - ١٩١١) ، وفى عام ١٩٠٩ احتل الفرنسيون أبشر . ثم ضموا بقية البلاد إلى نفوذهم فى أعقاب التخلص من إمبراطورية رابح الزبير (٢) .

---

(١) راجع الكلام عن بجرمى لارتباط العلاقة السياسية بينها وبين واداى .

(٢) راجع ما كتب عن رابح الزبير فى كتاب إمبراطورية رابح الزبير ، لمؤلفه سعد الدين الزبير ، القاهرة ١٩٥٣ .



إمبراطورية كانم وبرنو وممالك الهوسا

— ٧ —

إمبراطورية برنو

(١٥٠٧ — ١٨١٩)

برنو واحدة من دول السودان الأوسط الإسلامية ، كما كانت تحد شمالا بالصحراء الكبرى ، وغربا ببلاد الهوسا ، وجنوباً بأداموة ، وتحد من ناحية الجنوب الشرقى بسلطنة باجرمى ، وشرقا ببحيرة شاد ، وهذه الحدود لم تكن دائماً ثابتة خلال تاريخ برنو ، ولكنها تغيرت وتعدلت كثيراً تبعاً للأحوال والظروف التى مرت بها .

وقد ذكر برنو مؤرخون وجغرافيون من العرب ، كابن سعيد الرحالة المغربى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، والمقريزى ، وابن خلدون ، وتكلم عنها بإفاضة الرحالة الحسن بن محمد الوزان (ليون الأفريقى) فى كتابه المشهور (وصف إفريقية) ، وقد استقر الحسن فى تلك البلاد أمداً وجيزاً فى بداية القرن السادس عشر .

وقد تألف سكان برنو من عده أجناس مختلفة ، أهمها الكنورى ، وكانوا العنصر الغالب فى ناحية العدد والسلطان السياسى . وقد اعتنق هؤلاء الإسلام منذ أمد بعيد ونشروه بين القبائل الوثنية (وربما تنسب إليه كانم الدولة الإسلامية السابقة فى تلك الجهات) . وبين الكانورى : القبائل الوطنية المتميزة عن الكانورى فى اللغة والعادات ، ونذكر منها : الكري ، والكربنة ، والمنكة ، والمندرة أوالوندلة . . الخ ، ثم الأعراب .

ويطلق على العرب الذين استقروا فى برنو اسم شو ، تمييزاً لهم عن التجار العرب الذين كانوا يمكثون فترات قصيرة ، ثم القبائل المختلفة من الطوارق والفلانة ، وهم الفولة والهوسا الذين اختلطوا بالكنورى .

ويتكلم أهل برنو عدة لغات ، ولغة الكنورى أوسعها انتشاراً وبعض اللغات السودانية . والإسلام هو الدين السائد فى برنو ، وقد دخل فى العصور الوسطى على يد الفاتحين الذين جاءوا من كانم والذين كانوا قد اعتنقوا هذا الدين قبل ذلك بعدة قرون (راجع ما كتب عن كانم) ، فاعتنقه السلطان والأشراف وسكان المدن الكبرى .

وقد دهش الرحالة العرب الذين زاروا برنو من وجود نظام سياسى أرقى بكثير مما كان فى بلاد السودان الأخرى ، بل إنه يشبه من وجوه عدة النظام السياسى الذى كان سائداً فى الدول الأوروبية فى العصور الوسطى ، وكان سلطان برنو يلقب بماى ، إلى أواسط القرن التاسع عشر ثم قنع السلاطين بعد وفاة آخر الحكام من الأسرة السيفية عام ١٨٤٦ بلقب « شيخ » الذى كان يلقب به محمد الكانمى ، وهو رأس الأسرة الجديدة التى تولت الحكم . وقد حكمت الأسرة السيفية « نسبة إلى سيف ابن ذى يزن » إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وقد نقلت هذه الأسرة مقر الحكم إلى الضفاف الغربية لبحيرة شاد بعد أن حكمت فى كانم عدة قرون .

ويعتبر القرن السادس عشر أزهى العصور فى تاريخ برنو ، ولا سيما الأعوام التى حكم فيها السلطان إدريس علومه . وسنستعرض بإيجاز تاريخ هذه البلاد منذ أن وليها إدريس .

السلطان إدريس علومه (١٥٧ - ١٦٠٣)

ندين كثيراً للإمام المؤرخ أحمد بن فرتوة ، فقد زودنا بكتابين :

أولها تاريخ مفصل لمولاه السلطان بن على «علومه» خلال الاثنى عشر سنة الأولى من حكمه «١٥٧١ - ١٥٨٣»، وثانيهما حروب هذا السلطان مع البلالة الذين دأبوا على غزو مملكته عدة سنوات .

وقد عثر على مخطوطة الكتاب الأول الرحالة الدكتور هنريخ بارث فى كوكاوة عاصمة شيوخ برنو فى كانم حوالى سنة ١٨١٣، وقد أعطاها له الحاج بشير وزير برنو فى ذلك الحين، فأرسلها بارث إلى وزارة الخارجية البريطانية، وانتقلت بطريقة مجهولة إلى ألمانيا، ثم صورت منها نسخ عديدة لخدمة الباحثين، وكان بارث هو الذى أطلق على المخطوطة المذكورة العنوان الذى عرفت به منذ ذلك الحين (١) .

وتشتمل المخطوطة على أخبار الحملات الحربية التى شنها هذا العاهل من عام ١٥٧١ لما تبوأ عرش بلاده إلى عام ١٥٨٣، ماعدا حملاته فى كانم شرقى شاد التى أفرد لها كتابه الثانى . ومن المحتمل أن يكون المؤلف الإمام أحمد قد كتبها حوالى ٩٩٠/٩٩١ هـ — ١٥٨٢/٨٣ م، وتمدنا هذه المخطوطة بصورة حية لما كانت عليه حالة المجتمع فى برنو فى أثناء أزهى عصورها التاريخية فى القرن السادس عشر، حينما وقع معظم أقطار الشرق العربى تحت السيادة العثمانية .

ويقول الإمام أحمد بن فرتوه فى مقدمة مخطوطته إنه بتأليفه هذا الكتاب يقتدى بالشيخ مسفرمة عمر بن عثمان الذى دون تاريخ مولاه المجاهد إدريس على بن أحمد بن عثمان بن إدريس، ويذكر أحمد بن فرتوه أنه من قبيلة محمد بن مان (معن؟)، وأنه بدأ مؤلفه يوم الأحد فى الثالث من رجب فى مدينة برنى حاضرة برنو .

---

(١) نشر هذا الكتابان فى اللغة العربيـــة فى مطبعة أميركانو بنيجريا عام ١٩٣٠ (أنظر أيضا ترجمة الكتاب الأول باللغة الإنجليزية التى قام بها المؤرخ البريطانى هـ . بالمر، بعنوان :
History of the Twelve years of mai Idris Alooma of Bornu (1571- 1583).

ونلاحظ على ما كتبه الإمام أنه لم يرتب مضمون كتابه حسب السنين ويحدثنا قائلا :

كان أول ما أقدم عليه السلطان تأدية فريضة الحج ، ولما عاد عرج على برنو ، فلما وصل براق (برعق) أمر بنقل جميع محاربيها ليضعف شأن ديارهم ، وكان الفضل لانتصاره عليهم تسلح جنوده بالبنادق ، ثم انتصر على أهالى امساكه وانتقم منهم . وأصلح مادمروه ، وأرغمهم على أن يتبعوا أصول الدين ، وأن يجعلوا العدل نبراساً لهم ، وأن يضعوا أمورهم فى ذمة العلماء لا الزعماء ، وأن يتصفوا بالتسامح والإخاء وليس بالتنافر والعداء .

ثم انتقم مما ارتكبنه قبيلة نيجزيم وشعب مجولم وجمزان وغيرهم ضد بلاده ، لحرق قراهم وأخضعهم لسلطانه ، ثم أرغمهم على استعمال المكاييل والموازين المعترف بها لكى لا يبتزوا أموال الأهالى أو يرهقوهم ، وشجع القوم على زراعة أراضيهم لكى لا تصيبهم المجاعة التى هددت بلادهم عدة سنين .

وتناول المؤرخ بعد ذلك حروب السلطان ضد قبائل سو وانتصاره عليهم بفضل مواهبه الحربية وما اتصف به من حدة الذكاء والمقدرة . حشد رجاله لمهاجمة قبائل سو بخفاتا ، ومن أجل ذلك شيد بلدة كبيرة على مقربة من دامسك ، ونصب عليها قائده شتيمه بيرى ، وابنه عجيمة جسمه ، وكان لها أربعة أبواب جعل على كل باب حارساً كبيراً ، وخصها بحامية قوية ، وطلب إلى كل الزعماء الأقوياء أن يمدوه بالرجال ليشيدوا بيوتهم وأن يقيموا فيها مخازن للسلاح واسطبلات للخيول .

وبعد أن تم بناء المدينة أطلق عليها اسم « سلسنه الكبير » ، وشحنها بالمجاهدين الذين كانوا ينطلقون كل حين لاقتفاء أثر الأعداء ، ويتخلصون منهم ، وشيد السلطان حصوناً أخرى فى أنحاء البلاد ، وشحنها بالجنود ،

وأمر بقطع الأشجار التى كان يختفى وراءها جنود الأعداء . واشترك فى هذا العمل الكهول والنسوة والمرضى ، ومعهم طوائف الراقصين والمغنين والطبالين ، ولما انتهى السلطان من تحصين المواقع الهامة حشد المجاهدين ، وعرض قواته وهم فى ملابس القتال ، وكان الفرسان ممتطين الجياد المغطاة بالزرد والدروع ، ثم نشب القتال واستمر فترة طويلة انتهت بانتصار السلطان ومطارده الأعداء ، وتمكن من تطهير برنو من قبائل سو .

ونقرأ فى المخطوط أخبار حملة السلطان ضد جدامة والهجوم عليها من جوانبها وانتصاره على رجالها ، ثم نطالع أخبار هجومه على كانو وسيره نحو سهول سنسنة فانتقم من العدو فقطع عليهم خط انسحابهم ، وأحاط بهم من كل جانب وأبادهم ، فلم يستطيعوا العودة إلى برنو .

وبعد أن أدى فريضة الحج استمد من العثمانيين حاجته من السلاح النارى ، وقد أفلحت سياسته الحربية كما مر بنا ، فقد كان جندياً موهوباً مدركا أسباب المنعة ، فنهض ببلاده ودعم علاقته بالدول الشمالية والشرقية . فعل كل هذا بالرغم عن الأعوام الكثيرة التى قضاها فى مقاتلة أعدائه .

ومع ذلك فقد لقى صعوبات كثيرة فى السيطرة على طرق الصحراء حتى تم له احتلال واحة كوار فى طريق فزان ، وكانت غنية بمناجم الملح والنطرون .

وكان إدريس ملكا شهما أنجد أبناء عمومته شعب سنغاى وهم فى محنتهم ، فى أثناء دفاعهم عن بلادهم ضد الغزو المغربى . ويؤثر عنه أنه هدم جميع المساجد فى برنى ، وكانت مشيدة من القش وبناها باللبن ، كما دعم الروح الإسلامية فى أنحاء البلاد .

خلفاء إدريس علومة

أخذ الاضمحلال يدب فى أوصال برنو فى القرن السابع عشر ، فقد

كان عصر إدريس علومه شبيهاً بالصحوة التى توقظ الشعوب من نومها ، ولم يكن لخلفائه شأن هام ما خلا ماى على بن الحاج عمر رابع السلاطين بعد إدريس .

خلف إدريس ابنه محمد ، وكانت أيامه هادئة نسبياً ، ومات بعد أن حكم ١٦ سنة ونصف سنة ، ثم تبعه إبراهيم فالسلطان الحاج عمر بن قسام ، وكان هؤلاء الثلاثة أبناء السلطان إدريس ، وقد اتصفت أيام حكمهم بالأمن والهدوء .

ثم اعتلى العرش السلطان على بن الحاج عمر (١٦٤٥—١٦٨٥) وكان محارباً قديراً ، أدى فريضة الحج ثلاث مرات ، ثم قاتل سلطان أغاديس قتالا شديداً ، وحاصره الطوارق والكورارافة فى عاصمته ، ولكنه نجح فى بث الفرقة بين أعدائه حين طرد الطوارق إلى الصحراء ، كما طرد الآخرين وقد حكم بلاده أربعين سنة .

وجاء بعده خلفاؤه : إدريس بن على ، ودونمه بن على ، والحاج حمدون ابن دونمه ، وقد عرف هذا بالشغف بالمطالعة ومات عام ١٧٣٨ .

وتولى بعده السلطان دونمة بن الحاج حمدون ، وقد فشت المجاعة فى زمانه ثم السلطان على بن الحاج دونمة ، وكان عادلا محبوباً بين الناس ، وكان يقرب العلماء إليه . وتولى بعده أحمد بن على ، فشارك العلماء فى دراساتهم ، وكان ديناً تقياً يخشى الله ، ولكنه غفل عن المغيرين على بلاده ، فتركهم يفعلون مايبغونه ، كما ترك الأهالى نهباً لقطاع الطرق، فأهملوا فلاحة الأرض وفتكت بهم المجاعة عدة سنوات .

وفى بداية القرن التاسع عشر عجزت برنو عن صد أعدائها الذين شنوا الغارات عليها ، وكان الأعداء الجدد شعب الفلبة (الفولة ـ الفلانى) ، وقد وقعت غارة هؤلاء فى أيام السلطان أحمد بن على ، فتمكن الفولة من إخضاع أقاليم الهوسا التابعة لبرنو .

أنقذت برنو فى هذا الوقت العصيب بتدخل رجل أجنبي عن البلاد ، هو محمد الأمين الكانمى ، وأصله من فزان ، واشتهر بحكمته وورعه . وقد رفض مغادرة البلاد عند اقتراب الفولة ، وجهز فرقة صغيرة من الكانميين وعاق تقدم الغزاة عند شرق بحيرة شاد ، ونجح آخر الأمر فى إجلائهم عن الجزء الشرقى من برنو بأكمله بعد انتصاره عليهم فى معركة حاسمة عند نكرنو ، فطلب السلطان أحمد عونه وترك له قيادة الجيش ، فأعاده محمد الى عاصمة ملكه ، وتوفى أحمد بعد ذلك بعام ١٨١٠ .

حاول دونمه بن أحمد أن يستأنف القتال وحده ضد الفولة ، ولكنه هزم وفر من بلدة إلى أخرى ، واضطر إلى الاستعانة بمحمد الكانمى ، وأعطاه فى مقابل ذلك نصف الأراضى التى يستعيدها من الأعداء ، وعلى هذا كان ابرنو فى ذلك الحين حاكمان ، هما محمد صاحب النفوذ الفعلى ، وقد لقب نفسه بلقب الشيخ وعاش فى نكرنو ، وأحمد الذى كان يحكم بالإسم وكان مقره بربروا .

وأخيراً خلع عن العرش ونصب مكانه أحد أعمامه ، وقد رفض هذا أن يخضع لمحمد الأمين فعمل على إنشاء حاضرة جديدة فى « برنى الجديدة » فجرده محمد من سلطانه وأعاد العرش الى دونمة الذى احتفظ بلقب السلطان الى أن توفى عام ١٨١٨ .

وقبل أن نكمل أحداث برنو فى القرن التاسع عشر ، ينبغى علينا أن نذكر شيئاً عن جماعتين كبيرتين قدر لهما أن يلعبا أدواراً هامة فى تاريخ برنو والسودان الأوسط فى تلك الفتره ، وهما الفولة والهوسا .

لقد كتبت مؤلفات كثيرة عن الفولة أو الفولبة أو الفلاتة . . . الخ ، وكل هذه التسميات واحدة ، وهى قبائل مبعثرة فى أرجاء شمال أفريقيا من أعالى نهر النيجر حتى نهر سنغال . والفولة إما رعاة مسلمون متنقلون وإما

أنهم يعيشون مستقرين بين شعوب غريبـــة عنهم كطبقة حاكمة ، حيث يكونون القوة السياسية المتسلطـة فى نيجيريا الشمالية . ويبلغ عددهم نحو المليونين ، ويحتشدون بصفة خاصة فى مديريات سكوتو وكانو وأداموة التى كانت تسمى فيما مضى بولا .

أما الهوسا أو الهوصا فهم قوم من السود تقع بلادهم فى البقعة المحصورة بين الصحراء الكبرى فى الشمال ، وبرنو فى الشرق وثنية نهر النيجر فى الغرب والربوع الساحلية لخليج غانة وتوجو وداهومى وبنين والكمرون فى الجنوب ويصل تعدادهم الى حوالى ١٥،٠٠٠،٠٠٠ نسمة .

وفى أقصى مواطن الهوسا فى الشمال نشأ فيهم الزعيم الكبير عثمان بن فوديو قائد ثورة الفولة الكبرى فى القرن التاسع عشر ، وسنتحدث عن زعامته فى فصل تال .

- ٨ -

دول الهوسا وامارات النيجر

الهوساوة قوم من السود تقع بلادهم فى البقعة المحصورة بين الصحراء الكبرى فى الشمال وبرنو فى الشرق ، وثنية النيجر فى الغرب ، والمناطق الساحلية لخليج غانة المشتملة على توجو وداهومى وبنين والكمرون فى الجنوب . ويصل تعدادهم إلى حوالى ١٥،٠٠٠،٠٠٠ نسمة ، وهم يكسبون معاشهم من الزراعة والتجارة والصناعة ، وتخترق قوافلهم الصحراء الكبرى ثلاثة أشهر من كل عام ، تزود طرابلس وغيرها بمنتجات السودان .

والإسلام دين الهوسا اليوم ، وقد دخل بلادهم فى ختام القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر بوساطة تجار النيجر الأول ، ثم أحرز تقدماً كبيراً فى القرن التاسع عشر عقب غزو الفولة لبلادهم (١) .

ويحيط الشك أصول الهوسا ، وكان ابن بطوطة أول من ذكر واحدة من دول الهوسا وهى غوبر ، وكان الهوسا وثنيين عند زيارة هذا الرحالة لبلاد السودان عام ١٣٥٣ م . ولعل دعوتهم الى الإسلام قد قويت بفضل تعاليم المرابط التواتى محمد بن عبد القادر المغيلى (١٤٩٣) ، ولكن لم يتم إسلامهم ، فقد ارتد أهل غوبر عن الإسلام فى القرن الثامن عشر (٢) .

وكانت ديارهم مسرحاً للمعارك التى نشبت طويلا بين كبي وبرنو ، وقد

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : مادة حوصة .

(٢) أقصى مواطن الهوسا فى الشمال ، نشأ فيها الزعيم عثمان بن فوديو قائد ثورة الفولة الكبرى ؛ وكان الجوبراوة فى وقت ما أصحاب الكلمة فى واحة اير (اسبن) .

سعى كلاهما للسيادة على هذا الجزء الهام فى السودان الغربى .

وكانت دويلات الهوسا فى غوبر وكانو ورانو وكتسينة وزارية مستقلة بعضها عن بعض الى بداية القرن التاسع عشر ، ثم انضووا تحت لواء الإمبراطورية المترامية الأطراف التى وضع أسسها عام ١٨٠٢ المرابط عثمان دان فوديو ، وفتحت ديار الهوسا فى خمسة عشر عاماً ، فخلع سلاطينهم الوطنيين ونصب مكانهم عمالا يخضعون لسلطان سكوتو ، الحاضرة التى شيدها عثمان ، واندمج القاهرون وفنوا فى المقهورين ، كما انصهر الفولة فى الهوسا ، ففقدوا بهذا الاتصال لغتهم وحضارتهم . وكان من نتائج فتح الفولة البلاد أن حطم الهوسا حدودهم الأصلية من جميع الجهات ، وأدخلوا لغتهم ودينهم الإسلامى إلى الربوع المجاورة مثل توجو وأدموه وبلاد كمرون .

كانت الأقاليم التى يعيش فيها قبائل الهوسا إلى أوائل القرن التاسع عشر خاضعه إسمياً لبرنو ، وكان يتألف منها عدة دويلات من أهمها كانو وكتسينة وزارية وغوبر وزنفرا وكبى ... كان يخيم على بعضها الهدوء والسكينة ، وفى بعض الأحيان تعلن إحداها العصيان ضد سلطان برنو ، ولذلك كان إيفاد الحملات العسكرية لإخمادها أمراً يكاد يكون مستمراً .

أحوال الهوسا فى أوائل القرن التاسع عشر :

احتفظ الجوابروة (سكان جوبر) بسيادتهم فى الشمال الغربى ، كما كان لبرنو السيادة على الشمال الشرقى ، وكانت مملكة جكون قد بسطت كلمتها على شعب الكوارافة ، أما نوبى فى الجنوب فظلت سيدة نفسها بالرغم من ضعفها بسبب المعارك الداخليــة ، أما كتسينه وزارية فقد كانتا إسمياً مستقلتين تحت حماية برنو ، وهكذا كان بالاختصار الموقف السياسى لدول الهوسا حينما تدفقت جحافل الفولة عليها بزعامة عثمان دان فوديو .

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حاول الاوربيون أن يخضعوا

بلاد الهوسا إليهم، فاختصم الانجليز والفرنسيون على اقتسام النفوذ في بلاد الهوسا كما اختصموا فى الوقت نفسه على بلاد النيجر الأدنى ، وكان الإنجليز أكثر توفيقاً ، فقد دخلت بلاد الهوسا بأسرها تحت السيادة البريطانية بناء على المعاهدة الإنجليزية الفرنسية المبرمة فى أغسطس سنة ١٨٩٠ والمكملة باتفاقيتى ١٢ يوليو ١٨٩٣ و ١٤ يونيو ١٨٩٨ ، والاتفاق الانجليزى الألمانى المعقود فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٣ .

كانـــو

وسنتناول الحديث الآن عن كانو أولى دويلات الهوسا ونبين تاريخها منذ دخلها الإسلام . والمعروف أن باجوده (٩٩٩ — ١٠٦٣) أحد أحفاد بايزيدا كان أول ملوكها وأعقبه ثمانية وأربعون من الملوك ، وكانت كانو إذ ذاك تشغل مساحة صغيرة ، وقد شيدت أسوارها القديمة من اللبن حوالى القرن الثانى عشر فى أثناء حكم ملوكها الثالث والرابع والخامس ، وكانت الكلمة النافذة فى أزمانهم لصناع الحديد ، وكان من التقاليد الدينية التهام جثمان الموتى من الملوك والزعماء لاكتساب بعض خصال المتوفى الطيبة .

وفى الزمن الذى دخل فيه الإسلام برنو حوالى القرن العاشر تمسكت كانو بالوثنية ، واستمرت كذلك ثلاثة قرون أخرى على الأقل، وكان الإسلام قد دخل الى بلاد مالى ووادى النيجر قبل ذلك بوقت طويل ، أما دولة غوبر فبفضل موقعها استطاعت مقاومة تسرب الإسلام ناحية الشرق وصمد وثنيو برنو مقاومين انتشار الدين الحنيف إلى الغرب ، ولذلك بقيت كانو ودول الهوسا الأخرى على وثنيتها إلى أن نهضت بعض قبائل الونقارة ، وربما كانوا من الفولة الوافدين من مالى وجلبوا معهم عقيدتهم الجديدة ، فاعتنقها أهل كانو فى سلام ، ومع ذلك فقد كانوا يرتدون عنها

فى بعض الظروف ويعودن إلى الوثنية . ويقال إن الزعيم الذى وصل فى زمنه الإسلام الى كانو كان اسمه « ياجى » ، ومن ثم شيدت المساجد وازداد عدد الذين يعتنقون الإسلام ، وفى حماستهم العقيدية غزا الهوسا الجنوب ، وحملوا السلاح الى نهرى بنوى ونيجر ، وكان هذا النجاح قصير الأجل ، فقد أبى المقهورون أن يدفعوا الجزية لهم ، وعادوا إلى دين أجدادهم ، وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر .

غزا «ياجى» بعد ذلك زاريا ونجح فيما أصاب وقتل زعيمها وتفرق أتباعه . وفى عهد خلفاء هذا الملك وفد أحد ملوك برنو وبعض أتباعه هاربين والتجأوا إلى كانو خوفاً على حياتهم ، وعلى أثر نشوب الحرب الأهلية فى بلادهم . فرحب بهم الملك داود وخصهم ببعض الدور خارج حاضرته لاجتناب المخاطر .

وسعى حكام كانو الطامعون الى توسيع رقعتهم ، فشنوا الحرب ضد زارية وانتهت بعد اتفاق بين الجانبين ، واتجهوا ثانية نحو الجنوب ، ولما انتصروا على خصومهم عادوا ومعهم مئات الأسرى من العبيد ، فشيدوا عدداً كبيراً من المدن ، وفى ذلك العصر عرف الهوسا الجمال فاستخدموها فى قوافلهم عبر الصحراء ، وبدأت تزدهر تجارتهم .

وفى عهد يعقوب الملك التاسع (١٤٥٢ — ١٤٦٣) نشطت حركة هجرة كبيرة من ونقارة قوامها قبائل من الفولة الآتين من مالى ، وكانت تلك الدولة تسير نحو نهايتها ، واضطر هؤلاء أمام اضطهاد سنغاى أن يتركوا بلادهم إلى الشرق قاصدين برنو ، ولكن اضطر عدد كبير منهم إلى البقاء فى بلاد الهوسا ، جاءوا إليها يحملون متاعهم النفيس، وكانت الهوسا تتمتع حينذاك بالسكينة والطمأنينة، فاستقبلتهم ورحبت بهم، كما جاء إليها طوائف شتى من عرب الشمال ، ولجأ كثير من رجال قبائل الصحراء إلى جوبر ، وانتعشت تجارة الملح ، ونما التبادل التجارى بين كانو وديار الجنوب ،

وقصد كانو وكتسينه كبار الزائرين وازدهرت العلوم الدينية فى مساجدها .

محمد رنفه :

كان من أشهر ملوك كانو محمد رنفه الذى حكم البلاد حوالى ثلاثين سنة (١٤٦٣–١٤٩٩) ، وقد أصبحت البلاد فى عهده آمنة مطمئنة ، قرب إليه العلماء ، ووفد الى البلاد البعوث من مصر ، واستقدم رجال الدين ليستعين بهم على إرشاد الناس وهديهم ، وشيد المساجد ، وأزيلت الأحراش ، وأقام الدور مكانها ، وأدخلت تقاليد الحياة الإسلامية ، واستخدم الخصيان فى منازل الأغنياء ، وتمسك المسلمون بالدين بكل إخلاص ، وشيد « رنفه » لنفسه قصراً جديداً بالقرب من دله ، وقسم كانو إلى مناطق رحبة للإشراف على الإدارة ، ثم شيد حول حاضرته سوراً منيعاً ذا ٧ أبواب .

وكانت كتسينه فى الشمال قد دخلها الإسلام، وبدأت تتطور أحوالها فى طريق القوة ، ونشط التنافس بين البلدين كانو وكتسينه ، ولم يدم الإسلام طويلا فقد نشب القتال بينهما واستمر مائة عام سالت الدماء فيها بما فقدته كلتاهما من المحاربين ، وانحطت مرافق التجارة والزراعة ، واستطاعت أخيراً كانو بصعوبة أن تنتزع النصر من كتسينه لكنها لم تصمد ضد برنو .

وكان ممن حكموا كانو محمد كيزوكى (١٥٠٩ — ١٥٦٥) وقد مرت البلاد فى عهده بظروف بعضها حسن وبعضها سيء . غزا السنغاى بلاده بقيادة الملك اسكيا الكبير ، وسقطت كانو فى قبضته بعد حصار طويل كما سقطت زاريه وكتسينه ، وبعد إعادة الصفاء بين البلدين تزوج كيزوكى من ابنة اسكيا ، ورضى بدفع الجزية ، ولم تطل أيام السكينة حتى نهض كيزوكى لصد غزو برنو عن بلاده ، وانتصر عليها ، ثم استؤنفت الحرب من جديد بين كانو وكتسينه ، وكان النصر متبادلا بين الجانبين .

وفى أيام الملك محمد زكى (١٥٨٢—١٦١٨) بدأت غارات الكوارارافة بعد غزو كانته . قدم هؤلاء الكوارارافة من وادى بنوى ، وكان هجومهم شديداً وقاسياً مما جعل أهل كانو يفرون على وجوههم الى دورا للالتجاء فيها ، ثم عادوا ثانية فيما بين ١٦٠٠—١٧٠٠ ، وغزوا كانو مرتين حينما أرادت أن تنهض وتقف على قدميها . وفى خلال تلك الفترة نشبت المجاعة فقضت على ما تبقى من قوة الشعب ، فلم تستطع كانو أن تستعيد استقلالها فحيناً كانت تقدم الجزية الى الكوارارافة ، وحيناً آخر تدفعها الى برنو ، وهكذا أنضبت ينابيع الثروة أولا بأول .

وفى أوائل القرن الثامن عشر (١٧٠٠—١٧٧٠) نهضت إمارتا زنفرة وجوبر يشنان الحرب ضد كانو ، ثم هزمت غوبر زنفرة ، وتغلبت وحدها على كانو ، وكانت تلك المعارك فى الواقع بين الزعماء وأتباعهم فقط ، فلم تتأثر شعوبهم ، ثم استعادت كانو مكانتها التجارية بعد أن اجتذبتها كتسينا .

— ٩ —

إمبراطورية الفولة

وحركة الإصلاح الدينية

وصل الفولة الى غربى بلاد الهوسا (نيجريا اليوم) منذ القرن الثالث عشر ، وكانوا طائفتين : الأولى قبائل البقارة ، والثانية الحضريون سكان المدن . وكان البقارة رعاة رحلا وثنيين ، أما سكان المدن فقد اعتنقوا الإسلام واختلطوا بالقبائل الأخرى بالمصاهرة . وكان تسرب الفولة إلى الهوسا هادئاً لم يصاحبه القتال ، وسرعان ما تضخم عددهم عقب قدوم هجرات أخرى من بنى قومهم ، وأتيح للفولة أن يتحالفوا مع مواطنيهم الذين كانوا قد استقروا منذ القرن السادس عشر فى عدة نواح فى برنو ، ثم تجمعوا وغزوا البلاد ، وقد حاول أحمد سلطان برنو أن يصدهم ، ولكن تشتت جيشه ، ونجا السلطان بصعوبة ، وفر من أحد أبواب المدينة حينما كان أعداؤه يدخلونها من باب آخر ، ثم نقل السلطان معسكره الى كرنوة عام ١٨٠٨ ، وخرب الفولة قصر اكيو فيما بعد .

أصبح الفولة عنصراً هاماً يؤلف غالبية أهل البلاد فى برنو فى أخريات القرن الثامن عشر ، ولهم تأثير فكرى قوى جعلهم يشغلون أكثر المناصب الكبرى ومع ذلك فقد كانوا يحتقرون الرعاة الرحل ، وكان الفولة سكان المدن فى الواقع يؤلفون الطبقة الأرستقراطية فى البلاد ، أما زملاؤهم الآخرون فكانوا ينتجون الزبدة لفلاحى الهوسا ويقدمون السماد لأراضيهم .

ولما تأزم الموقف هرب السلطان أحمد الى كانم مستنجداً بأحد زعمائها

الأقوياء، وهو الحاج محمد الأمين الكانمى ، فأعاد أحمد إلى عرشه ، وطرد الفولة ثم مات السلطان (١٨١٠) ، وتولى بعده دونه ابنه ، وفى أيامه عاد الفولة ثانية إلى الحرب .

عثمان دان فوديو

وكان من أبرز عشائر الفولة الحضريين — عشيرة الطوروبو (الطورونكة) أو شعب طورو ، وقد أتوا فى الأصل من إقليم حوض السنغال ، وجاءوا فى هجرات متتالية إلى الشرق ، تاركين وراءهم محلات أقاموها على النيجر الأدنى والأوسط ، حتى وصلوا إلى جوبر وأنشأوا وطناً كبيراً لهم ، ثم انفصل فرع من الطوروبو واتجه الى أداموا فى حوض نهر بنوى (من أفرع النيجر) .

وينسب عثمان دان فوديو الزعيم الوطنى لقبائل الفولة فى بلاد الهوسا إلى هؤلاء الطورونكة الذين استوطنوا جوبر بزعامة فوديو الكبير جد عثمان .

ولد فى عام ١٨٥٤ فى قرية طغل ، وعنى بتربيته الدينية وتفقه على مذهب مالك ، وقد كان شديد التحمس للدين وإرشاد الناس الى حقائقه ، ثم رأى أن يكرس حياته للعلم والوعظ ، وسرعان ما التف حوله التلاميذ والأتباع لما رأوا فيه من التقوى وحبه للإصلاح ، وساعدته شخصيته الفياضة بحب الخير الى التفاف الكثيرين حوله ، وقد هاله ما رآه من تحول مسلمى جوبر إلى الوثنية - بعد ما اعتنق بعضهم الإسلام - بضغط وبتأثير نفاته ملك جوبر الذى حرم على أفراد شعبه اعتناق الإسلام ، وأجبرهم على التمسك بوثنيتهم ، الأمر الذى أهاج عثمان ، وجعله يفكر فى مقاومة الملك بالوعظ والإرشاد دون أن يلتجىء إلى القوة .

ولما تولى يونفه الحكم بعد موت أبيه نفاته ، وكان من تلاميذ

الشيخ عثمان ، أدرك تأثيره فى البلاد ، ورأى أن يتخلص منه بقتله ، ولما فشلت محاولته ، زادت حظوة الشيخ بين الشعب ، وكسب عطف جميع الناس وأصبحوا ينظرون إليه بطلا وزعيما ، فلم يجد ينفه أمامه إلا الالتجاء الى القوة ، فسار الى طغل بلدة الشيخ على رأس قوة من الجند ، فاضطر عثمان إلى الهرب .. كان ذلك يوم ٢١ فبراير ١٨٠٤ (١) .

ويعتبر هذا التاريخ يوماً دينياً ووطنياً يطلق عليه فى شمالى نيجريا « يوم الهجرة » . فر الشيخ الى جوارى ، وسرعان ما التف حوله مريدوه وكثير من الأنصار ، وأدرك عثمان أنه قد أصبح قائد طايعة من المجاهدين المقاتلين الذين تمتلىء صدورهم بالحماسة الدينية ، فألف منهم جيشاً يستعين به على إصلاح أحوال المسلمين ونشر الإسلام بين الوثنيين ، ولم تمض أشهر قلائل حتى هزم المسلمون جيش ينفه عند شواطىء « تبكين كوتو » ، وأقسم الجميع على أن يجاهدوا فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية ، ثم نادوا زعيمهم بلقب أمير المؤمنين أو سلطان المسلمين ، وما زال يطلق هذا اللقب على سلطان سكوتو ، وقد أجاب عثمان على أتباعه قائلا : « لا يظن أحد منكم أننى قبلت هذا الواجب لأكون أعظم من أحدكم أو لكى أتكبر على الآخرين » .

كان لهزيمة ملك جوبر دوياً عنيفاً عند ملوك كتسينه وكانو وزازو ودورا وادر ، وسرعان ما حولوا نقمتهم ضد أتباع الشيخ فى بلادهم ، فثار رجال الفولة فى تلك البلاد بعد ما وحدت تلك المحن صفوفهم ضد طغيان الحكام ، وشبت الثورة فى كل مكان ، ومع ذلك فلم يكن جميع الفولة قد انضموا تحت راية الشيخ عثمان . والجدير بالذكر أن بعض رجال الهوسا التفوا حوله .

---

(١) يذكر مرجع آخر عام ١٨٠٦ ونرجح عام ١٨٠٤ .

بدأ الزعيم يختار معاونيه من خيرة الأنصار ، وكان يمنح كل واحد منهم راية بعد أن يباركها ، ويدعو لهم أن ينقذ الله العالم على أيديهم من الضالين . وسرعان ما ضموا تحت راياتهم إماراتهم كاتسينا ، وكانو وزاريا وهادية وأداموا وجومبي وكناجم ونوبة ويللورين ودورا وكازوري وبوشي ، علاوة على قسم من برنو .

وبالرغم من فوز الشيخ على الجبراوة (شعب جوبر) فإنه لم يفلح في الاستيلاء على حاضرتهم الكلوة وهزم فيما بعد ، ومع ذلك فقد تدفقت إلى صفوفه جحافل الهوساوة فزاد عدد أنصاره ، ثم سقطت زاريا في أيديهم (١٨٠٤) ، وتبعتها متسية بعد حصار طويل (١٨٠٥) ، ثم سقطت مدينة كانو دون معارضة ، ولكن في العام نفسه هزمت قوات عثمان في ألواسة بالقرب من جواندو وبعد أن انضم الطوارق إلى خصومه ، فتأزم الموقف .

وفي عام ١٨٠٦ حاول الفولة أن يدمروا قوة الجبراوة لكنهم فشلوا في الاستيلاء على حاضرتهم ، ثم أعاد بللو بن الشيخ عثمان الكرة عليهم فانتصر واستولى على عاصمتهم ، وقتل ينفه . وبسقوط الكلوة زالت مقاومة جوبر نهائياً ،وقويت سطوة الفولة على أثر تحالف سلطان واحة (اير) معهم وأدرك الهوساوة أن لا فائدة من المقاومة ، أدرك الشيخ أنه لن يكون آمناً طالما ظلت برنو قوية تهدد حدوده الشرقية ، بينما تمد العون لبعض زعماء الهوساوة ، ولذلك وجه عنايته لمحاربة البرنويين فهزمهم ، ورأى هؤلاء أن يستمدوا العون من الزعيم الديني محمد الأمين الكانمي ، فلبى نداء برنو على رأس رجاله ، وفاز على الفولة وطردهم من الغرب (إقليم الهوسا) ، فأعادوا الكرة ولكن تمكن الأمين من ردهم على أعقابهم . ومع ذلك فقد استمر الفولة يغيرون بين حين وآخر على برنو ، واحتلوا جزءاً في غربيها ، ولكنهم لم يحتلوا البلاد بأسرها .

اختار الشيخ عثمان مدينة سكوتو حاضرة دولته ، وقد كانت متواضعة إذ ذاك ، ويعزى إلى بللو ابنه بناء المدينة (١٨٠٩) .

ويمكن القول أنه فى عام ١٨١٠ كان جهاد عثمان دان فوديو لإعلاء شأن الإسلام فى السودان الغربى قد بلغ الذروة ، وأخضع معظم بلاد الهوسا . ويلاحظ أن هذا الجهاد الكبير لم يخترق منطقة الغابات الكثيفة وظل سكانها اليوروبا فى مأمن من غزوات الشيخ ، كما حمى نهر بنوى والمناطق الوعرة سكانها من حركة الفولة ، وقد وصل هؤلاء إلى يولة فى شرق نيجرية الحالية ، ولم يخضعوا برنو بالرغم من غاراتهم المتعاقبة ، وفى الغرب أيضاً صمد أهالى كبى ، وقاوموا بشجاعة اعتداء الفولة بالرغم من قربهم لمعاقل الفولة الحصينة .

اعتقد عثمان أنه قد أدى رسالته المقدسة ، فقنع بما أحرزه من النجاح ووجه عنايته الى تنظيم الإدارة فى أنحاء إمبراطورية الفولة التى قامت على الكفاح ، وقسم بلادة إلى قسمين كبيرين : أحدهما فى الشرق وجعله تحت حكم ابنه بللو ، وجعل القسم الغربى تحت حكم شقيقه عبد الله ، وقنع هو بالزعامة الروحية متخذاً مدينة سكوتو مركز الدعوة الكبرى بعد أن مكث بعض الوقت فى سيفوة ، وأخذ يجد فى التأليف الدينى والاجتماعى ، ونذكر من كتبه :

أصول الولاية — إحياء السنة — بيان البدع — ترغيب العباد — التصوف — تمييز المسلمين — الجهاد — سوق الصادقين — شفاء العليل — علوم المعاملة — عمدة العلماء — عمدة البيان — العقل الأول — نصائح الأمة — نور الألباب — الهجرة .

وكان شقيق عثمان عبد الله فوديا محدثاً قوى الحجة ، ألف عدة كتب هامة نذكر منها :

ألفية الأصول ـ بحر المحيط فى النحو ـ تزيين الورقات ـ تفسير ضياء التأويل ـ سبيل النجاة ـ ضياء السياسة ـ مفتاح التغير . . . . الخ .

ولما توفى الشيخ عثمان عام ١٨١٧ وهو فى الثالثة والسبعين من عمره كان كما رأيناه قد عمل طوال مدة حكمه ، وهى عشرون سنة فى القضاء على الثورات الكثيرة ، وقد كان إدارياً حازماً واسع الحيلة ، ويعتبر من أقدر سلاطين سكوتو ، جمع حوله كثيراً من أهل العلم والدين والأدب ، وقد اعتاد كلما ألف شيئاً أن يخرجه إلى الناس ، فيقرأة لهم ثم يشتغل بتأليف آخر . وقد عرف عنه أنه خمس همزية البوصيرى ، وقصيدة بانت سعاد ، والبردية للبوصيرى ، وقد تأثر بهذا السلطان المجاهد الحاج عمر التكرورى الذى استطاع أن يقيم لنفسه دولة كبيرة عند أعالى النيجر فى منتصف القرن التاسع عشر ، وكان قد حج وتزوج بنت السلطان بللو ، وجمعته بتلك الأسرة أواصر المودة والتفاهم .

برنو ومحمد الكانمى

وكما قلنا يرجع إلى هذ الزعيم إنقاذ برنو من دولة الفولة الفتية ، فحافظت على استقلالها عدة سنوات أخرى ، ثم حاول السلطان دونمه (برنو) أن يستأنف القتال وحده ضد الفولة ، ولكنه هزم واضطر إلى الفرار من مدينة إلى أخرى ، واستعان بمحمد الكانمى وأعطاه فى مقابل ذلك نصف الأراضى التى استعادها من الأعداء ، وأصبح لبرنو مذ ذلك الوقت حاكمان : هما محمد الأمين صاحب النفوذ الفعلى ، وقد لقب نفسه بلقب الشيخ ، وعاش فى نكرنو ، وأحمد الذى كان يحكم بالإسم وكان مقره بربروا . وحاول أحمد أن يتحرر من وصاية الشيخ عليه ، فهرب من بربروا واستقر فى الشمال الغربى من بحيرة تشاد ، ولكنه عجز عن استعادة استقلاله ، واستطاع محمد آخر الأمر أن يعيده بالقوة إلى بربروا ، ثم

خلعه عن عرشه ونصب مكانه أحد أعمامه ، إلا أن هذا السلطان الجديد أبى هو أيضاً أن يخضع لأهواء الشيخ ، فعمل على إنشاء حاضرة فى « برنى الجديد » ، فجرده محمد عن سلطانه ، وأعاد العرش إلى دونمه الذى ظل محتفظاً بلقب السلطان إلى أن توفى عام ١٨١٨ .

وقد عمد محمد الكانمى فى الوقت نفسه إلى توكيد استقلاله عن الأسرة القديمة فصمم على أن يشيد حاضرة له ، وبدأ فى إنشاء كوكه عام ١٨١٤ ، ثم حاول أن يعيد إلى برنو سيادتها الأولى فاستعاد من الفولة جزءاً من الأقاليم التى استولوا عليها ، وأنفذ حملاته ضد القبائل التى تعيش فى الشرق وتحالف مع عبد الكريم سابون سلطان وادای ، وأعلن الحرب على عثمان بركندة سلطان بجرمى ، وأغار سابون على بجرمى ، ثم عقد اتفاقا أصبحت بمقتضاه تابعة له وأراد محمد أن يعوض ما فقده بهذا الإتفاق ، فتحالف مع شيخ فزان عام ١٨١٨ ، وأغار على الجزء الشمالى من بجرمى ، وتقدم حتى مسينا ، ولكنه عجز عن أن ينتصر على عدوه انتصاراً حاسماً لتحصنه وراء نهر شارى ، واستمر القتال بينهما إلى عام ١٨٢٤ ، وانتصر البرنويون انتصاراً حاسماً عند نفالة ، واطمأن محمد من هذه الناحية فوجه عنايته إلى الغرب واستعاد إقليم بوتشى ، ولكنه اضطر إلى مهادنة الفولة عام ١٨٢٦ بعد أن لحقت به الهزيمة على يد السلطان بللو بن عثمان فوديو ، ثم استقر فى نوكاره عاصمته الجديدة ، وتوفى الأمين عام ١٨٣٩ تاركا الحكم لابنه الثانى عمر ، لأن ابنه البكر كان قد قتل عام ١٨١٧ فى أثناء القتال ضد بجرمى .

كانت مدة حكم بللو مليئة بالمتاعب والحروب المستمرة ضد القبائل التى لم ترغب فى الاعتراف بحكم الفولة ، ثم قضى أخيراً على منافسيه فى القسم الشرقى من دولته ، وكانت معركته الكبرى « كجواكوكى » خاتمة

حروبه عام ١٨٦٥ ، وقد استطاع أن يدعم ملكه . واستمر حملة الرايات على تحالفهم معه : كاتسينا ، وكانو وزارية وهاديجة وأداماوه وكتاجم ونوبى وايللورين ودورا ويوجى .

واستطاع بللو رغم حروبه الكثيرة أن يكرس بعض الوقت للتأليف فى التاريخ وتقويم البلدان والشريعة وكتابة الشعر ، زاره الملازم كلابرتون فى ورنو بلدته الجديدة فى عامى ١٨٢٤ و ١٨٢٦ ، وقد أحسن الكلام عنه . ومات بللو عام ١٨٣٧ ، ودفن فى ورنو التى نافست سكوتو حينذاك (١) .

الشيخ عمر وخلفاؤه

قنع الشيخ عمر بن الكانمى (١٨٣٥ - ١٨٨٠) أول الأمر بأن يحكم باسم السلطان إبراهيم أخى دونمه (١٨١٨ - ١٨٤٦) .

كان عمر محباً للسلم وظلت صلاته طيبة مع الفولة وبجرمى ، ولكنه عانى كثير فى إخضاع ولاة الأقاليم المختلفة الذين كانوا يحاولون الاستقلال وانتهز أنصار الأسرة السيفية فرصة قيام هذه الاضطرابات ، فحاولوا إعادة أسرتهم القديمة إلى ما كان لها من سيادة ، وأن يقضوا على نفوذ الكانم مستعينين فى ذلك بسلطان واداى ، وعمل محمد صالح سلطان واداى بالاتفاق مع الساخطين ، فانتهز فرصة غياب جيوش الشيخ عمر فى حملة على زندر وأغار على برنو ، وما أن سمع عمر بهذا الخبر حتى ألقى إبراهيم فى السجن ، وجمع ما استطاع جمعه من الجنود ، وسار نحو جيش واداى ، ولكنه هزم هزيمة منكرة عند « كسرى » ، وهلك فى هذه الحروب وزيره كما أسر أخوه على ، واضطر إلى الالتجاء للأقاليم الغربية بعد أن قتل السلطان إبراهيم (١٨٤٦) ، ونهب أهل واداى برنو وأحرقو كوكه ، غير أنهم

(١) مدينة سكوتو اليوم تقع فى غربى نيجيرية .

انسحبوا عند اقتراب جيش برنو العائد من زندر ، وكان محمد صالح قبل رحيله قد أقام علياً بن إبراهيم سلطاناً فى برنى الجديدة ، ولما كان ما بقى لعلى من القوة لا يسمح له بمقاومة الشيخ عمر مقاومة جدية ، فقد هزم عند « منارم » ، وهلك فى هذه المعركة ، وبموته انتهت أسرة سيف القديمة كما خربت برنى الجديدة . وأصبح عمر السلطان الفعلى لبرنو متخذاً لقب الشيخ بدلا من « الماى » وهكذا بدأت أسرة كانمية جديدة أعادت بناء كوكاوا بعدما خربها رجال واداي، وزاره فيها الرحالة بارث فى عامى ١٨٥١ ، ١٨٥٥.

وقد استمر يقاتل واداى سنين أخرى مما أضعفه كثيراً وسبب خروج المنطقة الغربية من زندر عن طاعته واستقلالها ، ومع ذلك فقد حكم عمر البلاد دون منازع إلى أن أدركته الوفاة عام ١٨٨١ .

واستطاع وزير الشيخ عمر « سلتمه » أن يحافظ على عرش الكانميين، ورتب نظام التوارث بعد وفاة عمر ، فآل الحكم إلى أكبر أبنائه « بوبكر » الذى تقلد الحكم ثلاث سنين عام ١٨٨١ إلى عام ١٨٨٤ ، وقد اشتهر بالكرم والدهاء فى الحرب ، ومات وهو يستعد للقيام بحملة على واداى ، وخلفه أخوه إبراهيم الذى حكم ما بين عامى ١٨٨٤ و١٨٨٥ ، ثم بعده الشيخ هاشم من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٤ ، وكان رجلا فاضلا متحمساً يشارك العلماء فى آرائهم ، ولكنه لم يكن يعنى بشئون دولته . عاش فى قصره مع نسائه وأولاده ، وأسخط رعيته لوقوعه تحت نفوذ محظيته ، وأخذت دلائل الفوضى فى البلاد تتزايد ، ورفض سلطان زندر دفع الجزية ، كما قامت قبائل واداى بغارات متوالية بقصد السلب ، وأصبح حال برنو يشبه البناء المتداعى ، ما أن يصيبه أى حادث حتى ينهار ، وقد تقوضت أركانه بالفعل أمام هجمات الثائر السودانى رباح التى بدأها عام ١٨٩٣ بدخوله برنو من واداى على رأس جيش منظم ، وهزم جيش هاشم الذى كان يقوده أحد قادته فى

أمجا ، وقتل هاشم بالقرب من نجالة ، ثم استولى رباح على دكوة ونهبها رجاله وأقام عليها معسكره وجعلها حاضرة له .

وكان حكم رباح لبرنو قصيراً إذ أن الجنود الفرنسية بقيادة لامى قتلته في ٢٢ فبراير ١٩٠٠ بالقرب من كسرى ، وأعيد عمر سنده الذى كان قد التجأ إلى زندر إلى عرش برنو ، ولكنه عزل وأقيم مكانه أخوه « جربى » الذى كان أقدر على مواجهة الموقف ، وفى ذلك الحين أعد فضل الله بن رباح عدته لاستعادة العرش بالقوة ، وحاول جربى أن يصده فهزم وطرد إلى كانم . وعندئذ تدخلت الجيوش الفرنسية لتخليص برنو من فضل الله الذى التجأ إلى نيجيريا عندما هزم فى ٢ فبراير ١٩٠١ ، وحاول أن يقوم بغزوة أخرى على برنو ، ولكنه هلك عند جبة أمام الفرنسيين (٣ أغسطس ١٩٠١) ، وبموت فضل الله توطدت الأسرة الكانمية فى برنو مرة أخرى واستعادت السلطنة ، ومع ذلك فلم تعد إلى إطارها السابق لأن أراضى برنو اقتسمتها ثلاث دول أوروبية امتدت مناطق نفوذها إلى بحيرة شاد ، وهذه الدول هى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا ، وكانت برنو نفسها من نصيب البريطانيين

- ١٠ -

الإسلام بين قبائل غرب افريقيا

يستحيل تقدير أثر الإسلام بين شعوب السودان فى غربى أفريقيا دون أن ننظر بعين الاعتبار إلى سكان جنوبى الصحراء الكبرى ، ذلك لأن السود يؤلفون عنصراً هاماً بين سكان تلك الصحراء التى يتوقف اقتصادها الزراعى عليهم ، ولأنهم يشتركون مع المغاربة والطوارق وقبائل التيدا فى نظمهم الإجتماعية ، ويتكلمون لغاتهم أيضاً ، بالإضافة إلى أنهم من النواحى الثقافية يتبعون عالم الصحراء لا عالم السودان ، ولذلك كله لا نستطيع أن نتجاهلهم .

ويعرف سكان الصحراء الكبرى الغربية بإسم المغاربة ، وهى تسمية غامضة ، وكثيراً ما أطلق عليهم إسم البيضان أى البيض، كما يطلق على السود السودان ، وهم ليسوا شعباً من جنس واحد متجانس ، مع أنهم يتكلمون اليوم إحدى اللهجات العربية وهى الحسانية ، بل هم خليط من البربر والعرب والسود ، ارتبطوا معاً بروابط الصلات الاجتماعية واللغة أيضاً .

فمنذ القرن الثالث عشر، غزا بعض طوائف العرب الحسانية جنوبى مراكش ، ثم تقدموا تدريجياً إلى الجنوب ، ووصلوا إلى السنغال فى بداية القرن الخامس عشر ، وسرعان ما انتقل إليهم الإشراف السياسى على البربر فى الغرب ، فاستعرب هؤلاء بدورهم ، وهم مثل جميع سكان

الصحراء والمغاربة تضمهم نظم مجموعات اجتماعية أهمها الزوايا (١)، أو عشائر خاضعة لرياسات دينية .

ويتكلم الطوارق أو الملثمون ، لغة مشتركة تعرف باسم تماهك إحدى فروع لغة البربر ، ويحتفظون بأبجدية ليبية بربرية ، وينقسمون إلى مجموعتين : رحل يرعون الإبل ويعيشون فى جبال أواسط الصحراء ، وهؤلاء يسكنون الصحراء شمال منحنى النيجر ومنطقة جرمة الداخلة فيه ، وقد تغيرت خصائصهم الطبيعية وأساليب معيشتهم وعاداتهم ، لأنهم يعيشون فى بيئة مختلفة عن البربر ويختلطون بالسود ، ولقد اكتسبوا لوناً أسود حتى أصبح من الصعب جداً تمييزهم عن السنغاى والهوسا ، وهم يعيشون فيما يشبه الاتحادات القبلية تحت حكم زعيم يعرف باسم أمينوكال لهسيادة إسمية فى داخل نطاق طبقى يقسم القبيلة إلى شرفاء وتوابع ، وعشائر خاضعة لنظم دينية ، وعبيدسود ، وطبقة أصحاب الحرف . ويقنع الطوارق بالزواج من امرأة واحدة ، وللمرأة فى مجتمعهم حظوة ومكانة .

ولم يمض وقت طويل حتى اجتذب الإسلام هذه القبائل إليه ، كما أن تأثيره فيهم لم يتغلغل فى نظم معيشتهم الاجتماعية .

ومن سكان الصحراء ، التيدا أوالتوبو (٢) كما يعرفون عند أهل كانم ، أما الذين يعيشون فى الشمال فيعرفون باسم تيدا ، والذين يقطنون فى الجنوب يعرفون باسم دازا . ويعرف عرب شوه أهل واداى باسم قراعان ، ويطلق الكانميون على الطوارق أكواده، ويعيش التوبو فى بقعة

---

(١) يدخل تحت هذا التخصيص فى جنوب موريتانيا القبائل العربيـة السائدة : ترازه ، وبركنة ، وقبائل البربر الخاضـعة لهم : زناتة ، وهرتين . وفى الحوض يقابلنا أولاد دليم والرجيبات والمشضوف وطلب مختار وجرجنكة وشرفاء تضنت وولاتة ونيمة فى شمال منحنى النيجر وفى أزوار يوجد حوالى ٣٠٫٠٠٠ من الكونتة والبرابيش ، وقدا كتسبوا لوناً أسود حتى أصبح من الصعب جداً تمييزهم عن شعبى السنغاى والهوسا .

(٢) أى أهل تورو أو تيبستى Tibisti

كبيرة من الصحراء الكبرى الشرقية ، تمتد من صحراء ليبيا فى الشمال إلى منطقة بحيرة تشاد فى الجنوب ، ولا يزيد عددهم على مائة ألف نسمة ، وتسكن مجموعاتهم الهامة السلسلة الجبلية من تبستى ويوركو ، وجزء من ايندى ، ومجموعة واحة كوار ، والأجزاء الشمالية من كانم ووادای ، وهم سود نحاف الأجسام قصار القـــامة ، سماتهم لطيفة ، وشفاههم دقيقة ، وشعرهم ناعم ، يتكلمون لغة سودانية من لغات الكانورى ، وتربطهم الصلات الثقافية مع الطوارق ولكنهم يمتازون عنهم ، والذين يعيشون منهم فى الغرب رحل رعاة ، أما الذين يعيشون فى الشرق فيشتغلون بالزراعة ويعنون بأحراش النخيل ويعتمدون على تجارة القوافل ، ويهيمن على السلطة التنفيذية مجلس من الإشراف ، وغالبية التيدا يتزوجون من امرأة واحدة ، وتمتاز المرأة باستقلالها ، وقد قلبت النظم الإسلامية الكثير من أوضاع معيشتهم التقليدية .

فإذا انتقلنا إلى شعوب السودان الشمالى قابلتنا الشعوب الآتية :

١ — الفولة أو الفلبة ، ويطلق الهوسا عليهم اسم فلانى وكذلك المغاربة أما الكانورى فيعرفونهم بإسم الفلاتة وكذلك التيدا وفى شرقى السودان ، ويطلق عليهم الماندى إسم الفولة أو فيلة ، وللفولة مجتمع طبقى يضم أشتاتاً مختلفة من المجموعات ، ويشتركون فقط فى اللغة التى يتحدثون بها ، وهم ينقسمون إلى حمر وسود (١) . والفولة الأصليون ليسوا سوداً ، وهم رعاة ورحل ويظهر أن هؤلاء اتصلوا بالرحل السود فى جنوبى الصحراء (النبى) واكتسبوا لغتهم . .

وتعيش جماعات قليلة منهم فى مناطق لا يقطنها غيرهم مثل سهوب فوتا بالسنغال ، أما الغالبية فتعيش بين السود الزراعيين ، ويدفعون لهم ما يشبه الجزية أو يتفقون معهم على أن يرعوا غنمهم فى الأراضى غير المزروعة ،

---

(1) Meek : the northern tribes of Nigeria ..

ويقدمون لهم في مقابل ذلك اللبن والزبدة . ويربى الرحل الماشية ، ثم يبيعونها لدفع ما عليهم من الضرائب ، وهم يقيمون فى أكواخ داخل ما يشبه المعسكرات، وليس للإسلام سوى أثر دينى قليل. وهم فى نظر الفولة السود وثنيون حتى يعتنقوا الإسلام ، والعنصر الأسود من المزارعين المقيمين هى الغالبية ، وهم أقوى من المسلمين فى غربى أفريقية ، وهم فقراء إلا أن شعورهم الجنسى قوى ، ويضيف الإسلام لهم السيادة الدينية . وسرعان ما يلبون نداء الجهاد ضد الوثنيين ، ويؤسسون دولة كما حدث فى فوتا وتورو وبندو وجالون وماسينا وبلاد الهوسا وآدماوة ، وتكون النتيجة أن يصبح الزعماء الدينيون قادة الجهاد طبقة أرستقراطية ، أما الزنوج المغلوبون على أمرهم فيتوزعون على الطبقات الاجتماعية المختلفة .

٢ — الولوف والتكولور Wolof - Tucolor :

ثم تقابلنا مجموعة الشعوب السنغالية ، وتشمل الولوف والتكولور والسرر والجولة . فالولوف والتوكولور مسلمون ، والسرر والجولة يعتنقون المسيحية ويزرع الجميع الدخن وينتجون الفول السودانى . والطبقة الحاكمة فى السرر ومثيلتها المحاربة تحولوا إلى الإسلام ، أما الغالبية فبقوا على الوثنية ، مع أن المسيحية تنتشر بين القوم ، والولوف وهم أكثر الشعوب تطوراً كانوا يؤلفون مجموعة من خمس ممالك هى السالوم والججور والبثول والوالو والجولوف ، وهم يسكنون مساحة كبيرة بين السنغال وغمبيا . ومع أن نفوذ الإسلام فى تلك البقعة بدأ منذ القرن الخامس عشر فإن الدين الحنيف حتى القرن التاسع عشر لم يجتذب الغالبية من السكان .

ويمكن تمييز التوكولور (١) عن الفولة بحسب العمل الضخم الذى

---

(١) توكولور أو توكورور مصطلح يطلقه الولوف الزنوج الذين اتصلوا بهم ويتحدثون نفس اللغة التى يتكلم بها الفولة ، أطلقه المؤلفون العرب على جميع الزنوج فى السودان الغربى .

قاموا به فى نشر الإسلام ، وهم مجموعة من نوع مختلط من الزنوج يضم الفولة وقلة من المغاربة ، وقد اعتنقت طبقتها الحاكمة الإسلام فى القرن الحادى عشر ، وموطنهم الرئيسى فى فوتا السنغالية حيث يقومون على شاطىء النهر من دجانة إلى منتصف المسافة المؤدية إلى ماتم وباكل .

٣ — ثم تقابلنا قبائل الماندى الشمالية ، وتضم الماندنكة والبمبارا والديولا والسوننكى والكاسونكى والبوزو .

٤ — ويعيش السوننكى فى مناطق الساحل ، وقد سكنوا قديماً الصحراء وامتزجت بهم عناصر البربر والفولة ، وهم رحالة أو مشتغلون بالزراعة ، وكان تجار السودان الغربى هم السكان الأصليين جنوبى الصحراء فى مملكة غانة ، وقد اعتنقوا الإسلام فى زمن مبكر ، فأثر كثيراً فى حياتهم الاجتماعية وقاموا بنشره فى السودان .

ويقدر عدد الماندنكة (الماندنجو والمالينكى) بحوالى مليون وربع مليون نسمة ، وينقسمون إلى مجموعات ، تتخذ كل منها إسماً مشتقاً من إسم المكان الذى تعيش فيه .

٥ — ويتكلم البمبارة (بامانة) والديولا نفس اللغة ويشتركون فى النظم الإجتماعية والخصائص الثقافية ، ولكنهم يختلفون بعضهم عن البعض الآخر فى نواحى التاريخ والدين والموطن إلى حد ما ، ويعتبر هؤلاء وثنيين ، أما الماندنكة فأشباه مسلمين ، والديولا مسلمون ، وكان الماندنكة هم الشعب المسيطر على المنطقة بين نيجر والأطلسى ، وبالرغم من اعتناق حكام مالى والتجار الدين الإسلامى ، ظل زارعو الأرض متمسكين بعقائدهم الوراثية ، وفى المائة والخمسين سنة الأخيرة انتشر الإسلام ؛ ويعتنقه اليوم حوالى ٥٠ ٪ من السكان ، ومع أن البمبارا قد اتصلوا بالإسلام منذ قرون ، فلا يعتنقه منهم سوى ٢٥ ٪ .

أما الديولا ، ومعناها التاجر فى لغات السوننكة والماندنكة والبمبارة

فيقطنون البقعة التي تمتد بين منحنى النيجر ومنطقة فولتا .

ومن الماندى الشماليين — البوزو والسمونو والكاسونكى ، ويقوم الأول بصيد السمك والزراعة ويقطنون شواطىء النيجر ونهر بنى بين سيجو وديزلا ونيافونكى ، وقد انتشر الإسلام بينهم منذ القرن الرابع عشر وأسلموا جميعاً فى القرن التاسع عشر ، وأما السمونو فقد اعتنقوا الإسلام حول عام ١٨٦٠ ، وهم اليوم يدعون إليه على الشاطىء الأيمن للنيجر ، وينتشر الإسلام بين الكاسونكى الذين يعيشون فى كايس وبافولابى ونيورو منذ أزمان بعيدة .

٦ — وننتقل بعد ذلك إلى قبائل فولتا الشمالية ، فنلاحظ أنه ليس لهؤلاء أى استعداد لقبول الإسلام وأنهم لم يتأثروا بالدعوة بالرغم من اتصال جماعاتهم الشمالية بالمسلمين منذ قرون عدة ، ويعيش بين قبائل فولتا شعب « موشى » ، ويمتاز هؤلاء بتكوينهم السياسى والاجتماعى . ومعنى موشى طبقة المحاربين المهاجرين ، وقد انقسموا فى القرن السادس عشر إلى مملكتين : الواجادوجو ، والواهيجويا ، واستقرت دولتاهما فى القرن التاسع عشر ، وقامت على جانبى منطقتهما دولة الفولة وماسينا وجواندو ، واعتنق الإسلام حوالى تسعين ألفاً من الواهيجويا وعشرين ألفاً من الموشى (Mossi)

٧ — ويجىء من بعدهم السنغاى والزيرما والدندى ، وهؤلاء يعيشون فى الأراضى التى تحف بالنيجر الأوسط والتى تفصل بين عالم الماندى والسودان الأوسط .

والسنغاى (يطلق على البلاد وليس على الناس) يبلغ عددهم ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة ، ويعيشون فى محاذاة منحنى النيجر من موبتى عبر المنطقة البحيرية وتنبكتو إلى جاو (جاغ) . ويعيش الزيرما (٨٠٫٠٠٠ نسمة) جنوبى جاو ، ويعيش فى الجنوب منهم الدندى (٢٤٫٠٠٠ نسمة) . وأهل السنغاى

زنوج يقطن الحضريون منهم فى جنى وتنبكتو وجاو ، وقد امتصوا الطوارق والمغاربة الذين وفدوا عليهم ، وهؤلاء يؤلفون العناصر الأرستقراطية ، ومنها الرماة سلالة الجنود المغاربة والأندلسيين الذين قضوا على إمبراطورية سنغاى .

أما أهالى زيرما الذين هاجروا إلى النيجر الأوسط منذ أربعة قرون فلم يتأثروا بالإسلام إلا قليلا ، حتى قامت ثوره الفولة متبدئة فى نيجيرية فى أوائل القرن التاسع عشر تحت زعامة عثمان دان فوديو .

والهوسا إحدى اللغات الحامية الشائعة ويتكلمها حوالى ٥٫٤٨٠٫٠٠٠ نسمة فى شمالى نيجيريا ، كما أنه فى جمهورية النيجر نصف مليون يتحدثون بها ، ويشتغل الهوسا بالزراعة وصناعة الحصر والجلود والتجارة ، وقد اعتنقوا الإسلام فى أعقاب ثورة الفولة وغزوهم أقاليم الهوسا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وسرعان ما انتشر الإسلام بينهم ، وهو يحظى بنسبة ٧٥ - ٨٠ ٪ أما البقية الوثنية فواقعة تحت تأثير المسلمين .

٨ — ويؤلف شعوب تشاد عناصر متباينة ، نجدهم فى برنو وباجرمى وواداى ، وهم زنوج اختلطوا بطوائف التيدا والفولة والمغرب ، ويتحدثون عدة لهجات ، وقد اتصل بهم الكانمبو والكانورى والبجرميون وأهل واداى ، واعتنقوا الإسلام ما عدا بعض الأقليات فى الجنوب .

ويشتغل الكانمبو بالزراعة ، ويعيشون فى كانم شمال شرقى بحيرة تشاد وفى منطقة ضيقة حول شواطىء البحيرة الغربية والشمالية ، وقد دخل الإسلام بلادهم فى القرن الثانى عشر ، واضطر زعماؤهم فى القرن الرابع عشر إلى الرحيل إلى برنو حيث اختلطوا بالسو (ساو) واستقر الكانورى وهم أغلبية كبيرة فى بونو ، ويبلغ عددهم فى نيجيريا ١٫٢٩٧٫٠٠٠ نسمة منهم ٧٥٢٫٦٨٠ نسمة فى نطاق برنو ، ويعيش منهم عدد كبير فى جمهورية

النيجر وجمهورية تشاد ، وتطلق اليوم «الكانورى» على الذين يتحدثون لغة الكانورى Kanuri .

ولقد عرف الإسلام باجرمى فى القرن السابع عشر ، وأسلم أهل تشاد فى خلال السبعين سنة الأخيرة ، ثم تأثرت عدة قبائل تسكن بالقرب من مستنقعات نهر شارى بالإسلام Shari .

٩ — وننتقل إلى الكلام عن عرب السودان الأوسط ، فنجد أن تأثير العرب كان شديداً فى بقاع الصحراء الكبرى الغربية، حيث استعرب البربر على عكس الطوارق والتيدا فى الوسط ، وكان أثر العرب أقوى بين سودانى النيل . وقد تسربت منهم بعض القبائل العربية إلى واداى وباجرمى وبرنو ، ويعرف شعب برنو هؤلاء القبائل بعرب شوه . وتتألف من مجموعتين : الإبالة والبقارة ، وقد استوطنوا البقاع الصالحة لتربية حيواناتهم ، ولم تتأثر نظم معيشتهم ، أما الذين ذهبوا إلى الجنوب حيث تصلح تربية الجمال فقد عنوا بتربية الماشية كالزنوج مثلا ، وتأثرت نظم حياة البقاره بما استمدوه من نظم الزنوج المحليين بالرغم من تمييز العنصر العربى عنها .

ويميز أولاد سليمان من عرب الشوا ، فقد هاجر الأول من فزان بعد عام ١٨٤٢ ، واستقروا عند تخوم كانم ، وكانوا يجولون من أبو الى إبشة ومن بوركو إلى ايندى ، وهم يعيشون كعرب الشمال ، ويتكلمون لهجتهم . وهناك نوع آخر من العرب يسمى بالجعليين جاءوا من النيل وهم تجار يعرفون بالجلابة . وهناك التنجور وهم حاميون وفدوا من الأقطار النيلية وتكلموا العربية ثم اتجهوا إلى الغرب ، ويعيش غالبيتهم (٣٠٫٠٠٠ نسمة) فى كانم ، كما أن هناك غيرهم فى برنو وواداى ودارفور .

أما المنطقة السودانية الجنوبية حيث تهب رياح السغار فتشبه الأرض

الحرام، وتقع بين الأقطار السودانية الغربية وغينيا ، ونلاحظ أن الحضارة السودانية الحديثة لم تنفذ بعمق شديد إلى هذه الشعوب ، ولذلك رأينا أنه لم يكن للإسلام سوى أثر ضئيل ، مع أنه امتد إلى تلك المنطقة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

أما غينيا الغربية فقد تأثرت قبائلها إلى حد كبير بالإسلام ، وبالرغم من أن معظم الأهالى الذين يعيشون عند مصب الأنهار فى المنطقة الساحلية قد حافظوا على الوثنية فلم يتسرب الإسلام إلا إلى قلة منهم .

وقاوم قبائل فولتا فى الحزام السودانى الجنوبى الإسلام ، وأسلم فى ساحل العاج حوالى ٤٥٠٫٠٠٠ نسمة من الديولا وغيرهم ، ولا تزال الغالبية وثنية ، وقد خطا الإسلام خطوات وئيدة بين طبقات داجومبة الحاكمة ، ونفذ إلى مجموعات المامبروزي ، وانتشر بين الوالا ، وأثر على داجاين ولوبى ، كما تأثر به بعض سكان مدن بوبوديولاسو (فولتا العليا) والبندوكو (ساحل العاج) ، ويقال نفس الشىء عن مقاطعات غانة الشماليه حيث تقدر نسبة المسلمين بحوالى ٥ ٪ على الأقل .

١٠ — فإذا انتقلنا إلى نيجيرية لوجدنا أن منطقة إيلورين قد أصبحت إمارة للفولة وأن ٦٠ ٪ من اليوروبا فى المنطقه الشمالية تحولوا إلى الإسلام ويمكن أن نعتبر نوبى مثلا شعباً فى حالة انتقال من الوثنية إلى الإسلام ، ويسكن هذا الشعب المنطقة التى تقع شمالى وجنوبى ذلك الجزء من نهر النيجر الذى يخترق إقليم نيجر ، ويبلغ عددهم ٣٥٠٫٠٠٠ نسمة تجمعهم لغة واحدة وإن اختلفوا من الناحية الجنسية والثقافية . وقد خضع النوبى لقبائل الفولة فى أثناء ثورتهم الكبرى فى بداية القرن التاسع عشر وهم اليوم مسلمون ، ونلاحظ أن الإسلام قد انتشر بين قبائل اليوروبا فى جنوب نيجيريا الغربى ، كما دخل إلى الجزء الشمالى من الكمرون ، واستقر فيه وزاد عدد أتباعه .

- ١١ -

انتشار الإسلام

والطرق الصوفية فى غرب أفريقيا

يرتبط معظم (غالبية) المسلمين السودانيين فى غرب أفريقيا برجال الدين بوساطة إحدى الطريقتين القادرية أو التيجانية . ولقد كان انتشار هاتين الطريقتين ، ولاسيما الطريقة التيجانية ، عظيما جداً فى أثناء القرن ١٩ ولا يمكن تفهم انتشار الدعوة الإسلامية على حقيقتها تماماً ، وكذلك المنافسات الداخلية ضمن المجموعات الإسلامية ، دون النظر إلى ارتباط الزعماء المسلمين بإحدى الطرق الدينية ، لأن النفوذ السياسى لأحدهم كان يرتبط إلى حد كبير بمدى الزعامة الدينية التى يتمتعون بها .

كان ابن مسرة هو الذى أدخل الصوفية إلى الأندلس فى القرن العاشر الميلادى ، وانتقلت منها إلى شمال المغرب عن طريق صوفية الأندلس ، وقد قامت الصوفية بدور هام ضد المرابطين وازدهرت على أيام حكم الموحدين ، وقد اشتهر فى زمانهم طائفة من علماء الصوفية ، ومن أشهرهم أبو مدين شعيب (ت١١٩٧ - ٩٨) وانتقلت منه بوساطة تلميذه عبدالسلام ابن مشبش (ت ١٢٢٧ - ٢٨) تعاليم الشاذلى (ت ١٢٥٨) ، ومنذ ذلك الحين انتشرت تعاليم الصوفية فى شمال أفريقية .

ويلاحظ أنه فى أثناء القرن الثالث عشر ، زاد عدد علماء الصوفية بشكل واضح ، وقد أقام هؤلاء زوايا كبيرة بعيدة عن المدن ، حيث كان يعيش شيخ الطريقة مع عائلته وخدمه وتلاميذه . وسرعان ما انتشرت تعاليم

هؤلاء إلى المدن المجاورة ، كما تناقلها البربر الذين أصبحوا مسلمين صادقين. وفى القرن الرابع عشر انتقلت تعاليم النظم الخاصة بالطرق الدينية ، وكثيراً ما كان يتردد الناس على مؤسس الزاوية ليحظوا ببركته ، فإذا توفى ودفن بزاويته ، فسرعان ما يتحول هذا الضريح إلى مزار مبارك ، يؤمه الناس أفواجاً ، وأصبح مع مرور الزمن مكاناً مقدساً عندهم ومحجاً للشفاعة . وفى القرن الخامس عشر وبفضل بعض الرجال الصالحين من أمثال ابن عبد الله محمد الجزولى المتصوف (توفى حوالى ١٤٦٨) ، وكان بعد عودته من الحج ، قد انصرف إلى العبادة سنين طويلة ، وأنشأ طريقته الجزولية المنبثقة من الشاذلية ، فتبعه أناس كثيرون فى المغرب الأقصى ، وألف « دلائل الخيرات » . وفى القرن المذكور انتقل نشاط الدعوة الصوفية والطرق إلى البربر القاطنين فى موريتانيا وفى منطقة الساحل الصحراوى . واجتذبت الطريقة القادرية ـ الشيخ عمر وهو يؤدى فريضة الحج ، ولما كان من رؤساء قبيلة كونتا العربية ، فقد كان لنفوذه القوى أن انتشرت القادرية فى السودان الغربى ، وبخاصة بين الزنوج المسلمين الرحل والمقيمين فى المدن ، وقد أقبلوا عليها بعد أن أن اتخذت أشكالا تطابق غاياتهم الدينية . وقد وجدت الطرق أرضاً صالحة بين قبائل السوننكة والديولا والهوسا ، ولاسيما ممن يشتغلون بالتجارة ، ثم انضم إليها سكان القرى والمدن .

ويقول بعض الباحثين إنه لم تكن الطرق الدينية وحدها قبل القرن التاسع عشر العامل الأوحد فى نشر الإسلام بغربى أفريقيا ، ولكن سرعان ما كان الالتحاق بإحدى الطريقتين : القادرية أو التيجانية ، مراد لاعتناق الإسلام . وأصبح كل مسلم يتبع واحدة من الطريقتين . وعلى سبيل المثال ، يمكن القول بأن إسلام منطقة فوتا جالون ، وارتباطها بالقادرية سارا معاً فى نهاية القرن ١٨ ، وذلك منذ اتصال رجال الدين من

قبائل الفولة ومعهم زعماء النضـال الذين عرفوا فى أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩ بالبكائية (فرع من القادرية)، وكان بعض هؤلاء الزعماء، قد اتبعوا الطريقة الشاذلية، ومنهم مودي شبللو (أنصار-لابى) حوالى ١٧٦٠ - ١٨١٣.

القادرية فى أفريقيا الغربية (١)

دخلت القادرية أفريقيا الغربيـة فى القرن الخامس عشر بواسـطة المهاجرين الذين قدموا من توات (واحة فى النصف الغربى من الصحراء الكبرى)، فاتخـذوا من ولاته أول مركز لطريقتهم ؛ ولكن أحفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد، فلجأوا إلى تمبكتو وأقاموا فى جبهة نائية شرقى ولاته..

وفى مستهل القرن ١٩ نلتق النهضة الروحية التى أثرت فى العالم الإسلامى تأثيراً عميقاً، تدفع بالقادرية إلى تطور ونشاط جديدين، ولم يمض زمن طويل حتى برز فقهاء متفقهون وجماعات صغيرة من المريدين قد انتشروا فى أرجاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب النيجر، ونهضت المراكز الرئيسية لتنظيم دعوة القادرية فى كتكاء تيمبو بفوتا جالون وموسرودو (بلاد الماندنجو)، وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامى وسط شعب وثنى رحب بالقادرية باعتبارهم فقهاء، وكتاب تمائم ومعلمين، وتسلطت القادرية على من كان يتصل بها شيئاً فشيئاً، وسرعان ما تطور الدخول فى الإسلام من حالات فردية إلى حالات جماعية صغيرة من هؤلاء الذين أسلموا، كان يرسل بعضهم إلى مراكز الطائفة لإتمام دراستهم

---

(١) نشأت القـادرية فى العراق فى القرن ١١، أسسها سيدى عبد القادر الجيـلانى، ويتعبـد أتباعها على مذهب الإمام مالك، ويشتهر من أتباع هـذه الطريقة فى أفريقيا الزنجية شعبة القادرية كونته التى يتبعها فى جنوب المغرب مشايخ سعد بو (توفى ج ١٩١٧).

أو كانوا يبعثون إلى معاهد القيروان أو طرابلس أو فاس أو الأزهر ، وربما قضوا فى تلك البلاد عدة سنوات ، حتى يتقنوا دراستهم الدينية ، ثم يعودون إلى أوطانهم لنشر عقيدتهم . وكان نشاط القادرية فى الدعوة ذا طابع إسلامى ، يعتمد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره . وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية على أنهم أوفياء لمبادىء مؤسس الجماعة ، ولتقاليدها ولمبادىء منشئها الذى أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح (١).

ويتفرع من القادرية شعبة البكائية ، ومؤسسها سيدى أحمدى البكاى الذى عاش فى نهايه القرن الخامس عشر وقد عمل على نشر دعوته فى الجزء الغربى من الصحراء الكبرى بينما كان يعمل التلمسانى محمد بن عبد الكريم المغيلى فى الجزء الأوسط من الصحراء وفى بلاد الهوسا . وقد ازدهرت البكائية مدة طويلة - على الأقل إلى عام ١٨٥٠ حينما سادت عليها التيجانية ومعها شعبة أخرى للقادرية عرفت باسم « الفضلية » .

وفى القرن ١٨ ظهر ألفا إبراهيم الذى عمل على نشر الدعوة فى منطقة فوتا جالون على طريقة البكائية ، واتبعه نشاطه فيما بعد إلى غينيا والسنغال ولم يمض قرن من الزمان حتى استعادت القادرية نشاطها القوى بفضل الشيخ السيد الكبير التأرازى ، وكان واحداً من تلاميذ المرابط كونت مختار الكبير الذى كان قد لعب دوراً كبيراً فى تهدئة الأحوال بين القبائل. وقد عمل أتباع الشيخ سيد التأرازى على نشر طريقتهم فى جمبيا وغينيا البرتغالية وليبيريا وفى غانة أيضاً (ساحل الذهب سابقاً) . ثم تسلم لواء القادرية فيما بعد الشيخ الزعيم أحمدو وعثمان دان فوديو فى منطقة النيجر الوسطى ، وفى نيجيريا والكمرون . ثم تولى شؤون القادرية الشيخ سيدى

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

بابا حتى عام ١٩٢٤ ، وكان عالماً وأديباً واسع الفكر ، عمل على القضاء على كثير من البدع والتقاليد التى تفشت بين المسلمين . ويشرف اليوم على طريقة القادرية عبد الله ولد الشيخ سيدى، ومقره فى بوكاوبيت بموريتانيا وقد قام بدور سياسى يذكر مع مختار ود داه رئيس جمهورية موريتانيا الإسلامية .

الفضــلية

ومع أن الفضلية فرع من الطريقة القادرية ، إلا أنها تقاوم شعبة كونتا البكائية لأسباب تقوم على العصب والجنس، وتنسب إلى مؤسسها الشيخ محمد فضل (١٧٨٠ - ١٨٦٩) ، الذى كان زعيما لأهل طالب مختارة وهم من الصناهجة الذين يعيشون فى منطقة الحوض بالصحراء وهم أصلا من البربر ، وسرعان ما التفوا حول زعيمهم للتغلب على منافسيهم أهل زناته . وتختلف الفضلية عن البكائية فى طريقة الذكر. وأتباع الفضـلية اليوم موزعون كما يلى :

١ ــ أهل (آل) الشيخ ماء العينين ويعيشون فى الصحراء الاسبانية .

٢ ــ آل الشيخ الحضرمى وآل الشيخ سيدى الخبنى، ويعيشون فى شرق موريتانيـا .

المريــدية

وتتفرع من شعبة القادرية كونتا ، طريقـة المريدية التى تزدهر فى السنغال فإنها أيضاً شعبة من القـادرية كونتا . وقد أسس هـذه الطريقه رجل يدعى « أمادوبامبا » (أحمدو) من قبيلة الوولوف وأصله من التوكولور ، ورغم أن أمادو (١) لم ينفصل تماماً عن طريقة القـادرية ،

---

(١) أى أحمد .

اضطهدته الإدارة الفرنسية ونفته من البلاد مراراً لاشتغاله بالسياسة ، غير أنه منذ عام ١٩١٢ قصر نشاطه على الشؤون الدينية . وعند وفاته (١٩٢٧) كان عدد أنصاره قد بلغ حوالى ٤٠٠,٠٠٠ شخص (١) ولا يزال قبره يزار إلى اليوم فى مدينة طوبة ، ولا يزال أفراد أسرته على رأس هذه الطريقة .

وشعار الطريقة المريدية ، اتخاذ الزراعة عملا أساسياً واعتبارها أشرف الأعمال . وقد أسست نفسها على أساس جماعى تعاونى ، لكل فرد منهم نصيب معين من العمل ، يقوم به تحت إشراف شيخ الطريقة من المرابطين .

الشريفيـــة

أنشأ هذه الفرقة الشريف حمى الله بن محمد فى نيورو بمالى ، وهى تدعو إلى التحرير والتجديد فى مفاهيم الإسلام ، وقد توفى بمنفاه بفرنسا عام ١٩٤٢ .

وعلى أى حال فينبغى أن نذكر هنا ما كان للسنوسية من شأن فى إحياء مفاهيم الإسلام فى القارة الإفريقية بأسلوبها الخاص .

طريقه التيجانية

نشأت هذه الطريقة فى شمال أفريقيا فى القرن ١٨ ، أسسها سيدى أحمد التجانى المدفون بمدينة فاس . وتتميز هذه الطريقة بتزمتها الشديد ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى . وانتشرت هذه الطريقة وهى طريقة الحاج عمر انتشاراً واسعاً فى أفريقيا السوداء . وتفرعت عنها شعبة الحمالة .

وهذه الشعبة نشأت فى مدينة « نيورو » وهى من بلاد السهل ، وتقع

---

(١) لا يقل اليوم عدد أتباع المريدية عن نصف مليون شخص .

على بعد ٢٥٠ كم إلى الشمال الغربى من باماكو عاصمة مالى ، أسسها الشيخ « حما الله » وأصله من مسلمى البربر ، وكان على جانب عظيم من الذكاء . بدأ دعوته بنفسه ، فلزم التعبد والتنسك ، والتف حوله جماعة من غلاة الأنصار ، ظل عددها يتزايد يوما بعد يوم . وكان تأسيس هذه الطريقة إيذاناً بنشوب النزاع والشغب بين أتباع الطرق المختلفة ، إذ باغت الحمالون سكان البلاد المجاورة لهم عام ١٩٤٠ ، وأمعنوا فيهم تقتيلا ، بل أحرقوا المصاحف ، فألقت الإدارة الفرنسية القبض على الشيخ ونفته إلى فرنسا ، وتوفى فى المنفى عام ١٩٤٢ ولم يخلفه أحد على المشيخة ، ولكن طريقته لم تتوقف عن الانتشار رغم ما طرأ عليها من التحريف .

كانت أولى الحركات الحربية التى قام بها أفراد التيجانية فى نشر الدعوة ، تلك التى تعزى إلى الحاج عمر الذى كان قد التحق فى هذه الجماعة على يد أحد زعمائها الذى تعرف عليه فى مكة . ولد عمر سنة ١٧٩٧ ، وكان إبناً لأحد المرابطين فى السنغال الأدنى وتثقف ثقافة دينية متينة ، واشتهر بعلمه وورعه حين خرج إلى الحج ١٨٢٧ ، ثم عاد إلى وطنه سنة ١٨٣٣ ، ومن ثم نشط فى نشر تعاليم التيجانية ، وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة ، وخاصة شيوخ القادرية . وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط فظفر بكثير من الأتباع .

وما وافت سنة ١٨٤١ حتى كان قد بلغ جبال فوتاجالون ، حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من المعارك فى نشر تعاليم الدعوة . وفى إحدى هذه المعارك لقى حتفه (١٨٦٥) . ولم ينجح ابنه « أحمدو » (أمادو) شيخو فى ضم مختلف الولايات فى مملكة أبيه إلا سنوات قلائل ، ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين ، ومن ثم انتقلت أراضيها إلى حكم فرنسا .

وأهم كتاب يجمع بين مذاهب أتباع التيجانية ورياضاتهم هو « جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى منى الشيخ التيجانى المعروف كذلك بالكناش (القاهرة عام ١٣٤٥ هـ) ، وهناك أيضاً « كشف الحجاب على من تلق مع التجانى من الأصحاب » صنفه أبو العباس أحمد بن أحمد العباش (فاس ١٣٢٥ هـ ، ١٣٣٢) . ويسمى أصحاب هذه الطريقة بالأحباب وقد حرم عليهم الانخراط فى طريقة أخرى .

— ١٢ —

الاسلام فى جمهورية موريتانيا الاسلامية

وفى دول أخرى

تقع فى غرب أفريقيا شرق الصحراء الإسبانية وإلى جنوب المملكة المغربية، وتقدر مساحتها ٤١٩،٠٠٠ ميلا مربعاً، ويبلغ عدد سكانها حوالى المليون من المسلمين. وكان يطلق على موريتانيا اسم «شنقيط»، وهو الاسم العربى لساحل «ريودورو الحالى»، وأهالى الصحراء الغربية وسكان موريتانيا من العرب والبربر المسلمين باستثناء حوالى ٧ ٪ من الزنوج المسلمين الذين يقطنون ضفاف نهر السنغال فى جنوب موريتانيا، ويكثر المغاربة فى الجزء الغربى تجاه الساحل، أما فى الوسط فيكثر السكان من الطوارق. ومن أهم القبائل فى جنوب موريتانيا، قبائل القرازه وبراكنة وكونتا، وفى الشمال قبيلة الرقيبات التى يعيش بعض أفرادها فى ديودورو، وفى الجنوب أولاد مبارك ومشدوف وأولاد دليم.

وتعتبر موريتانيا الجسر الذى عبره مسلمو شمال أفريقية ليتصلوا بزنوج غرب أفريقية فى أثناء المرحلة الإسلامية الأولى، ولا سيما على أيام دولة المرابطين، وقد كانت قبائل صنهاجة يؤلفون غالبية المحاربين مع بطونها الرئيسية فى جدالة فى الغرب بالقرب من ساحل الاطلنطى، ولمتونة فى ادرار وتاجانت وقبيلة مسوفة فى منطقة حوض بالصحراء الكبرى، وقد ألقى على عاتق القبيلتين، جدالة ومسوفة، غزو بلاد الزنج المتاخمة للصحراء وتحويلهم إلى الإسلام، وتنتشر اليوم الزوايا والمساجد الصغيرة فى أنحاء البلاد، ويوجد بها معهد إسلامى تشرف عليه جمعية ترقية الثقافة الإسلامية، ومقرها مدينة بون ليسيت.

جمهورية مالى

تنهض مالى اليوم - بين دول غرب أفريقيا بشرق موريتانيا والسنغال وغرب جمهورية النيجر وشمال فولتا العليا . وتقدر مساحتها بنحو ١٢٠٤٠٠٠ كم٢ ، ويبلغ عدد سكانها ٤٤٠٠٠٠٠ ، ويقدر عدد المسلمين بنسبة ٧٥٪ من السكان ، وأهم قبائلها البمبارة ٢١٪ والفولة ١٢٪ والماركا ٦٪ والسنغاى ٥٪ والمالنكة ٥٪ والطوارق والبرنو ٤½٪ والسينوفو ٣½٪ والدوجون ٣½٪ . وماباكو هى العاصمة ، ومن أهم مدنها كايس وسيجو وسيكاسو وتمبكتو وجاو . وتتصل الجمهورية العربية المتحدة بمالى اتصالا اقتصاديا وثقافيا وثيقا .

وينتمى معظم المسلمين بالطرق الصوفية : كالتيجانية ، والقادرية ، والسنوسية ، والحمالية ، وقد ضعف شأن بعض هذه الطوائف فى الأعوام الأخيرة .

ولمالى تاريخ إسلامى قديم فى العصور الوسطى ، فقد كانت أهم دولة إسلامية أفريقية فيما بين ١٢٣٨و١٤٨٨ حتى اندمجت فى إمبراطورية سنغاى الإسلامية (١) .

وقد ازدهرت فى مالى عدة مراكز إسلامية كان لها شأن يذكر فى نشر الإسلام فى قلب القارة الأفريقية ، فضلا عما كان لها من أهمية فى شؤون الاقتصاد ، فقامت فيها العمائر والمساجد والمدارس ، وبنيت من حولها الأسوار ، وقد أنشىء فيها معهد سنكورة السنى الكبير ، وقد تلقى فيه علماء مالى الدروس الدينية ، ويذكر منهم على سبيل المثال : أحمد بابا التمبكتى ، وعبد الرحمن السعدى . وقد زارها الرحالة المغربى الحسن بن الوزان الفارسى (ليون الأفريقى) فى أوائل القرن ١٦ ، ووصف دورها

(١) راجع الفصل الذى عقدناه لمالى فى العصور الوسطى .

ومساجدها ومجتمعاتها وصفاً جيداً يبين ما كانت عليه المدينة*.

ومن مدن مالى الإسلامية - جنى - التى تقع إلى الجنوب من تمبكتو وعلى نهر بانى من روافد نهر النيجر ، ويرجع تأسيسها إلى أوائل القرن العاشر أو الحادى عشر . وقد اعتنق أهالى جنى الإسلام فى أوائل القرن ١٣ أو قبل ذلك بقليل ، ومنذ ذلك الحين أصبحت أهم مراكز التجارة لقبائل الفولة والولوف والسكولة وتكرور الغربى ، واشتهرت بصناعة النسيج . وفى القرن ١٤ شيد حاكم جنى مسجداً على الطراز المغربى أعتبر من أشهر مساجد المنطقة .

وتقابلنا مدينة جاو (جاغ) التى تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر ، وإلى الجنوب من منحنى النيجر الأعلى ، وهى بلدة صغيرة إسلامية ، وقد استولت عليها مالى القديمة إبان سطوتها فى القرن ١٤ ، واتخذتها قاعدة لها فى القرن ١٥ ، وفى أثناء ازدهارها شيد السلطان منسا موسى مسجداً كبيراً حوالى ١٣٢٥ ، وذلك بعد عودته من تأدية فريضة الحج . ولقد زار الرحالة الحسن بن الوزان المدينة فى أوائل القرن ١٦ ووصفها قائلا : « كانت جاو تشبه تمبكتو ، مساكن الأهالى رديئة ، إلا أن قصور الملوك ورجال الحاشية جميلة وأنيقة وفى جاو كثير من الآبار وسوق عامة لتجارة الرقيق .

وقد خلفت الحروب والثورات كثيراً من التخريب فلم يبق بها المسجد الكبير وقبر السلطان الحاج أسكيا محمد الكبير (القرن ١٦) ، ويقصده الأهالى للتبرك .

* كانت مالى تعرف بالسودان الفرنسى قبل استقلالها فى عام ١٩٦٠ .

جمهورية السنغال

تقع فى غرب إفريقية على المحيط الأطلنطى ، وتقدر مساحتها حوالى ٢٠٠٠٠٠ كم٢ ويبلغ عدد سكانها حوالى ٢٣٦٠٠٠٠ نسمة ، ثلاثة أرباعهم

من المسلمين أى ۲٫۰۰۰٫۰۰۰ نسمة ، ويقدر عدد المسيحين بمائة ألف ، والباقى من الوثنيين . ومن أهم القبائل التى يتألف منها شعب السنغال : الولوف ، ويبلغ عددهم ۸۰۰۰۰۰ نسمة ، والسيور ، وقبائل الفولة ، والتوكولور ، وقد تمكن هؤلاء من إقامة مملكة إسلامية منذ عام ١٢٥٠ ثم اتحدت مع مالى فى دولة واحدة ، ومع ذلك فقد كانت السنغال أولى المناطق التى استسلمت لهجمات المسلمين التى شنها المرابطون حوالى سنة ١٠٥٠ ضد مملكة تكرور الزنجية فى غرب أفريقيا (اقليم فوتا السنغالى ـ فوتا تيرور ـ فوتا بوندو) ، وقد كانت هذه البلاد مسرحا للأحداث الدموية بزعامة الإمام عبد القادر الذى كان يهدف إلى نشر الإسلام بين قبائل الولوف ، بيد أنه هزم وقتل فى نهاية النضال (١٨٠٦) ، واختار أتباعه الإمام مختار بن سيريه ، ولم يحكم هذا أكثر من سنة واحدة . وقد خلف عبد القادر حوالى ٣٢ خليفة أوزعيما أطلق عليه اسم « الماى » (الإمام) ، وكان ينتخبه أعيان البلاد لمدة قصيرة .

وقد كانت فترة دولة تكرور التى أنشأها الحاج عمر قصيرة ، ففى عام ١٨٣٨ استقر فى بلاد الماندنكو ، وشيد فيها حصناً ، وجند جيشاً جمع أفراد كتائبه من فولتا السنغالية ، ثم دعا بعد ذلك إلى الجهاد ضد الوثنيين ، وفتح ماندنكو وبمبك ، ثم سار إلى بمبارة ودمر ملكها ، ودخل نيورو ظافراً عام ١٨٥٤ ، ثم حاصر عمر «خاسو» وهاجم الحامية الفرنسية التى كانت بها ، ولكن بعد مقاومتها الحصار مدة ثلاثة أشهر ظهر القائد « فيديرب » ونكل بجيوش عمر ، واضطر هذا إلى الإنسحاب حتى تمكن من إعادة تنظيم جيشه ، وسار إلى مدينة بمبارة (فى سيجو) واستولى عليها عام ١٨٦١ ، ثم وجه اهتمامه إلى الفولة فى ماسينا الذين لم يمنعهم إسلامهم عن معاونة أهل بمبارة الوثنيين ، فاستولى على عاصمتهم حمد الله ، وأسر ملكهم شيخو أحمدو وقتله (١٨٦٢) ، وفى أثناء تقدمه إلى تمبكتو اضطر الحاج عمر الى الاعتصام

بمغارة ، ولكن أطلق أعداؤه عليه الدخان فيها حتى أختنق عام ١٨٦٤ ؛
ويمكن القول بأن إسلام قبائل الولوف سار بطيئاً منذ سنة ١٤٥٥ ، ولم ينتصف القرن التاسع حتى كانوا قد أسلموا .

وينبغي هنا أن نذكر ما كان للزعيم الروحي أحمد بامبا مؤسس طريقة المريدية (ت ١٩٢٧) من آثار كريمة بين الولوف المسلمين فى دعوتهم إلى الإسلام القويم وجعلهم نتيجة لدعوته يحافظون على نظم مجتمعهم مع الحفاظ على الشريعه الغراء . فقد شن أحمد جهاده ولاقى المتاعب والاضطهاد والنفى (١٨٩٥ - ١٩٠٢ - ١٩٠٣ - ١٩٠٧) ، وبالرغم من ذلك فقد انصهرت آراؤه ، وعزم على أن يبث دعوته بالوسائل السليمة ، وأن يجتذب إليه الأتباع بواسطة طريقة المريدية ، وبذلك استطاع الولوف أن يتعدوا حدود معاقلهم تحت ضغط المغاربة والتوكولور والسيرننكة ، وينشروا دعوتهم هادئين فى كابور ووالنو ومناطق الولوف ، وتمكنوا من استغلال أراضى فيولو التى كان الفولة قد أهملوها وجعلوها صحراء مقفرة ، ثم تحول كثير من الولوف إلى التجارة ، وأقاموا المراكز التجارية فى مدن السنغال ، وأصبحت لهم الكلمة المسموعة عند القبائل الأخرى فى بلادهم وفى جمبيا المجاورة ، ويقدر عدد الولوف فى جمبيا بحوالى ٣٦٫٢٠٠ (احصائية ١٩٥٠) .

جامبيا

جمهورية حديثة العهد بالاستقلال ، كانت مستعمرة بريطانية تقع غرب أفريقيا ، ويقدر عدد سكانها بنحو ٣١٦٠٠٠ نسمة ، تحيط بها السنغال فيما عدا الغرب . أكبر مدنها باثوريست وهى العاصمة (أنشئت عام ١٨١٦) . يؤلف شعبها ثلاثة قبائل هى : الماندنجو والولوف والفولة ، ويؤلف المسلمون أربعة أخماس جمبيا .

وصل الإسلام إلى جامبيا فيما بين القرن الحادى عشر والرابع عشر فى أثناء سطوة المرابطين والموحدين الذين قدموا إليها عن طريق موريتانيا بيد أن المسلمين فيها ظلوا فترة طويلة فى حاجة إلى الوعاظ والعلماء ، ويتبع مسلمو جامبيا المذهب المالكى ، وكثير منهم ينضمون إلى إحدى الطرق الصوفية ، ولاسيما القادرية أو التجانية (١) .

جمهورية غينيا

تقع فى غرب أفريقيا وتطل على المحيط الأطلنطى، عاصمتها كوناكرى تقدر مساحتها بـ ٢٥٠٠٠٠ كم٢ ، ويبلغ عدد سكانها ٣٣٠٧٠٠٠ ، نصفهم على الأقل من المسلمين (١٨٥٠٠٠٠) . أهم قبائلها : الفولة والماندى والسوسو ، ويقدر عدد السوسو فى غينيا بـ ٣٢٠٠٠٠ ، وفى سيراليون ٥٥٠٠٠ ، وينتشر الإسلام بين السوسو فى غينيا بسرعة مذهلة .

أما فى غينيا البرتغالية التى يقدر عدد سكانها بحوالى ٥٢٠٠٠٠ فيبلغ عدد مسلمى الفولة ١١٠٠٠٠ ، والماندنكة ٦٤٠٠٠ ، والسوسو والبامبارة ١٢٠٠٠ .

سيراليون

يؤلف مسلمو سيراليون حوالى ٥٠٪ من السكان البالغ عددهم ثلاثة ملايين تقريباً . ويلاحظ أن العروبة وانتشار الإسلام نهضا بسرعة أذهلت المؤسسات المسيحية فى أثناء نصف القرن الأخير . ففى ١٨٩١ كان عدد مسلمى سيراليون (المستعمرة) ١٠٪ من السكان ، وارتفعت هذه النسبة إلى

---

(1) A. gouilly . L Islam dans L. Afrique Occidentale Francaise. Paris 1952.
Yamble, D. P.. The Wollof of Senegambia, London 1957 .

١٤٪ فى عام ١٩١١ ثم أصبحت فى عام ٣١ حوالى ٢٧٪ وفى ١٩٥٢ تجاوزت النسبة ٥٠٪ .

وفى عاصمتها « فريتون » تتنافس القبائل المسلمة فى بناء المساجد ، فإذا بنت قبيلة مسجداً سارعت الأخرى إلى بناء مسجد آخر ، وقد أصبح فيها وحدها أكثر من عشرة جوامع بالرغم من صغرها ، منها الجامع العتيق ، والجامع الجليل ، وجامع القدس ، وجامع السلام ، وجامع الاجتهاد ، بالإضافة إلى المساجد الأخرى التى يطلق عليها أسماء القبائل الإسلامية ، كالتمنى والمندى ، وهما أكبر القبائل ، وقد تخلوا عن معظم التقاليد الوثنية .

فولتا العليا

يقدر عدد سكان هذه الجمهورية بنحو ٤٫٦٥٠٫٠٠٠ ، تضمهم قبائل البوسى (٤٠٪) والبوبو ، والماندى (٥٪) ، والفولة (٥٪) ، وينتشر الوثنيون فيها (٧٥٪) ، ويؤلف المسلمون حوالى ٢٠٪ على الأقل من مجموع السكان (مليون تقريباً) ، والباقى مسيحيون .

- ١٣ -

الإسلام فى غانا

ليس هناك صلة تاريخية أو جغرافية تجمع بين دولة غانا القديمة التى عرفت فى العصور الوسطى ، وجمهورية غانا (ساحل الذهب سابقاً) ، وسنتحدث عن أحوال الإسلام والمسلمين فى جمهورية غانا الحديثة .

وصل الإسلام إلى المنطقة التى تشتمل عليها جمهورية غانا فى أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر ، حينما مدت قبيلة ديولا (Dyula) المسلمة (وهى مجموعات من المالينكة والسوننكى) نشاطها التجارى من مالى (العصور الوسطى) إلى خارج نطاقها حيث وجدت مراكز اقتصادية . وقد اجتذبتها منطقة جنوب نهر الفولتا بخيراتها الوفيرة، ولاسيما الذهب . وقد أقام قبائل الديولا عدة مستوطنات صغيرة موزعة على طرق التجارة المؤدية بين مناجم الذهب شمالا إلى الأسواق الزاهرة على نهر النيجر حيث تلتهى طرق القوافل الصحراوية الآتية من الشمال الأفريقى . وكان أهم هذه المراكز « بيغو » (Begho) التى كانت تقع عند الحدود الغربية لغانا بالقرب من نسوركور (Nsorkor) الحالية وكانت « بيغو » قبل سقوطها فى أوائل القرن ١٨ أهم مراكز النشاط الإسلامى فى منطقة الفولتا وكانت وانجارة مركزاً إسلامياً آخر تحظى بمثل هذه الحيوية الإسلامية فى شمال غانا ، حيث يقيم فيها اليوم « أمير المؤمنين » الذى يعرف أيضاً بلقب ديولا - منسا ، أو شيخ الونجارة .

وهناك طريق آخر عبره الإسلام ، يقع فى الشمال الشرقى لغانا . فقد

مد التجار المسلمون من دول الهوصا (كما ذكر فى حوليات كانو) نشاطهم الإقتصادى إلى غانا منذ منتصف القرن ١٥، ومع التوسع التجارى فى القرن ١٨، كانت هجرات الهوصا قد بلغت الذروة إلى قلب غانا، وفى أعقاب ذلك نمت مستوطنات هامة لهم، نذكر منها على سبيل المثال، مركزين فى الشمال، هما سالاجا (Salaga) وييندى (Yendi).

وبما حصلنا عليه من الأدلة التاريخية، نستطيع القول إن الإسلام بدأ فى الانتشار مجتازاً تخوم المراكز التجارية للديولا والهوصا فى أواخر القرن ١٦.

وفى ذلك الحين استطاع الشيخ إسماعيل (من أهالى بيفو) وابنه محمد الأبيض أن يحولا رجال الارستقراطية الحاكمة من قبائل الماندنكة - الجبارة فى جونجا (Gonja) إلى الإسلام، وقد كانت هذه القبائل تنطلق نحو السيادة فى شمال غانا فى أثناء الفترة (كما جاء فى تاريخ كونتا) التى كان يعمل فيها أتباع عمر الشيخ (مات حوالى ١٥٥٢ - بعد نشر الطريقة القادرية فى أنحاء السودان الغربى.

وقد أثمرت هذه الحركة بعد مرور قرن تقريباً على إسلام جونجا، فقد ظفرت الدعوة بنجاح باهر فى غانا. وفى الأعوام الأولى من القرن ١٨ اعتنق زعيم داجوبا « محمد زانجينا » الإسلام، كما تخلى أتابيا (مات حوالى ٤٢/١٧٤١) عن دين إسلافه فى دولة مامبروسى (Mamprusi)، وبذلك أصبح لكل من الدول الثلاث الكبرى فى شمال غانا - وهى جونجا وداجوبا ونامبروسى - حاكم مسلم، ومع ذلك فلم يكن لإحداها ذلك الوضع الإسلامى الذى سارت عليه فى القرن ١٨، فى أمارات فوتا جالون أو فوتا تورو، فقد كان الإسلام فيها « سطحياً » إلى حد كبير.

وفى أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩ توطدت الجماعات الإسلامية فى جنوب غانا، ففى كوماسى عاصمة امبراطورية الأشانتى كان المسلمون يؤلفون مجلس الملك، ومنهم الأمناء على الخزانة، والمشرفون على القطاع

الاقتصادي الأشانتي .

ولقد كانت الحركة الإصلاحية والإسلامية التي نهض بها الشيخ عثمان دان فوديو في أوائل القرن التاسع عشر، والتي أدت إلى قيام الإمارات الفولانية في شمال نيجريا ، أثرها الكبير بين مجتمعات غانا الإسلامية في شمالها الشرقي ، وهذا ما حدث في ييندى (Yendi) عاصمة داجوبا ، بيد أن عدم تعاون هذه المجتمعات مع الحكام الوثنيين ساعد على تأخير انتشار الإسلام في جنوب غانا . وفي النصف الثاني من القرن المذكور (١٩) ، هبت موجة إسلامية في شمال غانا الغربي ، أثرت في بعض أجزاء سيسالا (Sisala) ، ويبدو أن هذه الموجة جاءت أثر حركة الجهاد التي قام بها الحاج محمود كارانتو (جمهورية فولتا) وكانت تشتمل قواها على فرق من الداجارى - ديولا ، من وا (Wa) . وفي أخريات القرن ١٩ خضعت منطقة « وا » هذه ، وغرب جونجا ، لفترة وجيزة لنفوذ الزعيم الروحي ساموري توري (صاحب الكلمة على امبراطورية الماندنكا) . وفي الوقت نفسه أنشأ الزاباريما وقوات محلية تتبع الفا كازاري ، وبابتو ، وهماريا (Hamaria) ، في الأقسام الوسطى من شمال غانا . . أنشئوا نواة دولة إسلامية في قلب بلاد جرونشي (Grunshi) الوثنية ، وسرعان ما قام حلف بين القوات الإسلامية التي يتزعمها ساموري وبابانو ومختار بن الحاج محمود كارانشو ، وانضم إليهم الأشانتي غير المسلمين ، ونهضوا جميعاً لمقاومة البريطانيين والفرنسيين ، بيد أنهم لم يدعموا قواتهم في الوقت المناسب في أوائل القرن العشرين ، ففشلت قواهم وخسروا المعركة ضد الاستعماريين.

وقد زادت الهجرة الإسلامية إلى جنوب غانا خلال القرنين ١٩ و٢٠ ، وكان يؤلف العدد الأكبر من المهاجرين : قبائل الزباريما ، والهوصا ، واليوروبا ، ومن ثم كانوا أكثر المستوطنين عدداً . واليوم لا تخلو مدينة في غانا من السكان المسلمين ، ويعزى انتشار الإسلام حديثاً إلى هذه الهجرات . ولا يخفى أن الإسلام لم يكسب أرضاً جديدة بين قبائل الفانتي

(Fanti) على ساحل خليج غانة .

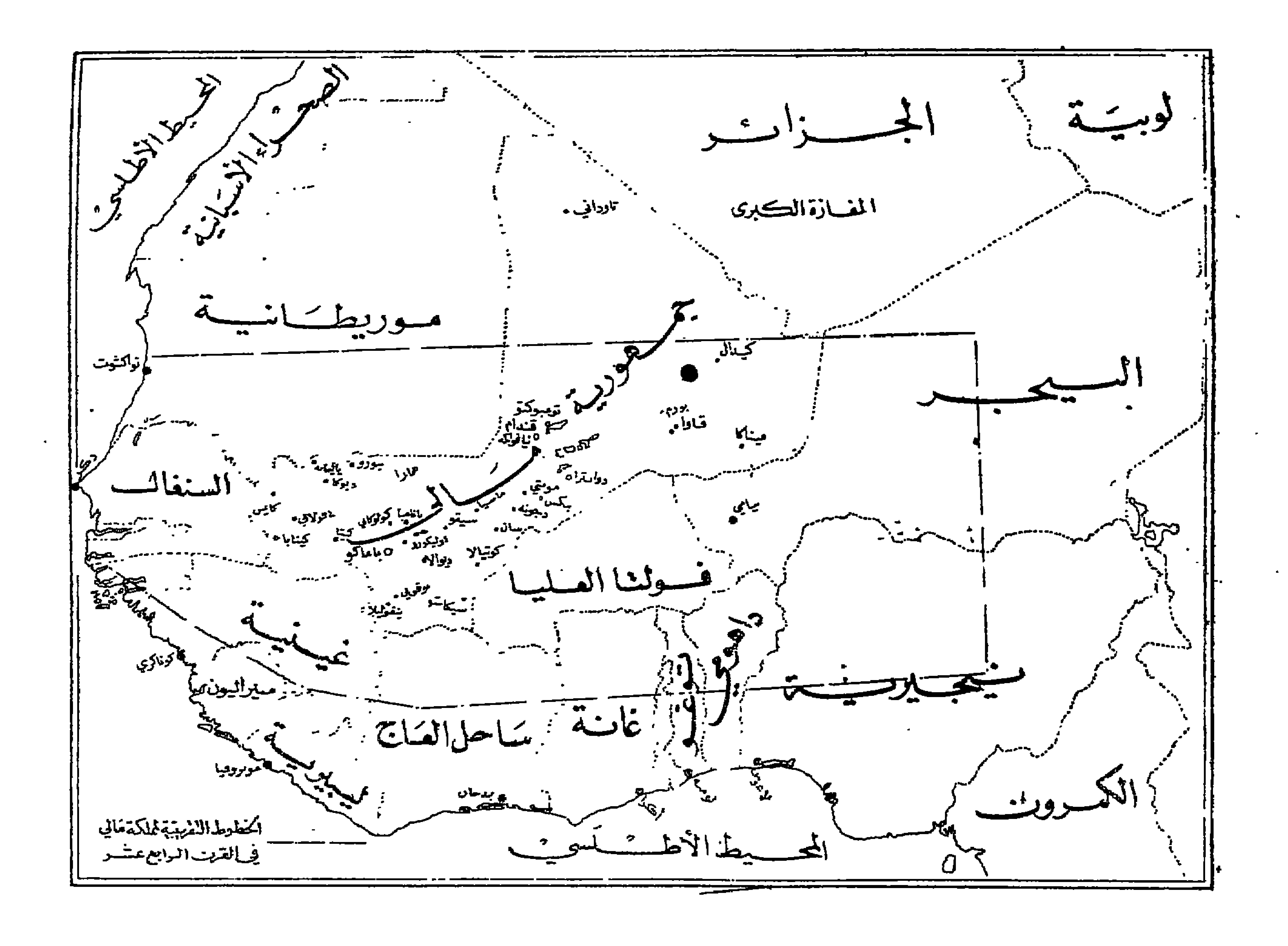
وليس هناك إحصاء دقيق لعدد المسلمين فى غانا اليوم ، وعلى العموم لا تقل نسبة عدد المسلمين ، إن لم تزد على ٢٥ ٪ من سكان البلاد . وأكثر تجمعات المسلمين عدداً فى العاصمة أكرا ، التى لا يقل عدد مسلميها عن ٧٥٫٠٠٠ نسمة ، (سكانها حوالى ٣١٨٠٠٠) ؛ وفى كوماسى ٦٠٠٠٠ نسمة بين ٢٢١٠٠٠ . أما فى شمال غانا فنسبة المسلمين تختلف بين ٢٠ ٪ و ٥٠ ٪ من السكان .

وينتشر فى غانا أتباع الطريقتين القادرية والتيجانية ، ويعود انتشار الأولى إلى عام ١٥٥٠ ، ثم زاد عدد أتباعها كثيراً فى أوائل القرن ١٩ بفضل أتباعها من قبائل الهوصا . ثم انتشرت التيجانية بسرعة على حساب القادرية فى النصف الثانى من القرن ١٩ ، ولا يزال عدد أتباعها فى نمو وازدياد بفضل الزعيم الحاج عمر تال الذى مات سنة ١٨٦٤ . ثم قامت سنغامبيا بجهود طيبة فى نشرها بوساطة الحجاج .

وهناك فى غانا مجلس للمسلمين ، وهو جناح من حزب الشعب الحاكم يمثل المسلمين ، وكانت هناك الجمعية الإسلامية التى تألفت فى عام ١٩٣٢ ، كمنظمة تعليمية وثقافية ، بيدأنها ألغيت عام ١٩٥٧ حينما وقفت فى معارضة حزب الحكومة .

وفى معهد الدراسات الأفريقية الملحق بجامعة غانا مجموعة من المخطوطات العربية التى تلقى الضوء على التطور الإسلامى الغانى ، ويزداد عدد هذه المخطوطات وبعضها كتب بلغة الهوصا أو الداجبانى والمبيرولى وجوان (Guan) .

ونلاحظ أثر العمارة السودانية الغربية الخاصة بالمساجد والأماكن الدينية فى شمال غانا ، ولعل أهمها مسجد الجمعية الكبير فى لارابانجا وبولى (Bole) بجونجا ، وينهض اليوم بناء المساجد الجديدة مكان المساجد القديمة .


لوبية
الجزائر
المفازة الكبرى
تاودني
المحيط الأطلسي
الصحراء الإسبانية
موريطانية
نواكشوط
جمهورية مالي
كيدال
تومبوكتو
قاو
ميناكا
نيامي
البحر
السنغال
فولتا العليا
غينية
كوناكري
سيراليون
النيجر
نيجيرية
داهومي
توغو
غانة
ساحل العاج
ليبيرية
الكمرون
المحيط الأطلسي
الخطوط التقريبية لمملكة مالي في القرن الرابع عشر

- ١٤ -

الاسلام فى داهومى

لم يصل الإسلام إلى المنطقة التى تشغلها داهومى - اليوم - قبل القرن التاسع عشر ، فقد ظل زعماء البلاد متمسكين بالوثنية والتقاليد القديمة التى مارستها القبائل عن أجدادهم منذ القدم .

والمعروف أن الإسـلام دخل هذه البلاد من شمالها الشرقى ، فقد قامت مستعمرة تجارية صغيرة ، قدم أفرادها من دولة مالى الإسـلامية ، فى خـلال القرن الثالث عشر ، واستقروا فى المنطقة التى تعرف اليوم بإسم سكوتو ، وكان يطلق عليها آنذاك « جوانجارا » . ومن هنا أخذت موجات التجار ترحل إلى البلاد التى تعرف اليوم بإسم جمهورية غانا . وكان هؤلاء التجار يجلبون الملح والرقيق والسلع الأخرى من الشمال ومن ليبيا أيضاً . ويقصدون الجنوب الغربى ، ويحملون جوز الـكولا إلى بلاد النيجر والهوصا فى الشمال، مجتازين شمال داهومى . وهكذا نشأت مستعمرات إسلامية صغيرة فى فترة قصيرة ، كان يطلق عليها كلمة «وانجارا » أو «مارونى داهومى) ، وسرعان ما ازدهرت تلك المسـتعمرات وأصبحت مراكز تجارية هامة ، ونذكر على سبيل المثـال منها ، باراكوى (Barakou) ، ودجوجو (Djougou) ، وكاندى (Kandi) .

وقد استقرت هذه المستوطنات الأجنبية بالقرب من الزعماء المحليين ، الذين كانت تعبر بلادهم ، مسالك القوافل . وقامت أسراتهم . وبواسطتهم دخل الإسلام فى ربوع داهومى ، وأخذوا يصاهرون الأسرات الداهومية .

وفى أعقاب الغزو المغربى لدولة سنغاى الإسلامية وخضوعها للمغرب فى أوائل القرن السابع عشر، فر كثير من أفراد سنغاى المسلمين المهاجرين إلى النيجر، أطلق على جماعاتهم كلمة دندى Dendi، وقد استقرت هذه المجموعات على الغالب فى أقصى شمال داهومى الحديثة، ويمكن القول بأن من تلك المجموعات تألفت الموجة الثانية للمسلمين.

أما الموجة الثالثة، فقد كان قوامها هجرة من قبائل الفولة الرعاة الذين انتشروا فى خلال القرن ١٨ فى جميع أجزاء النصف الشمالى لداهومى، وتألفت منهم عدة مراكز إسلامية، كان بوساطتها أن تحول عدد كبير من الأرقاء إلى الإسلام. وفى أواخر القرن ١٨ دخل الإسلام عن طريق الجنوب الشرقى ومن بورتو - نوفو، عاصمة داهومى الحالية. وكان قد قدم إليها جماعات من تجار اليوروبا المسلمين وفدوا من ايلورين «نيجيريا» ومن غرب نيجيريا أيضاً. وسرعان ما ازدادوا، ونما عدد الذين تحولوا من الوثنية من بين أسرات اليوروبا الداهوميين، علاوة على من وصلوا من البرازيل من سلالة الأرقاء الذين جلبهم البرتغاليون منذ قرون، وكان لهؤلاء أسماء برتغالية.

ومن الصعب الحصول على إحصائية لمسلمى داهومى، ويمكن القول أن عددهم يقدر بنحو ٢٥٠،٠٠٠ مسلم من عدد سكان البلاد الذين يبلغ عددهم حوالى ١،٨٠٠،٠٠٠ نسمة، ويتبع معظم المسلمين الطريقة التيجانية ويتبع المتقدمون فى السن الطريقة القادرية، وهناك عدد قليل يتبع الطريقة الحالية فى شمال داهومى.

إن الإسلام - اليوم - فى داهومى، ينتشر بسرعة، ولاسيما فى الشمال، حيث يكثر علماء الدين والدعاة والوعاظ، وقد نما عدد المدارس الدينية

M. J. Herskovit: Dahomey-an ancient West African Kingdom, New York 1938. (١)

R. Cornevin: Histoire des Peuples de l'Afrique noire Paris 1960, (index). (٢)

نمواً ملحوظاً ، ويتنافس الزعماء القدامي فى تأسيسها ، وتجتذب إليها أبناء المسلمين (١) .

« توجـــو »

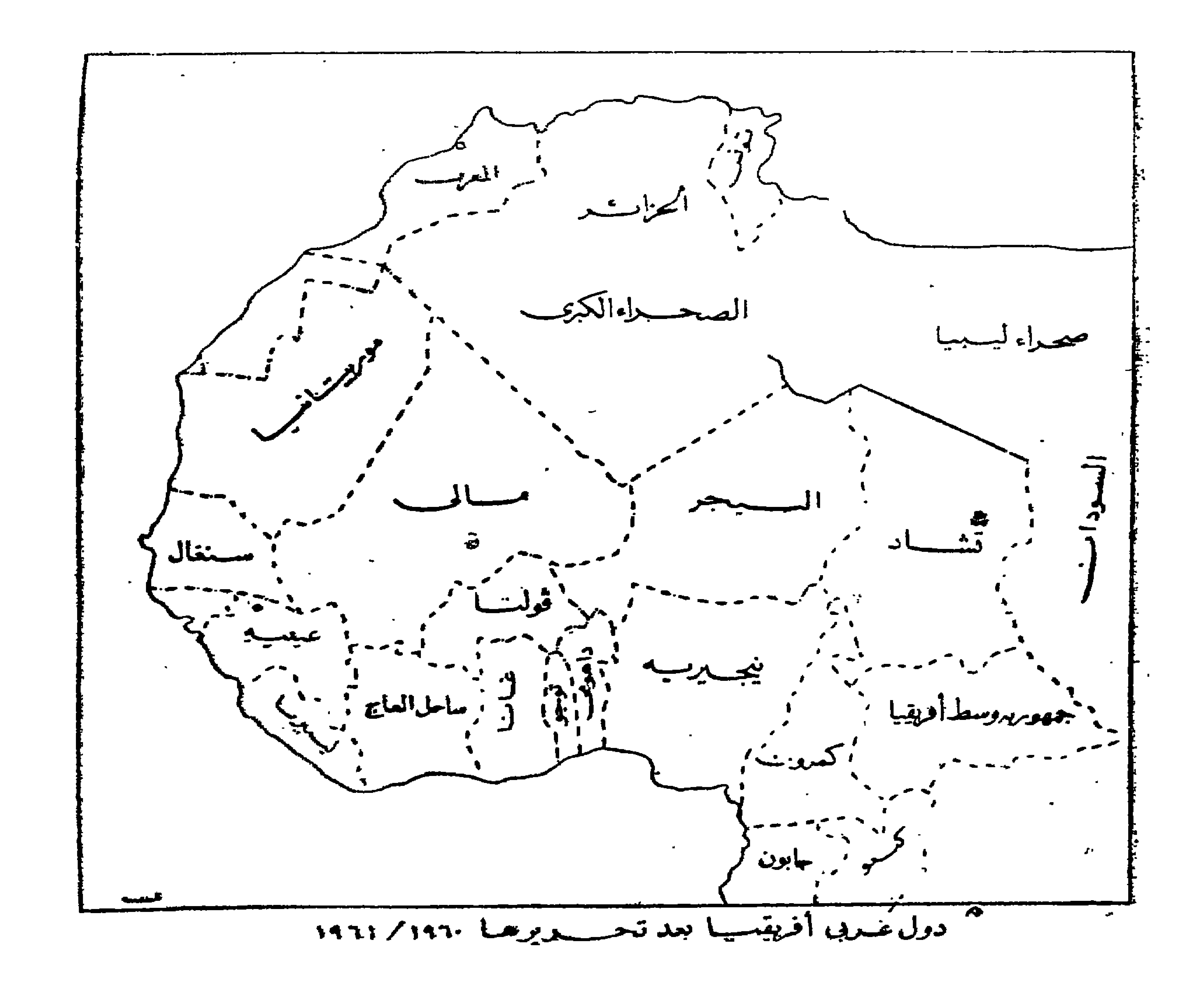
تقع توجو فى شمال غانا ، وتطل على خليج غينيا ، وإلى غربها داهومى ، وتبلغ مساحتها ٥٦٦٠٠٠ كم٢ ، ويبلغ عدد سكانها ٥٦٣٠٠٠ر١ ، يتألفون من قبائل ايوى (Ewe) ومينا (Mina) وداجومبا .. وغيرها. وعاصمة توجو لوميه (Lomé) ، والوثنية تسود توجو ، ولاسيما فى الجنوب .

لا يقل عدد مسلمى توجو عن ٤٥٠٠٠ نسمة ، وقد يزيد على ذلك . ولا تخلو مدينة من مسجد ، فى مدينة يندى ثلاثة مساجد كبيرة ، كما توجد عدة مدارس لتحفيظ القرآن ، والمسلمون يحافظون على أداء الشعائر الدينية ، ولكنهم فى حاجة ماسة إلى العلماء والوعاظ .

« جابـــون »

ليس بين أيدينا من المراجع عن الإسلام والمسلمين فى جابون ، سوى ما ذكره بعض الغربيين فى مؤلفاتهم ، وهؤلاء لا يذكرون غالباً فيما يكتبونه الحقيقة لأغراض شتى . ولا شك أن انتشار الإسلام فى هذه الديار جاء متأخراً ، فإنها كانت بعيدة عن مناطق التعايش بين العرب والأفريقيين بسبب موقعها الجغرافى فى الأدغال الكثيفة عبر خط الاستواء . والمعروف أن الإسلام وصل إلى جابون فى منتصف القرن التاسع عشر (١٨٤٣) ، جاء مع الجنود السنغاليين ، من قبائل الولوف والتوكولور المسلمين الذين كانوا مندمجين فى القوات الفرنسية كوحدات وطنية تحت قيادة الضباط الفرنسيين، عسكر هؤلاء مع جنود الحامية فى فورت داؤمال Fort d'Aumale

(١) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة) .



دول غرب أفريقيا بعد تحررها ١٩٦٠/ ١٩٦١

وفى معسكر لبرفيل (Libreville) . وكان بعض هؤلاء الجنود بعد إتمامهم مدة الخدمة العسكرية يفضلون الإقامة فى جابون للاشتغال بالتجارة فى المراكز التى بمحاذاة نهر أوجوى (Ogoué) و نوجونيه (Ngounie) أو مناقع فيرنان فاز (Fernan Vaz) ، وقد اتصلوا بالجابونيات المسيحيات عن طريق الزواج ، وكان الأطفال ينشأن بين الإسلام والمسيحية .

وقد استمر وصول الجنود المسلمين من مالى « السودان الفرنسى » أو السنغال إلى جابون سنين طويلة « حتى الحرب العالمية الثانيـة » للخدمة بين أفراد الحاميات ، وكان يعود بعضهم إلى أوطانهم بعد فترة الخدمة أو يبقون فى جابون ، وبوساطة هؤلاء استقر عدد من المسلمين وبدأ يتزايد على مر الزمن ، حتى أصبح كما تذكر بعض المراجع التبشيرية حوالى ألفين موزعون كما يلى :

٢٦٦ فى ولوى نتيم (Woleu Ntem) و ١٧٥ فى أجوى (Ogoué) و ٨٠ فى أجوى ايفندو و ٣١ فى نوجونيه و ٢١ فى أجوى لولو و ١٠ فى نيانجا و ٤ فى أجوى الأعلى .

وهنـاك عدد قليـل من المساجد ، واحد فى بورت جنتيل ، وآخر فى لامبرينيه ، واثنان فى ليبرفيل ، وأكبرها شيدته الحكومة الفرنسية .

ويؤلف المسلمون حوالى ٦ ٪ من مجموع السكان الذى يقدر بحوالى ٤٦٠٫٠٠٠ نسمة .

« ساحل العاج »

دخل الإسلام ـ ساحل العاج ـ عن طريق مالى والسنغال . ولمـا قدم الاستعمار الفرنسي إلى ساحل العاج وفد المبشرون ، وبدأوا محاربة الإسلام ونشر اللغة العربية . وكان الناس يتلقون مبادىء الإسلام فى منازلهم آنذاك «منذ مائة عام» . والمعروف أن أول قبيلة أسلمت كانت قبيلة «جولا وجينى»

ثم قبيلة « يوغولى » ، ثم انتشر الإسلام بين بعض أفراد قبيلة « ووبى » و « غورو » و « باوولى » .

كان التعليم الإسلامى مقتصراً على حفظ بعض آيات القرآن ، واستمر الحال على هـذا المنوال حتى قام الأستاذ أحمد التيجانى أبو بكر الذى تلقى تعليمه الإسلامى فى تونس بإنشاء أول مدرسة عربية نظامية ، أطلق عليها اسم « مدرسة التهذيب الإسلامى » عام ١٩٥٦ ، ثم افتتحت بعض المدارس الإسلامية . وفى عام ١٩٦٠ أنشأ الشيخ زبير أبولادى مدرسة أخرى لتعليم الصغار مبادىء اللغة العربية واللغة الانجليزية ، وفى عام ١٩٦٢ أنشأ الحاج مرتضى عبد الناصر معهداً عربياً إسلامياً فى أبيدجان عاصمة ساحل العاج ، وفيه يدرس الطالب العلوم الدينية من فقه وحديث وتجويد ، ويتلقى بعض ألوان الثقافة الإسلامية ، بالإضافة إلى تعلم اللغتين العربية والانجليزية والحساب والتاريخ والجغرافيا . وبهذا المعهد قسمان : ابتدائى وإعدادى .

ويقدر عدد سكان ساحل العاج بحوالى ٣ ½ ملايين نسمة منهم ٥٠ ٪ يدينون بالإسلام ، غالبيتهم فى شمال البلاد .

— ١٥ —

الإسلام فى نيجيريا

تقدر مساحة نيجيريا بحوالى ٨٧٧٫٠٠٠ كيلو متر مربع . ويبلغ عدد سكانها ٥٤ مليون نسمة ، أكثر من ٣٩ مليون نسمة مسلمون ، وغالبيتهم فى الشمال ، كما أن هناك حوالى تسعة ملايين من المسيحيين و١٣ مليوناً من الوثنيين . ويعيش قبائل اليوروبا فى جنوب غربى نيجيريا ويقدر عددهم بحوالى خمسة ملايين ، وينتشر الإسلام والمسيحية والوثنية فى بلادهم ، ولكن الإسلام أكثر شيوعاً .

أما قبائل الايبو ، فتسكن فى الجنوب الشرقى من نيجيريا بمنطقة أينتشا وفى جزء من منطقة أجوجا وبنين ، ويبلغ عدد هذه القبائل حوالى خمسة ملايين ، ويندر بينهم المسلمين .

* * *

رسخ الإسلام فى شمال نيجيريا منذ مئات السنين ، وقد دخلها عن طريق الدول الإسلامية الكبرى التى ازدهرت فى غرب أفريقيا فى العصور الوسطى . والمعروف أن الإسلام جاء أيضاً إلى نيجيريا من كانم وتشاد وبرنو ، ولنبدأ أولا من الإقليم الذى يحيط ببحيرة تشاد (شمال شرقى نيجيريا) ، حيث يعيش أهل تشاد وكانم وباجرمى ، وهم زنوج اختلطوا بقبائل التيدا والفولة والعرب وغيرها . وقد اتصل بهؤلاء قبائل الكانمبو والكنورى والباجرميون وأهل واداى ، ثم اعتنقوا الإسلام ، ما عدا بعض الأقليات فى جنوب تشاد .

جاء الإسلام إلى الكانمبو « أهل كانم » فى القرن الثانى عشر حول تشاد ، وربما قبل ذلك ، واضطر زعماؤهم فى القرن ١٤ إلى الرحيل إلى برنو « شمال شرقى نيجيريا » واختلطوا بقبائل صو ، وتألف من هذا المزيج « الكاروري » ، ويطلق اسمهم على الذين يتحدثون لغة الكانوري ، وهم يسودون اليوم إقليم برنو فى شمال نيجيريا . ويبلغ عددهم حوالى ٣٠٠ر١,٠٠٠ كما تعيش جماعات منهم فى النيجر وتشاد .

بدأ الكانوريون فى القرن١٢ فى أثناء حكم الملك دوفاما ديبلمه - بدافع نشر الإسلام - يغزون جيرانهم ، وأقاموا امبراطورية كانم ، ثم امتدت دولتهم إلى الشمال . وفى منتصف القرن ١٣ اتصلوا بشعب صو القوى فى جنوب بلادهم وكان شعباً محارباً ، وتمكن الصوفى خلال عدة أعوام من قتل أربعة سلاطين ، ولم يتغلب عليهم سوى الملك « ماى » إدريس أحد ملوك برنو (١٣٥٣ - ١٣٧٦) . ولما تدهورت قوة كانم ، استطاعت برنو أن تتخلص من سيادتها ، ونهضت لتشيد إمبراطورية جديدة .

وتعتبر أيام السلطان إدريس علومة ، ولا سيما فيما بين (١٧٥١ — ١٥٧٣) ، من أزهى عصور برنو . وقد أدى إدريس فريضة الحج ، ومات فى إحدى غزواته ، ودفن فى آلو بالقرب من مايد وجارى . بيد أن ضعف السلاطين الذين تولوا الحكم من بعده كان سبباً فى تفكك البلاد وانتشار المجاعات . فنهب قطاع الطرق الأهالى ، واستولوا على ممتلكاتهم ومحصولاتهم .

وفى بداية القرن التاسع عشر عجزت برنو عن صد أعدائها الكثيرين الذين كانوا يشنون الغارات عليها ، ولم يكن هؤلاء الأعداء سوى قبائل الفولة المسلمة ، حينما نهض من بينهم العالم المجاهد الشيخ عثمان دان فوديو ، ووحد صفوفهم ، وعمل على نشر الإسلام بكل ما اتصف به من خلال وصفات حميدة . فقد كان رجلا موهوباً شجاعاً وذكياً وفقيهاً ، عرف

بصلابته وتقواه ، وكان قد أدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى موطنه ليؤدى رسالته المخلصة فى سبيل إنقاذ البلاد من الوثنية .

ويمكن القول بأن عثمان بدأ جهاده الحقيقى فى عام ١٧٨٦ حينما قاد رجاله ضد زمفرة والبلاد المجاورة ، ثم تغلب على سلطان جوبر الوثنى وجيشه . ووجه بعد ذلك أتباعه لمحاربة بلاد الهوسا فى جهاد دينى ، ضد المسلمين المتهاونين فى شؤون دينهم ، وكذلك ضد الوثنيين . ثم غزا إقليم برنو (١٨٠٨) فى أقصى شرقى نيجيريا ، ولكن لم يطل احتلاله ، فقد استعاد برنو استقلاله بفضل دفاع الشيخ محمد الأمين الكانمى . وهكذا أسس عثمان امبراطورية إسلامية ، اشتملت على جزء كبير من شمال نيجيريا ، وقد امتدت هذه الدولة آنذاك من جاندو غرباً إلى ادماوة شرقاً .

ولما مات عثمان (١٨١٧) خلفه ابنه بللو سلطاناً على سوكوتو ، ولقب نفسه «أمير المؤمنين» ، وزعيما على إمارات الفولة المتناثرة فى ربوع الدولة ردحاً من الزمان ، ولكن سرعان ما فسدت الإدارة ، وعمت الفتن ، ونشبت المعارك بين القبائل ، وتفككت أوصال البلاد ، واستمرت هذه الحال حتى غزت قوات الاستعمار نيجيريا . فوقف انتشار الإسلام زمناً ما ، بيد أنه استمر فى انتشاره بطرق سلمية .

كانت عاصمة إمبراطورية عثمان مدينة سوكوتو ، وفيها اليوم المسجد الجامع ، وعلى مقربة منه مقبرة الشيخ عثمان دان فوديو ، وبجانبه مقبرة ولديه « صنبو » و «الحسن» . وبسوكوتو مدرسة الشريعة الصغرى ، وتعلم فيها اللغة العربية والشريعة الإسلامية ، وبها مكتبة احتوت على كثير من مؤلفات الشيخ عثمان وابنه محمد بللو وشقيقه عبد الله الوزير ، وكلها مخطوطة (نشرت أجزاء منها) باللغة العربية .

وليس بخاف أن أتباع الشيخ عثمان شيدوا مراكز إسلامية فى ساراكى وأيالورين ولوفوجا وغيرها .

وقد انتشر الإسلام فى نيجيريا انتشاراً سريعاً أذهل رجال الإرساليات التبشيرية بالرغم من إمكانياتهم الأدبية والمادية . وقد فشلت كل محاولاتهم فى الشمال النيجيرى ، وسنقدم الإحصائية الآتية دليلا على ذلك :

العام	وثنيون	مسلمون	النسبة المئوية	مسيحيون	المجموع
١٩٢١	٣ر٢٧٨ر٠٦٨	٦ر٦٨٦ر٣٦٢	٦٧ ٪	١٣ر٨٦٥	٩ر٨٧٨ر٣٩٥
١٩٥٢	٣ر٦١٦ر٠٠٠	١١ر٦٦١ر٠٠٠	٦٩ ٪	٥٥٨ر٠٠٠	١٥ر٨٣٥ر٠٠٠
١٩٦٣	—	٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠			

وحينما احتل البريطانيون الإمارات الإسلامية فى الشمال كان ٥٠ ٪ على الأقل من الهوسا ، وقد ارتفعت هذه النسبة إلى أكثر من ٨٥ ٪ . وينبغى أن نذكر أنه كان لهؤلاء الهوسا استعداد كبير لاستجابة الدعوة الإسلامية قبل وصول الإنجليز . كذلك كسب الإسلام جولته بين قبائل اليوروبا «الجنوب الغربى» ، وفى إقليم ايلورين كان عدد المسلمين عام ١٩٢١ هكذا :

٦٦ ٪ من أهله كانوا وثنيين و٣٣ ٪ من المسلمين و١ ٪ من المسيحيين وقد تغيرت هذه النسبة فى عام ١٩٥٤ وأصبحت ٧٥ ٪ للمسلمين ، ومن ٢ - ٥ ٪ للمسيحيين ، والباقى للوثنيين .

وفى أخريات القرن الماضى ، لم يكن مسموحاً لمسلمى ايبدان أن يشيدوا المساجد ، واكتفى بما كان موجوداً منها كالزوايا وفى رحاب الأسواق . وفى مديرية ايجيبو بجنوب نيجيريا دخل الإسلام حوالى ١٨٩٣ ، وبعد ذلك بعدة أعوام كان فى إحدى المدن ثلاثة مساجد مقابل كل كنيسة .

الإسلام فى بلاد اليوروبا (فى غرب نيجيريا):

قيل إن الإسلام فى مملكة اليوروبا، عرف بها عن طريق محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام فى تلك البلاد فى وقت مبكر، حوالى أخريات القرن الحادى عشر أو أوائل القرن الثانى عشر، لكن هذه المحاولة لم تنجح. كان هذا الرجل من قبائل الهوسا، وجاء إلى مدينة ايف (Ife) حاضرة مملكة اليوروبا الوثنية، وجعل يدعو الناس ويتلوا عليهم آيات القرآن وكان لا يستطيع أن يتكلم لغة اليوروبا بطلاقة، فلم يكن بد من أن يردد على فى لهجة أجنبية قوله: «هل نعبد الله الذى خلق الجبال والوهاد وخلق كل شىء وخلقنا.» وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح فى كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام، وقد مات هذا الرجل بعد وصوله إلى مدينة ايف بأشهر قليلة. وبعد موته وجدوا المصحف معلقاً على مشجب على حائط حجرته، فصار أهل البلاد يقدسونه على أنه وثنى (١).

الإسلام فى إيبو:

ونلاحظ أن الإسلام لم يدخل إيبو بجنوب شرقى نيجريا إلا فى عام ١٨٩٣، وفى ١٩٠٨ كانت هناك بلدة بها عشرون مسجداً وأخرى بها اثنا عشر مسجداً (٢).

ويمكن أن نلاحظ أيضاً سرعة انتشار الإسلام هذه على امتداد ضفتى نهر النيجر فى نيجيريا الجنوبية بوجه خاص، ويقرر أحد المبشرين المسيحيين: «عندما غادرت هذه البلاد فى سنة ١٨٩٨ كان هناك قليل من

---

(١) R. E. Dennett. Nigeian Studies, pp. 12, 75. London 1910

أنظر أيضاً: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٣.

(٢) Church Missionary Review, 1908, p. 640

المسلمين بأسفل أده (Iddah) (١) ، ولكنهم الآن منتشرون فى كل مكان، ماعدا أسفل أبو (Abo) .

المدارس والجمعيات الدينية :

يتبع غالبية المسلمين فى نيجريا الشمالية المذهب المالكى ، وقد أنشئت فى عام ١٩٢٨ جمعية إسلامية فى غرب نيجيريا تدعى جمعية أنصار الدين تهدف إلى نشر الإسلام وتعميم المدارس (٢) . وقد أنشأت هذه الجمعية مدرسة ثانوية عام ١٩٣٢ وهى تشرف اليوم على عدد كبير من المدارس ، ولها معهد للمعلمين وكلية للتعليم الإسلامى ، كما أن الجمعية تنفق بسخاء على الطلاب الذين توفدهم إلى خارج البلاد لتلقى المزيد من العلوم . وهناك جمعيات إسلامية أخرى ومنظمات لنشر الدعوة ، ومنها المؤتمر الإسلامى ومقره فى ايجوبو — أوديا .

وفى كانو (بالشمال) مكتبة عامرة بكتب اللغة والنحو والحديث والتفسير والفقه المالكى ، وكلها طبعت بالقاهرة ، كذلك توجد بأمارة زاريا مكتبة ، وبكاتسينا المسجد الجامع الذى شيده الحاج محمد دوكو فى عام ١٩٣٥ .

وبمدن الشمال النيجيرى مجموعات نفيسة من المخطوطات العربية التى تعين الباحثين على التعرف بمدى انتشار الثقافة العربية .

وممن يعملون على نشر اللغة العربية : الشيخ الحاج آدم عبد الله الألورى ، الذى يعمل عميداً لمركز التعليم العربى فى نيجريا ، وهو معروف

---

(١) بلدة على نهر النيجر ، جنوبى الحدود الشمالية لنيجيريا الجنوبية .

(٢) فى نيجيريا اليوم جماعة أنصار الإسلام تعمل على بث التعاليم الاسلامية ، ورئيسها الحاج محمد كمال الدين الأدبى من زعماء المسلمين وقد زار الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٦٢ .

فى بلادنا . وقد أنشىء هذا المركز فى ١٩٥٤ ، واستقر الآن فى مدينة اجينجى على بعد عشرة أميال من لاجوس ، وهو يضم طلابا من نيجيريا وداهومى وغانا وكاميرون ، يفدون إليه للتخصص فى تعلم اللغة ودراسة الثقافة الإسلامية . فهو إذن يقوم بتأهيل الطلبة لإجادة العربية حتى يستطيعوا مواصلة التعليم فى الأقطار الأخرى . وقد لحق بالمركز مكتبة ومسجد. وله عده فروع فى أيبدان وجابودى ، وفى غانا له فروع أخرى ، وكذلك فى داهومى .

النيجــر

تشغل مساحة النيجر حوالى ١ر٢٧٩ر٠٠٠ كيلو متر مربع ، وهى تتوسط مجموعة من البلدان الأفريقية ، فنى الشمال تحدها الجزائر والمملكة الليبية المتحدة ، وتجاورها شرقا جمهورية تشاد ، وغربا جمهورية مالى ، وتمس حدودها الجنوبية والجنوبية الغربية ، نيجريا وفولتا العايا وداهومى وعاصمتها نيامى .

وسكان النيجر مجموعة من القبائل العربية والبربرية والأفريقية التى اندمجت بعضها مع بعض وتألفت منذ سنين ، وأشهر هذه القبائل الطوارق والجيرما والهوسا والفولة وغيرها ، ويبلغ عدد سكان النيجر ٣ر١١٧ر٠٠٠ نسمة ، يمكن توزيعهم كما يلى :

اسم القبيلة	عددها
الهوسا	١ر٢٤٨ر٦٧٢
الجيرما والسنغاى	٥٣٤ر٨٧٧
الفولة	٢٩٦ر٢٨٣
الطوارق	٢٦٦ر٠٦١
أوروبيون	٣ر٠٠٠
	٢ر٣٤٨ر٨٩٣

والإسلام هو دين غالبية سكان النيجر ، تقدر نسبتهم بـ ٨٣ ٪ من سكان البلاد ، وهذه النسبة فى ازدياد مستمر برغم نشاط الارساليات التبشيرية ، يقدر عدد المسلمين بأقل من مليونين .

دخل الإسلام إلى تلك المنطقة من مصر والسودان ، ومن ليبيا والجزائر ، حيث هاجرت قبائل عربية كثيرة فى أعقاب الفتح العربى ، وقد انتشر الإسلام بين الجماعات الأفريقية مثل الهوسا الذين تعيش غالبيتهم فى شمال نيجيريا ، وانتشرت اللغة العربية بين القبائل ولا سيما الطوارق

تشاد

جمهورية استقلت فى ١٩٦٠ ، تقدر مساحتها بـ ٠٠٠ر٢٨٤ر١ كم٢ ، وعدد سكانها حوالى ٠٠٠ر٧٢٨ر٢ نسمة ، عاصمتها فورت لامى ، وبها عدد كبير من المساجد والزوايا ، وتقدر نسبة المسلمين بـ ٦٥ ٪ ، وغالبية سكان الشمال مسلمون ، وقد جاء إليها الاسلام من السودان ومن شمال نيجيريا ، وانتشر حول بحيرة تشاد . ومعظم أهل الجنوب من الوثنيين نشطت بينهم أعمال التبشير المسيحى منذ أول هذا القرن ، وتحول عدد منهم إلى المسيحية . وكانت للعقائد السياسية الحديثة ، وقيام الأحزاب وما أحدثته من الدعايات ، أثر ملحوظ أمام الدعوة الإسلامية ، بالاضافة إلى الانقسامات التى سببتها العوامل الجنسية والقبلية المتنافرة . فالشمال محافظ مسلم سادته الفرقة والخلافات بين كل آونة وأخرى ، حتى اندمجت الأحزاب الخمسة المتنافرة فى فبراير ١٩٦٠ تحت زعامة أحمد كلام الله فى الحزب الوطنى الأفريقى (PNA) ، وأهدافه الرئيسية ، الحفاظ على التقاليد الاسلامية فى التعليم والأحوال الشخصية ، والعمل على تخفيف الروابط بين تشاد وفرنسا ، ودعمها مع البلدان الاسلامية المجاورة . ولا نعلم تماماً إذا كانت قد تبدلت مواقف الأحزاب فيما بعد ، فإن الحكومة الحالية فى تشاد يسيطر عليها الحزب التقدمى التشادى ، ورئيسه مسيحى .

وتتناثر المساجد الكبيرة منها والصغيرة بين أحياء فورت لامي . ففي حي جنب البحر تنهض سبعة مساجد ، وفي غرودولة ، عشرة مساجد خصص أكثرها للبرنويين . وفي أم بسطة ثلاثة . وفي رقبة الجمال مسجد الهوسا ، وفي سند كرس عشرة مساجد ، وفي حي ليكلر مسجد ، وفي مرجان دفق أربعة . أضف إليها الجامع الكبير الذي شيد في قلب المدينة مؤخراً ، وجامع مرغنفادق للبولالة ، وجامع سارا في سارا مورسال .

وهكذا يقـــدر عدد مساجد فورت لامي بثمانية وثلاثين مسجداً ، ويلاحظ أن معظمها لا يتألف إلا من مربع يسيط له سور ، كما أنها تعرف بأسماء الأولياء الصالحين المدفونين فيها .

الإسلام في كمرون

تقدر مساحة هذه الجمهورية بحوالي ٤٣٢٠٠٠ كم٢ ميلا مربعاً ، ويعيش بها ٤٫٥٦٠٫٠٠٠ من السكان من قبائل البانتو والعناصر الحامية والسامية . ويقدر عدد المسلمين بنحو ٣٠ ٪ من مجموع السكان . وقد نال الكمرون استقلاله عام ١٩٦٠ . وكانت البلاد مقسمة تحت وصاية بريطانيا وفرنسا . وغالبية مسلمي الكمرون في الشمال . ويلاحظ أن قادتهم من ذوي الاتجاهات الإسلامية المعتدلة « التقدمية » ، بيد أن العناصر المحافظة هي التي عملت على الحفاظ على وحدة الأمة واستقرارها .

ومنذ أن استقل الكمرون تولى رياسة الوزراء (١٩٦٠) أحمدو أهيدجو وهو مسلم من قبائل الفولة ، واشترك في الحياة السياسية بانضمامه إلى حزب الكمرون الجنوبي الذي يضم غالبية العناصر المسيحية المثقفة ، ثم أنشأ حزبه « الاتحاد الكمروني » في عام ١٩٥٨ ، واعتمد تنظيمه أصلا على الشماليين . وبمرور الزمن امتد نشاطه إلى المنطقة الساحلية الجنوبية .

وهكذا يتضح أن أحمدو أهيدرجو قام بدور همزة الوصل بين مسلمي الشمال ومسيحي ووثني سكان الجنوب .

والمعروف أن الإسلام انتشر في الكمرون في الشمال منذ أوائل القرن الرابع عشر ، وجاء الإسلام عن طريق النيل ، فبحيرة تشاد ، فالكميرون ، ويعيش غالبية المسلمين تبعاً للنظام القبلي « الفولة والهوسا والكانوري » . ويكاد لا تخلو قرية من زاوية أو مسجد ، ويتمسك المسلمون بدينهم إلى درجة تدعو للإعجاب .

جمهورية أفريقيا الوسطى

تقع جنوبي جمهورية تشاد وشمال جمهورية الكنغو ، وفي شرقها يقع السودان وكانت تعرف قبل استقلالها بمقاطعة أوبانجي - شاري ، تقدر مساحتها ٦٦٠٠٠٠ كم² مربعاً ، وعدد سكانها ١٫٢٢٧٫٠٠٠ نسمة . يجرى فيها عدة أنهار أكبرها الأوبانجي وشاري . وعاصمة الجمهورية بانجوى (٨٥٠٠٠ نسمة) . ينقسم سكانها إلى أربع مجموعات زنجية كبرى :

مانجيا بايا - باندا - مباكا - وزاندى . غالبيتهم وثنيون ، وفيهم أقلية من المسيحيين والمسلمين .

والمسلمون موزعون في أربعة مناطق .

(ا) منطقة كوتو الشمالية (قبائل الباندا) ويعود الفضل في اعتناقهم الإسلام إلى الثائر رابح السوداني .

(ب) منطقة مومو حيث يعيش الزاندى (الأزاندى أو نيام نيام) .

(ج) منطقة أواهم في الشرق حيث يعيش قبائل مانجيا بايا ولاكاس وبعض مهاجرى الفولة .

(د) منطقة بانجوى وهى أهم مناطق المسلمين ، حيث يختلط فيها قبائل الفولة والباجرمي والبورنوية والهوسا .

كان يقدر عدد المسلمين فى الجمهورية (إحصاء عام ١٩٤٩) . بحوالى ثلاثين ألف نسمة . ولاشك أن هذا الرقم قد بلغ اليوم الضعف على الأقل.

بدأ الإسلام يغزو هذه البلاد فى بداية القرن ١٨ بواسطة تجار الرقيق الوافدين من الإمارات الإسـلامية فى الشمال : دارفور ، ودار ورنجا ووادای وباجرمی ، وفى عام ١٨٦٠ اتصل بها السودانيون الوافدون من الخرطوم أو من مديرية بحر الغزال (حفرة النحاس وديم الزبير) ، وممن ساهموا بنشر راية الإسلام . رابح بن فضل الله وذلك حوالى عام ١٩٠٠ ، وقد اشتهرت غزواته بين عامى ١٨٧٣ ، ١٨٩٠ . ونذكر أيضاً محمد السنوسى فيما بين ١٨٩٠ - ١٩١١

وقد نالت أفريقيا الوسطى استقلالها فى عام ١٩٥٨ ، وفى عام ١٩٦٠ انتخب دافيد داكو رئيساً للجمهورية وهى إحدى دول الحزب الواحد . حزب حركة التطور الاشتراكى للأفريقيين السود .

— ١٦ —

الحضارة الإسلامية فى غرب أفريقيا

انتهى عهد الفتوح الإسلامية فى شمال أفريقيا والأندلس ، واستقرت الدولة الإسلامية بعض الوقت ، ثم بدأت حضارتها بتطور وثقافتها تنتشر فى أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الأيبرية ومدن الساحل الأفريقى المطلة على البحر المتوسط ، كما ازدهر التبادل الاقتصادى بين أجزاء البلاد العربية وكان من الطبيعى أن تنتقل الأفكار والثقافة مع قوافل التجارة التى كانت تسلك الصحراء الكبرى من الشمال إلى الجنوب . ومضت الأحوال متخذة مجراها الطبيعى حتى ظهر الزعيم الكبير يوسف بن تاشفين ، فرأى أن ينهض بعمل فريد ، وكان عبد الله بن يسن قد مهد له السبيل ، وأخذ على عاتقه دعوة الشعوب السودانية فيما وراء الصحراء إلى الدين الحنيف ، وكان ذلك الحدث الكبير حينما اتجه أنصاره فى عام ١٠٦١م إلى غانة ، ومن ثم انتشر الإسلام بين عدة قبائل .

ثم أسست تنبكتو بعد أعوام قلائل ، وقدر لها أن تكون من أهم المراكز الإسلامية فى قلب القارة الأفريقية . وهكذا امتد سلطان البربر تدريجياً من ساحل المحيط الأطلسى شمالا إلى المنعطف الشرقى لنهر النيجر ، وقامت إمارات ودول إسلامية كبرى ، دون أهلها صفحات ناصعة فى تاريخ الحضارة الاسلامية . ثم امتد نفوذ تلك السلطنات رويداً رويداً حتى اتصلت بالنشاط الاسلامى شرقى بحيرة تشاد ، واتصلت بمسلمى وادى النيل . وهكذا ضم إلى العالم الإسلامى ، الشعوب السوداء الذين سرعان ما تقبلوا النظم الإسلامية فى الإدارة والقضاء ، وأنشئت عدة مدن إسلامية قامت فيها دور العبادة والعلم ، واندمجت الشعوب السودانية فى

غربي أفريقية فى عالم الحضارة الإسلاميـــة ، وشاركوا مسلمى الأندلس والمغرب فى نظمهم السياسية والدينية والآداب والعلوم .

وقد ازدهرت تلك الحضارة بوساطة العلاقات التجارية المستمرة عبر الصحراء ، حينما تبادل الشمال مع الجنوب خيرات البلاد . كما توافدالعلماء ورجال الدين للتدريس فى مساجد تنبكتو وجنى وجاغ ومالى ، يلشرون الثقافة الإسلاميـة بلغتها العربيـة الأصيلة ، ويبعثون الطلاب إلى معاهد الأزهر والقيروان وتلمسان .

وكان من الطبيعى أن ينهض بينهم طائفـة من كبـار العلمـاء والمؤرخين يدونون أحداث البلاد ويصفون المجتمع السودانى فى مؤلفات طيبة ، وصل بعضها إلينا، فضلا عما دونه الرحالة المغربيون فى كتبهم . ونستطيع بعد دراسة ذلك التراث أن نقول بلا مبالغة ، أن تلك الدول السودانية تمتعت بحضارة مجيدة لا تقل صورتها عن الحضارة الأوروبية التى عاصرتها . وإذا كنا قد جهلنـا أحوال تلك الشعوب ، فمرد ذلك إلى الفرقـة الطويلة التى سادت العلاقات بين الشعوب الإسلاميـــة فى القرون الأخيرة . أما من ناحية النظرة الأوروبية ، فإن أوروبا المسيحيـة فى نضالها اليائس ضد الإسلام والمسلمين ، كانت فى نفس الوقت لا « تتبادل » الآداب العربيـة على عكس ما فعلته بعد حين .

وهكـذا جهل الأوربيون ولو إلى حين أحوال الأمم الأفريقية ، فلم يعرف مثلا أن قصر ملك غانا فى عام ١١٥٣م « كان قد أوثق بنيانه ، وأحكم اتقانه ، وزينت مساكنه بضروب من المنقوشات والأدهان وشمسيات الزجاج ، وأن الافريقيين المسلمين استخدموا المدافع فى حصار المدن قبل أن تعرفها أوروبا ، فقد جاء فى تاريخ ابن خلدون ، أنه لما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وجه عزمه إلى الاستيلاء على سجلماسه سنة ١٢٧٣م فنهض إليها ونازلها ، وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر ، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعراضات و هدام النفط

القاذف بحصى الحديد ، ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها .. إلى أن سقطت . » ..

« وتثبت لنا المخطوطات العربية أن استعمال الاسلحة النارية لم يلبث أن شاع بين العرب ، فاستعملوها خاصة فى سنة ١٣٤٢ دفاعاً عن مدينة الجزيرة التى هاجمها ألفونس الحادى عشر ، وكان أعراب المدينة يرمون جيشه بكرات نارية كبيرة فى حجم أكبر أنواع التفاح ، وكانوا يقذفون بها بعيداً جداً عن المدينة ، حتى أن بعضها كان يمر بعيداً من فوق الجيش ويسقط غيرها فوقه » .

فلما شاهد الكونت دربى والكونت سلسبرى الإنجليزيان ، وكانا مشتركين فى هذا الحصار ، مفعول البارود ، نقلا من فورهما هذا الاختراع إلى بلادهما ثم استعمله الإنجليز بعد ذلك بأربع سنين فى معركة كريسى (١٣٤٦م) .

كما أن أهل الغرب لم يعرفوا أنه فى عام ١٣٥٣ كان يمر حوالى ١٢,٠٠٠ جمل تحمل أنواع العروض القادمة من مصر ، وهى حمولة عشرات من سفن تلك الأزمان عن طريق بلدة تكادة فى ذهابها إلى عاصمة دولة مالى ، وهذا دليل واحد على ما كانت تتمتع به الدول الافريقية فيما وراء الصحراء من الرخاء ، ويكفى أن نذكر خامة الذهب التى انفردت بها تلك البلاد ؛ إذ كانت هى المصدر الرئيسى لذهب العالم ، حتى اكتشفت مناجم أميركا الجنوبية والهند وأفريقيا الجنوبية وروسيا .

* * *

وكان فى هذه البلاد علماء وفقهاء وأدباء ومؤرخون وصلت إلينا ثمار قرائحهم ، وهى لا تشبه أو تعادل مثيلاتها التى كتبها علماء أوروبا المعاصرون بل إنها فى كثير من الاحوال تسمو عليها . ولا غرو لأن ذلك التراث العربى الافريقى كان وليد التراث العربى الأندلسى ، وأتخذ طابعه واستمد منه سماته .

وربما يتردد البعض فى تصديق ما اشتملت عليه مكتبة العلامة أبو العباس

أحمد بابا فقيه تنبكتو ، فقد نهب منها ما لا يقل عن ألف وستمائة سفر فى أثنـــاء الغزو المغربى للمدينة عام ١٥٩١ ، وكانت إذ ذاك حاضرة دولة سنغاى . وقد ترك لنا ما يربى على الأربعين من مؤلفاته .

ويقابلنا بين مؤرخى السودان ، العلامة عبد الرحمن السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان ، ونلاحظ أن هـذا العلامة لم يدون الأحداث التى مرت بهذا البلد فحسب ، بل إنه كان يعلق عليها ويذكر أسبابها ويعللها ، ويصف سلاطين البلاد وحكامها على حقيقتهم ، وينقد نظم الحكم ويوضح آراءه ، وما ينبغى أن يكون عليه الحال فى وطنـه . ويعتبر كتابه المذكور من المراجع الهامة فى تاريخ دولة سنغاى وعلاقة المغرب بها ، وقد وافته المنية (١٠٦٣ هـ - ١٦٥٣ م)[١] .

يوضح لنا كل هذا ، أن تلك البلاد الأفريقية كانت لها حضارة مادية وأدبية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كما مرت مالى بدورها قبل ذلك ، وحدث هذا قبل أن تطأها أقدام البرتغاليين فى القرن السابع عشر .

تنبكتو

ولقد شهد المؤرخ الفرنسى « ديبوا » أن القرن السادس عشر كان أزهى العصور التى مرت بتنبكتو التى وصلت فى ذلك الحين إلى أوج المجد الادبى والعلمى ، وذلك قبل أن يدهمها الغزو المغربى . فى ذلك الحين اتصلت تنبكتو وهى حاضرة الثقافة العربيـــة بالقاهرة ، ورحل علماؤها إلى مصر للاتصال برجال الأزهر ، ودعموا صلاتهم بإمام مصر جلال الدين السيوطى وقد تحدث السعدى عن العلماء المصريين الذين زاروا تنبكتو وقضوا مدة للتدريس بمعاهدها .

وكانت هذه الحاضرة سوقاً للكتب ، تنسخ فيها المخطوطات وتوزع فى

(١) يذكر مرجع آخر أن وفاته كانت فى عام ١٦٥٦ .

البلاد ، وروى السعدى أن فيها من يدعى محمد بن محمود بن أبى بكر ، اقتنى نفائس الكتب العزيزة ، وربما يأتى لبابه طالب يطلب كتباً فيعطيها له فى غير معرفة . ووصل بعض علماء السودان الغربى فى علمهم إلى مستوى لا يقل عن مستوى المدارس الإسلامية الأخرى ، إن لم يكن يزيد عنها فى بعض النواحى . وذكر السعدى أن فقيهاً اسمه عبد الرحمن الشيمى جاء من الحجاز بصحبة موسى سلطان مالى حين عاد من الحج ، فأقام بتنبكتو زمناً، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس (١) .

ومن علماء تنبكتو البارزين أحمد بابا (١٥٥٣ - ١٦٢٧) الذى مر ذكره كان ينتسب إلى أسرة جلها من العلماء ، وقد ولى معظم أفرادها القضاء ، وكان قد درس العلوم الإسلامية على أبيه وجده وكثير من أفراد أسرته ، وترك ما يربى على الأربعين مؤلفاً يعرف منها « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » (فاس ٣١٧ هـ) و « كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج » و « معراج الصعود » و « الدر النضير » و « خمائل الزهر » و « نشر العبير » . . وعدد كبير من الرسائل فى موضوعات مختلفة (٢) .

ولما غزا المغاربة تنبكتو رفض أحمد بابا الاعتراف باحتلالهم ، فقبض عليه وعلى أفراد أسرته ، واقتيد إلى مراكش (١٥٩٤) ، وفقد فى هذا الحادث ستمائة وألف مجلد ، كما سقط عن ظهر جمل إبان رحلته فكسرت ساقه ، ثم أطلق سراحه بعد حوالى عامين ، على أن يغادر قصبة مراكش ، فانقطع للتعليم فى جامع الشرفاء ، وكان يستمع لدروسه خلق كثير ، كما كان يعهد إليه بالإفتاء .

ولما ولى السلطنة مولاى زيدان أذن له عام ١٠١٤هـ/١٦٠٦م ، بالعودة

(١) تاريخ السعدى : ص ٥١ ، ٦٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية .

مع من بقى من أسرته إلى تنبكتو ، فعاد إليها وكرس حياته لتعليم الفقه .
وهكذا نرى أن الثقافة الإسلامية استقرت فى تنبكتو التى أصبحت لها نفس المكانة التى للقيروان فى تونس ، أو فاس فى المغرب ، أو قرطبة فى الأندلس.
وقد ارتبط تاريخ الثقافة فى سودان المغرب بتاريخ هذه المدينة الجليلة منذ أن أنشئت . اجتمع فيها العلماء من كل وطن : « المغاربة والأندلسيون والحجازيون والمصريون » ، وكان يفد إليها الطلاب من سنغال ونيجر ومن إمارات الهوسا وبرنو وكانم ، فيقيمون فيها زمناً ثم يرحلون أو يبقون وكان معهد سنكرى بتنبكتو قريب الشبه من الأزهر فى مكانته العلمية ، فأمه العلماء والفقهاء ، ونبغ منهم طائفة وصلوا إلى الإمارة ، وقد ذكر المؤرخ السعدى كثيرين ، منهم أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذى خلف أكثر من سبعمائة مجلد (١).

وقد أشار أيضاً إلى بعض الكتب التى كانت تدرس فى ذلك المعهد ، منها « الشفاء » للقاضى عياض ، و« تحفة الأحكام » لابن عاصم ، وكتاب « المعيار » للونشريشى .

تلك هى الناحية الثقافية لتنبكتو فى أزهى أيامها على عهد سلاطين سنغاى العظام ، من أمثال أسكيا الهادى محمد ، وأسكيا داود الذى توفى عام ٩٣٥ هـ - ١٥٢٨ م ، وانتقلت تنبكتو من بعده إلى حكم المغرب بعد أن غزاها القائد محمود عام ١٥٩٠ وضمها إلى أملاك مراكش ، وظلت خاضعة للمغرب إلى عام ١٧٥٠ ، وفى ذلك العهد عمت المظالم تنبكتو ، وشن الطوارق غاراتهم عليها وامتلكوها عام ١٧٩٢ ، ثم استولى الفولة عليها عام ١٨٢٧ .

---

(١) تاريخ السعدى ص ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ .

(٢) تاريخ السعدى ص ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥ .

ولكن إلى متى ظلت تنبكتو بعيدة عن التبادل الثقافى أو الاقتصادى الأوروبى ، أو إلى متى جهلها الأوروبيون ؟

اتصل الأوروبيون بتنبكتو فى القرن الخامس عشر ، فأخذت المدينة تتعامل مع الثغور الإيطالية ، وبخاصة فلورنسة ، بطريق تونس وطرابلس ، وكانت تخرج منها أربعة طرق كبيرة من طرق القوافل :

أحدهما يقصد مصر ماراً بكانم وجاغ ، والثانى يقصد تونس ويمر بحجار ، والثالث يقصد مراكش ويمر بسجلماسة وتافيلاليت وتوات ، والرابع يقصد السودان ، ويمر بملى وقد وصف اثنان المدينة فى ذلك العصر (القرن ١٥ - ١٦ م) ، أولهما فلورنتين بنديتو الذى زارها عام ١٤٧٠ ، وثانيهما الحسن ابن الوزان (ليو الإفريقى) الذى قام برحلته الإفريقية فى أوائل القرن السادس عشر وزار تنبكتو وأعجب بها ، وقال عنها « إنها مدينة عامرة بالحوانيت ، وبها معبد (مسجد) من الحجر والكلس بناه مهندس بارع من أهل غرناطة ، وقصر رائع فيه الملك حلى بصور كثيرة وقضبان من الذهب يزن بعضها ١٣٠٠ رطل .

وانقطعت الصلة بين تنبكتو وأوروبا بعد القرن السادس عشر ، ومع ذلك فقد كان يقولون عنها إنها مدينة عزيزة المنال ، تكتنفها الأسرار ، وافرة الثروة لإتجارها فى الذهب وريش النعام والعاج والعبيد . وقد خاب سعى الكثيرين فى جلاء سرها ، وقتل فى سبيل ذلك الميجور لينج ، ثم أفلح رينيه كاييه فى رفع الحجاب عنها عام ١٨٢٨ ، فاتضح له أنه كان واهما فى تقدير شأنها ، وفضل عليها مدينة جنى كثيراً . ثم زار بارث الرحالة تنبكتو عام ١٨٥٣ ، وكتب عنها كثيراً بعد ما وضع يديه على كثير من المخطوطات العربية (١) .

---

(١) Lieut Prefontan . Histoire de Tombucto de sa fondation a l'occupation française.

وبهذه المدينة العتيقة عدة مساجد أثرية ، أهمها : مسجد جونجوربر ، وسنكورى ، وسيدى يحيى ، أضف إليها القصبة (القلعة) المغربية ، وأسوار المدينة وبعض القصور والدور التاريخية .

مسجد جنجوربر :

أقدم وأكبر مساجد تنبكتو ، ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ البناء الأول للجامع ، بيد أن المعروف أنه كان هناك مسجداً أقيم على موقعه فى القرن ١٣ ، ولم يذكر واحد من المؤرخين أو الرحالة شيئاً دقيقاً عن تاريخ إنشاء ذلك المسجد . ويحتمل أن يكون السلطان منسا موسى هو الذى أمر الساحلى المهندس ببنائه (توفى بتنبكتو عام ١٣٤٦) . ولما مر الرحالة الحسن الوزان (ليون الافريقى) بتنبكتو فى أخريات القرن ١٥ ذكر أنه شاهد مسجداً مشيداً بالحجر . وقد ذكر العالم محمود كعت مؤلف كتاب « تاريخ الفتاش » ذكر أن القاضى العقيب (١٥٠٧ - ١٥٨٣) أمر بهدم المسجد وإعادة بنائه ، وكان قد ولى منصب القضاء فى عام ١٥٦٥ . وذكر عبد الرحمن السعدى مؤلف تاريخ السودان ، إن إعادة تشييد هذا البناء تمت سنة ١٥٧٠ كما أعيد بناء مئذنة المسجد ، ثم ذكر مؤلف تذكرة النسيان بعض الاصلاحات التى أنجزت بالمسجد فى الأعوام ١٦٧٨ و ١٧٠٩ و ١٧٣٦ . وعلى ذلك يمكن القول بأن المسجد القائم اليوم لا يشتمل على أية أجزاء يمكن نسبتها إلى ما قبل عام ١٥٧١ . ويعتقد الرحالتان كاييه وبارث أن أقدم أجزاء المسجد - هو الجزء الغربى ، ومع ذلك فإن بعض رجال الآثار لا يوافقونهما على هذا الرأى .

ويحتوى المسجد من الداخل على ٢٥ صفاً من العمد ، تمتد من شمال المسجد إلى جنوبه ، وعلى ثمانية صفوف ممتدة من الشرق إلى الغرب وأهم

أجزاء المسجد مشيدة بالحجر : العقود والجانب الغربي والمحراب وبعض أجزاء التكسية الخارجية · والسقف شيد من الخشب المتين . وللمسجد صحنان ، أحدهما واسع والآخر صغير متصل بالمئذنة ، وبأحد الصحنين عدة قبور ليس عليها نقوش ذات كتابات مؤرخة .

مسجد سنكورى :

أقل أهمية من المسجد السابق ذكره وأصغر منه مساحة ، ولا يعلم تماما متى شيد . وقد ذكر السعدى فى كتابه أن سيدة ثرية شيدته وأوقفت عليه بعض المال للحفاظ عليه ، ويحتمل أن يكون تشييده بعد عام ١٣٢٥ وقبل عام ١٤٦٣ . وقد هدم الحرم الأصلى للمسجد وأعاد بنائه القاضى العقيب ، وقيل أنه كان يعادل مساحة الكعبة المكرمة . وقد شيدت معظم أجزاء المسجد بالحجر ، ولما مر به الرحالة الفرنسى رينيه كاييه عام ١٨٢٨ ، كان المسجد فى حالة جيدة .

مسجد سيدى يحيى :

شيد هذا المسجد محمد نادى حاكم تنبكتو فى حوالى ١٤٤٠ (؟) . وقد ذكر السعدى أن بناءه تم فى أثناء حكم الطوارق المدينة فيما بين ١٤٣٢ و ١٤٦٨ . وقد عين هذا الحاكم صديقه سيدى يحيى إماما للمسجد وكان قد عرف بورعه وتقواه . وقد توفى سنة ١٤٦٣ / ٦٤ . وقد جدد بناء حرم المسجد عام ١٥٧٧/٧٨ على يد القاضى العقيب ، ووصفه الرحالة كاييه حينما مر بتنبكتو .

* * *

ومن آثار تنبكتو ، قصبة تنبكتو التى شيدت فى عام ١٥٩١ وكان قد بناها القائد جودر المغربى ، ولا أثر لها اليوم . أما سور المدينة فقد هدم حوالى

١٨٢٩ حينما نهب الفولة تنبكتو، ولم يبق منه سوى بعض الأكوام والأنقاض عند مرور الرحالة بارث بتنبكتو فى عام ١٨٦١ .

وهناك بعض الدور التاريخية التى عاش فيها بعض كبار الرحالين من الأوروبيين : جوردون لينج الذى وصل إلى تنبكتو عام ١٨٢٥ وفيلهير (١٨٢٦) ، ورينيه كاييه (١٨٢٨) ، وبارث (١٨٥٣ - ١٨٥٤) .

جنى (جنة)

تعتبر جنى من أهم المراكز الإسلامية فى سودان المغرب ، وتقع على مسافة مائتى ميل إلى الجنوب الغربى من تنبكتو ، وعلى مرحلة من الضفة اليسرى لنهر بنى (Bani) أحد روافد النيجر وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه فى فصل الأمطار .

يقول بارث الرحالة الألمانى عنها أنها أنشأت عام (٤٣٥هـ - ١٠٣٣ - ١٠٣٤) (١) ، وسرعان ما ازدهرت تجارة الملح فى تغازا والتبر فى بطء ، وقد اعتنق غالبية أهلها الإسلام فى حوالى عام ٦٠٠ هـ - ١٢٠٣ / ١٢٠٤ ، ثم آلت إلى مالى على أيام ملكها مارى جاطة وأصبحت أهم أسواق قبائل الفولة والولوف والسركولة وأهالى تكروو الغربى ، وعرفت بعمل القماش.

وكانت جنى أمداً طويلا على جانب كبير من الأهمية الاقتصادية ، وقد قال عنها السعدى (٢) : إنها سوق عظيمة من أسواق المسلمين ، يلتقى فيها تجار الملح من مناجم تغازا وتجار الذهب من مناجم بط ، وأنه بفضل هذه المدينة تتجمع القوافل فى تنبكتو من جميع الجهات المجاورة ، وكانت سوقا كبيرة لتجارة الرقيق ، ومركزاً ثقافياً ينافس تنبكتو ، وازدهرت فيها

---

(١) Barth. Tra[illegible]els, Vol. 4 r, 582.

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية أن تأسيسها يرجع إلى القرن الثالث الهجرى .

(٢) ص ١١ فى تاريخ السودان للسعدى .

الدراسات الدينية ، وكان من علمائها الفقهية « فودى » محمد سافو الونكرمى الذى عاش فيها فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، ولاه أسكيا الحاج محمد قضاء جنى بعد رجوعه من الحج ، والقاضى العباس كب الجنوى ، وكان فقيهاً عالماً جليلا سخياً ، وكان قبره فى داخل مسجد جنى ، والقاضى محمود ابن أبى بكر يفيغ والد العالمين الفقيه محمد بفيغ والفقيه أحمد بفيغ ... الخ .

وتقول بعض المراجع أن الزعيم « كنبر » (وربما كان ملكا) كان فى طليعة الزعماء الذين أسلموا فى جنى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد ذكر السعدى أنه هدم قصره وشيد مكانه مسجداً ظل باقياً حتى القرن التاسع عشر ولاتزال آثاره باقية إلى اليوم .(١) ،

ولقد احتفظت أسره كنبر بالسلطان فى جنى حتى نهاية القرن الخامس عشر ، ثم غلبهم على أمرهم السنغاى ، واستولى سنى على المدينة حوالى عام ١٨٤٠ بعد أن حاصرها سبع سنوات ، وفرض على الأهالى الجزية . وقد عاد حكم سنغاى على سكان جنى بالخير لأنهم استطاعوا أن يبلغوا بتجارتهم حتى تنبكتو وجاغ والبلاد التى تقع عند منعطف النيجر بفضل الأمن الذى عم البلاد .

كانـو

ومن المدن التى امتدت إليها الثقافة الإسلامية فى إمارات الهوسا كانو وكتسينا ، وقد كان ذلك منذ القرن الخامس عشر ، رحل إليها بعض علماء تنبكتو فى عام ١٤٨٥ ، كما اجتذبت كتسينا عدداً منهم . وقد أقام الإمام المغيلى فيها زمناً طويلا يعلم الناس ويرشدهم ويقضى بينهم . وهنا ما يدل

(١) هنا رواية أخرى تقول إن الذى شيد هذا المسجد رجل عربى يدعى ملوم (المعلم) إدريس وأنه هو الذى درب أهل جنى على بناء منازلهم وزخرفتها على النمط الذى لا يزال مستعملا فى جنى والنواحى المجاورة لها .

على أن السيوطي رحل إلى شمالي نيجريا وأقام في كتسينا زمناً يهذب الناس وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦ هـ ١٤٨١ (١) .

ولكن لماذا لم تستمر تلك الحضارة السودانية ، ولم تزدهر على من الأيام كما حدث للحضارة الإسلامية في شمال أفريقيا ؟

إن الجواب على هذا السؤال معقد لاتصاله بمشاكل كثيرة ، لعل في طليعتها العوامل الجغرافية التي يتصل بعضها بطبيعة الأقاليم السودانية أولا ، فهي تمتد في رقعة كبيرة من غربي القارة على المحيط الاطلنطي إلى شرقي بحيرة تشاد وتخوم وادي النيل ، ومن حافة الصحاري الكبرى إلى ما بعد خط الاستواء . ويتصل العامل الآخر بطبيعة الصحاري وأهلها ، وما كان لهم من أثر ضخم في سكان السهول الجنوبية والمدن الشمالية في حوض نهر النيجر .

كانت غارات الرحل من أهالي الصحراء وقطعانهم على السهول مصدر خطر هدد الأمن والاستقرار بصفة مستمرة . وكان غزو الجماعات الرحل لمن يفلحون الارض من أهم ما اتسم به تاريخ سودان المغرب . وقد رجحت كفة أهل الصحاري دئما — على أهل السودان بسبب السلب والنهب وأسواق النخاسة مما أدى إلى قلة الكلأ والمراعي ، ونتج عنه بطبيعة الظروف عدم استقرار الجموع الكبيرة العدد من الاهالي ، الذين يستطيعون مقاومة الغزاة وردهم إلى قلب الصحراء ، كما كان يحدث أحياناً ، ومن أجل ذلك لم تنجز أفريقيا السودانية حركة تاريخية كبرى ، ولم تزدهر بها حضارة متصلة الحلقات في تطورها .

وسودان المغرب ، كما قلنا ، منطقة واسعة حبيسة بين عائقين عظيمين

---

(١) آدم عبد الله الألوري : الاسلام في نيجيريا ص ١٠

قد لا تيسر هجرة عرقية على نطاق واسع (كما حدث مثلا فى أواسط آسيا)، فالصحراء الكبرى تضغط عليها فى الشمال، والغابات الاستوائية فى الجنوب ويكاد يكون خلواً من العوائق الطبيعية، ونعلم أيضاً أن السمة الجغرافية التى تسوده هى مجرى نهر النيجر الكبير، ذلك المجرى الذى لا يمكن اعتباره عائقاً فى حد ذاته، بل على العكس فإنه يعتبر طريقاً طبيعاً للمواصلات البرية والنهرية، كما أن مناخه عامل ذو أهمية تاريخية وتضاريسه الجغرافية ليست منوعة.. وهكذا كان عدم توافر الموانع الطبيعية أو المناخيـــة من أهم الأسباب التى يسرت للأهالى أن يرحلوا إلى حيث يشاءون بسهولة فى أطراف السودان، إما لتبادل التجارة فى أمن وهدوء مع قطعانهم، أو للغزو والسلب وقطع الطرق. وثمة ظاهرة جغرافية أخرى، ففى الأجزاء الغربية من القارة، لم تتوافر المواطن الصغيرة التى جعلتها الطبيعة شبه مواطن معزولة أو منفردة، كما كانت فينيقيا فى غربى آسيا، ونيبال فى قلبها، والحبشة فى شرقى أفريقيا. مما يشجع على نمو الروح الاستقلالية والشعور القومى، ورغم أى تسرب أجنبى إليها، واحتضان حضارة بادئة لتنمو فى ظل ورعاية دويلة صغيرة. ويمكن القول إن هذه المزية لم يعرفها أهالى السودان الغربى.

ولم تكن الغابة تصلح من الناحية الطبيعية لرفاهية رجل السودان، لأنها عائق لا يمكن اختراقه، وربما كانت أقل وطأة من الصحراء التى كانت تخترقها سبل التجارة والثقافة بالرغم من المشاق والصعاب. وعلى أية حال يمكن القول بأن الغابة كانت عائقاً أمام نور المعرفة والثقافة ضد النور والمعرفة، بينما كانت الصحراء سبيلا إليها.

ولكن ينبغى ألا نبالغ فى تقدير دور الصحراء باعتبارها من عوامل نقل الثقافة، فإن هذا النور لا أثر له فى مجتمع البداوة، ولا مقام له مع حياة الرحل. ولا نعرف حضارة قامت فى الصحراء الكبرى قبل استخدام الجمل فى أثناء القرون الأولى من ميلاد المسيح. فكيف تستقر حضارة ما بين

أقوام بدو رحل، ينزعون خيامهم الصحراوية إذا ما اقتربت شهور الصيف قاصدين هضاب الأطلس فى الشمال أو مراعى السودان فى الجنوب !

وصحيح أن بعض تلك الهجرات الموسمية ، كان يستقبلها السودانيين بالترحاب ، فبوساطتها يفيدون ويستفيدون عن طريق تبادل المنتجات والسلع ، لكنها كانت كذلك لا تخلو من التخريب والنهب ، وفى كثير من الأحوال ، كان الرحل يفضلون الإقامة المستديمة بين خيرات السهول ونعيم المدن ، فيضطر أصحابها من السودانيين إلى الرحيل ، ومن ثم تؤول الأرض إلى الجدب والخراب بعد أن يهجرها فالحوها ، والزراعة كما هو معروف أساس التقدم المستمر فى أية حضارة ، ولكن فالح الأرض ينقصه الإبتكار وسرعة التنقل والتبصير بالأمور والمقدرة السياسية وهذه من صفات الرحل. ولذلك لاحظنا أنه عند ما اتحد أهالى السهول مع الفلاحين وتآلفوا سوياً استطاعوا تكوين حكومة ثابتة ذات نزعة توسعية ، فقد كان الغزاة الرحل يمكنون صلاتهم الحديدية من دماء المقهورين ، ويؤثرون فيهم ، وإن امتصوا ثقافاتهم السامية ، وبفضل هذا التآلف أو الوحدة تمت بين سودانيي الغرب ملكة التنظيم السياسى فاستطاعوا فى بعض الأزمنة أن يشيدوا دولا منيعة السلطان ، كغانة ومالى وسنغاى .

وإذا كنا قد ذكرنا أن للرحل والرعاة مقدرة على إقامة الدول بفضل نظمهم وأخلاقهم الصحراوية ، فإننا نلاحظ ظاهرة أخرى وهى أن تلك الدول كانت دواماً قصيرة الأجل ، ويفيض التاريخ بالأمثلة على صحة ذلك كالرعاة (الهكسوس) فى مصر القديمة ، والفاندال فى أفريقيا ، والنورمان فى انجلترا ، والمغول فى أوروبا وآسيا ، والمرابطين فى المغرب والأندلس والمغاربة فى السودان بعد المرابطين فى القرن الحادى عشر .

إن الإصرار والمثابرة التى اتسم بهما شعب الماندنجو وزعماؤه تستحق

أن نلفت النظر إليها بعد أن أتيح لهم السيادة والغلبة فى غرب أفريقيا ، حينما استولوا على غانا وأقاموا دولة مالى ، ثم عملوا على توسيع رقعتها ، وبنوا امبراطورية مترامية الأطراف تجاوز الاعتراف بها حدود الصحراء ، إلى شواطىء البحر المتوسط والأحمر ، ثم ماكان لأسرة أسكيا فى نهضة دولة سنغاى ، التى ربما كان يكتب لها البقاء مدة أطول إذا لم تكن قد تعرضت للغزو المغربى .

* * *

وينبغى ألا نغفل عن عدة عوامل جغرافية أخرى عجلت بانحطاط الدول الأفريقية السودانية ، الواحدة بعد الاخرى ، فقد كان اتساع أرجاء الدولة وعدم توافر العوائق الطبيعية ممهداً فى كثير من الأحوال لقيام الثورات المحلية والخروج على طاعة الحاكم مضافاً إلى هذا الاختلاف بين الشعوب والأجناس الخاضعة له . وقد ظهر ذلك جلياً حينما كان التوسع الإقليمى سابقاً للنضج الإدارى أو السياسى للحكومة المركزية ، فكانت تعم الثورات وتنشب الفتن حينما يولى سلطان جديد . فيعزل رجال سلفه ويولى آخرين مكانهم ، ويوجه الحملات العسكرية لإعادة الأمن إلى نصابه ، وكانت تلك الاستعدادات تستغرق وقتاً طويلا ، فلم تكن طبيعة البلاد تسمح بإقامة معاقل أو حصون تتحكم فى كل إدارة أو مملكة تابعة للسلطان يستطيع رجالها أن يسرعوا للقضاء على الفتنة وهى فى مهدها .

وكانت صعوبة المواصلات والانتقال من أهم أسباب ضعف تلك الدول الأفريقية . فكلما طالت المسافة بين الحاكم والمحكوم ضعفت السلطة وهذا مافطن إليه الفاتحون منذ القدم ، ولعل الرومان كانوا أول من تنبهوا إلى تلك الحقيقة . فأكثروا من شق الطرق وتعبيدها بين ممتلكاتهم ، وأقاموا الحصون والمعسكرات فى الأماكن العسكرية . ولم يعرف السودانيون

نظام البريد الذى كان معمولا به فى العصور الوسطى ، ولا سيما بين الدول الإسلامية . ولا نعرف زعيما أفريقياً أدرك أهمية الطرق فى أنحاء بلاده أو عمل على تنظيم شبكة من مخافر البريد ، ولذلك عجزت الحكومة المركزية عن الإشراف الكبير على شؤون الدولة ، وربما كانت الأمطار الغزيرة التى تهطل عدة أشهر فى السنة عائقاً لا يتغلب عليه تحت الظروف الافريقية فلم يعن أحد بإنشاء الطرق فى تلك البلاد حتى إلى وقت قريب (١) .

وإذا كانت للحدود الطبيعية من جبال وهضاب وصحارى ومسالك مائية فوائد شتى فى حماية البلاد ووقايتها فى تلك العصور ضد الغزو الأجنبى ، فإن عدم وجودها يعسر الاتصال التجارى والتبادل الثقافى مما أفاد الدول الافريقية ، فنعمت بالرخاء الاقتصادى وانتقلت إليها حضارة المغرب ووادى النيل .

ولا يخفى أن البيع والشراء مما يصحبه دواماً تبادل الافكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ، ولولا طرق القوافل التى كانت تربط سودان المغرب ببلاد البحر المتوسط أو وادى النيل ، لما ازدهرت فى وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية التى عرفتها مالى وسنغاى وبرنو منذ القرن الحادى عشر ، تلك الحضارة التى لم يعرف السودان مثلها من الحضارات السابقة — أفريقية أو رومانية أو بيزنطية .

ولقد تعلم أهل السودان عن طريق اتصالهم بتلك الحضارة الزاهرة أشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل ، ففى الزراعة كانوا لا يزرعون سوى ما يحتاجون إليه من الطعام ، لكنهم تعلموا فيما بعد زراعة القطن والنيلة ، كما عرفوا أساليب البناء فى المساكن وأسوار المدن والمساجد ، وأهم من ذلك تلقوا مبادىء التنظيم السياسى والاجتماعى والحكم ، واعتنق غالبيتهم الدين الإسلامى

---

(١) كانت الأمطار نعمة للعاملين فى الزراعة وهم الذين اعتمدوا على مائها .

وأجاد علماؤهم اللغة العربية ، وأسهمت طائفة كبيرة منهم فى الكتابة فى شتى ألوان التأليف ، فى الأدب والدين والعلم والتاريخ ، كما برزت منهم جماعة من المصلحين الدينيين ... الخ الذين عرفوا كيف يقضون على التقاليد الوحشية والعادات والمعتقدات الشريرة التى كانت متفشية بين الشعوب السودانية ، فحل مجتمع حضارى جديد مكان المجتمع البدائى القديم ، ولم يقف فى سبيل نشر ذلك النور الحضارى سوى الغابة ، فظلت فى ظلامها موطناً للحيوان الكاسرة والسحرة إلى وقت قريب. أضف إلى هذا ما أصيبت به البلاد فى أعقاب الاستعمار الأوروبى ، فذابت شخصيتها السياسية ، ومع ذلك لم يستطع المستعمرون أن يقتلعوا الروح القومى فيها ، فنهضت من رقدتها لتعيد من جديد مكانتها الرفيعة وتسهم فى حضارة العالم الحديث .

ملحق

المخطوطات العربية فى نيجيريا

منذ انتشر الإسلام فى غرب أفريقيا ، ازدهرت المراكز العلمية والمدارس الدينية ، ولا سيما فى أيام دولتى مالى الإسلامية ، وسنغاى . وقد انتعشت الدراسات الدينية والأدبية فى عدة مراكز ، نذكر منها على سبيل المثال : تمبكتو وجنى (دينية) ، وجاو . وقد تم ذلك بفضل علماء الدول العربية الذين وفدوا إليها من الشمال الأفريقى . وبوساطة العلماء الأفريقيين أيضاً . ولما انتهت أيام هاتين الدولتين الكبيرتين ، انتقلت الحركة الفكرية إلى البلدان الإسلامية التى تقع غرباً فى شمالى حوض النيجر - نيجيريا ، ولا سيما فى أعقاب الحركة الإسلامية الكبرى التى دفع بها الشيخ الجليل عثمان بن فودى فى أوائل القرن التاسع عشر . وقد تابع هذه النهضة الإصلاحية تلاميذ هذا المصلح ، فكتبوا المؤلفات العربية فى شتى الشئون الدينية والأدبية والاجتماعية . وتلقى هذه البحوث الهامة - ضوءاً ساطعاً على أحوال المسلمين فى تلك البلاد وتفكير علمائهم .

لقد كان للحركة الإسلامية التى نهض بها عثمان بن فودى أثراً عظيما فى تقدم أحوال المسلمين فى نيجيريا ، بل فى غرب أفريقيا . وكانت هذه الحركة إعلاء للثقافة العربية فى تلك البلاد . فلم تكن دعوة فى الدين مبنية على صوفية ، إنما مبنية على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة (١). والدليل

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، ص ٢٦٥ .

على ذلك ما صدر من المؤلفات في تلك الفترة ، وأولها مؤلفات عثمان بن فودى نفسه ، فقد ألف نحو عشرين كتاباً وبحثاً ، معظمها في الجهاد والفقه والسياسة .

وكان شقيقه الوزير عبد الله بن فودي أديباً ومؤرخاً ، يبارى العلماء في مقابلته لصحيح البخارى ، وقد عرف من مؤلفاته نحو ثمانية عشر كتاباً بعضها لا يزال مخطوطاً في مكتبات مدن نيجيريا أو في المكتبة الوطنية بباريس . ومن أهمها : تزيين الورقات، وضياء السياسة ، وضياء الحكام (١) .

وكان السلطان محمد بلو بن عثمان الفودى أديباً ورعاً ، خمس في غزواته همزية البوصيرى ، وقصيدة بانت سعاد ، والبردية للبوصيرى، وقد اشتغل السلطان محمد بالتأليف ، وقيل إنه كلما ألف تأليفاً أخرجه إلى الناس ، فيقرأه لهم ، ثم يشتغل بتأليف آخر . وإلى جانب هؤلاء من رجال الطليعة الفكرية في نيجيريا ، قام علماء آخرون حملوا رسالة الفكر المقدسة ، سنذكر أسماءهم حينما نتناول الكلام عن مخطوطاتهم .

وقد أدرك علماء الغرب من فرنسيين وبريطانيين منذ وطأ الاستعمار الأوروبى المناطق الغربية في أفريقيا — أهمية تلك المخطوطات العربية فنقلوا كثيراً منها إلى مكتبات بلادهم،ودأبوا على بحثها وترجمتها إلى لغاتهم ونشطت الجمعيات والمعاهد العلمية على نشرها وطبعها ، ولا سيما ما اتصل منها بتاريخ تلك البلدان . ومع ذلك فلا تزال هناك إلى اليوم مخطوطات عربية كثيرة في مدن نيجيريا لم تحقق بعد تحقيقاً علمياً ، بوساطة العلماء من العرب والأفريقيين ، ونأمل أن يكون الوقت قد حان للوفاء تجاه هذا التراث العربي الذى ما زال مجهولا عند أصحابه .

---

(١) عبد الله الألورى : الإسلام في نيجيريا . القاهرة ، ١٣٧٠ هـ

واليوم ، هناك فى غرب أفريقيا ، حركة نشيطة تهدف إلى جمع هذا التراث العربى ، تنهض بها جامعات غانة ونيجيريا وغينيا والسنغال ، الغرض منها تصنيف جميع المخطوطات العربية الموجودة فى مكتبات هذه البلاد ودراستها وتبويبها ، ثم نشر الكتالوجات العلمية الوصفية عنها لكى تكون فى متناول العلماء والباحثين .

وقد نهضت جامعة إيبدان بنيجيريا منذ أعوام بالتعريف عن المخطوطات العربية التى فى مكتبتها ، وأصدر القائم على هذه المكتبة ثبتاً طيباً عن تلك المجموعة (١) .

وتتركز موضوعات غالبية مخطوطات إيبدان فى الدين والأدب ووصف الأحوال الاجتماعية التى كانت سائدة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولا سيما فى أثناء حركة الإصلاح الدينية التى تزعمها عثمان بن فودى ، والتى أسهم فيها شقيقه عبد الله بن محمد وابنه محمد بلو ، وعبد القادر بن مصطفى حفيد الشيخ عثمان ، والبدماصى أبو عبد الله محمد ، وغيرهم من رجال الفكر فى نيجيريا الإسلامية .

وسنذكر فيما يلى المخطوطات العربية التى فى مكتبة إيبدان :

البداوى ، محمد بن عبد الله البرناوى :

القناعة ، ٤٢ ص ، ٢٧ × ١٩ سنتى . قصيدة فى ٤٠٩ بيت فى علامات يوم الحساب . اعتمد على الإشاعة لإشارة الساعة ، لمحمد بن عبد الرحمن البرزنجى . وقد نظمها فى عام ١٣١٠ ، رقم ٢٦/٨٢ (٢) .

---

(١) W. E. N. Kensdale : Acatalogue of the Arabic Manuscripts preserved in the University Library, Ibadan, Nigeria, 1955 - 1958.

(٢) Brockelman : Gall. Suppl. 11 p. 529.

البدماصى ، أبو عبد الله محمد ، مؤلف شهر فى نيجيريا لقصيدته التى يتغنى بها أهل البلاد ولاسيما مسلمى اليوروبا .

شرح هذه القصيدة محمد بلو فى « شرح القصيدة » وللبدماصى مخطوط فى المكتبة الوطنية بباريس .

القصيدة التائية ؟ فى مدح النبى ، ٨ ص ، ٢٣ × ١٧ر٥٠ سنتى ، ٥٥ خمسية رقم ٢٥/٨٢ .

جنيدالسكتى الوزير بسوكوتو :

١ – ضبط الملتقطات من الأخبار المتفرقة فى المؤلفات ، ٩٩ ص ، ٢٠ × ١٦ر٥٠ سنتى ، ١٤ س . فى تاريخ خلافة الفولة فى سوكوتو ، أهداها المؤلف للمكتبة .

٢ – مرتع الأذهان لمن يريد لغة الفولان ، ١٠ص،٢٣ر٥×١٨سنتى ١٨١ بيت عن لغة الفولة ، ٣٢/٨٢ .

الزقاق ، أبو الحسن على :

لامية ابن الزقاق : ٤٤ص،٢٢ر٥×١٧ سنتى ، ٢٦٢ بيت ، شرحها محمد بن أحمد بن محمد الميارة (١) .

عبد الله بن محمد بن سالم ، وهو المعلم الفولى عبدالله سقا : مخطوط العطية للمعطى ، ٥٦ص،٢٢×١٧ سنتى .

١٤٥٠ بيت شعر ، مرتبة فى ٣٧ بابا ، يعالج كل باب منها ناحية عن العقيدة الدينية وتأديتها ، رقم ١/٨٢ (٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٦ .

(٢) راجع محمد بلو : انفاق الميسور ، تحقيق Whitting. (٤٠) London 1951.

راجع أيضا E. J. Arnett . The Rise of the Sokoto Fulani Kano, 1922

عبدالله بن محمد بن عثمان بن صالح المعروف بابن فودى (شقيق عثمان) :

١ ــ علامات المتبعين لسنة رسول الله ، ٢ص،٥ر٢٢×٥ر١٦ سنتى ، ٢٢ سطر . ثبت يشتمل على الصفات التى ينبغى توافرها فى تابعى السنة الصادقين . ميكرو فيلم للمخطوط ، أهداه أمير باوتشى ، رقم ٢/٨٢ .

٢ ــ ضياء الأنام فى الحــــلال والحرام ، ٢٠ص،٢٣×١٧ سنتى ، ١٩ س . فى التمييز بين الحلال والحرام فى جميع الشئون . الأكل ، المعاملة الرشوة ، العلاقات بالسلطان الظالم رقم ٣/٨٢ .

٣ ــ ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأحكام ، ٤٣ ص ، ٢٢×١٦ سنتى ١٩ س رقم ٤/٨٢ .

٤ ــ نسخة أخرى ـ ٨٦ص،٢٣×١٨س . رقم ٥٨٢

٥ ــ نسخة أخرى ـ ٦٧ص،٥ر٢٢×٥ر١٦س،١٥س . رقم ٦/٨٢ . وهناك نسخة أخرى فى المكتبة الوطنية بباريس رقم ؟

٦ ــ ضياء المجاهدين حماة الدين الراشدين ، ٢٢ص،٢١×٥ر١٥ سنتى ٣١ س . مقتبسة من مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار الإسلام لشمس الدين أحمد بن إبراهيم الدمشقى الدمياطى الذى تم تأليفه فى ١٢٦٦ هـ . رقم ٧٨/٢ .

٧ ــ ضياء السياسة وفتاوى النوازل ، ١٠ ص ، ٢٢×١٦ سنتى ١٧٠س غير تام . يحتوى على الفصل الأول وقسم من الفصل الثانى رقم ٨٢/٨ . هناك نسخة كاملة فى المكتبة الوطنية بباريس (١) وأخرى فى مكتبة مجلس المنطقة الشمالية بكادونا .

---

(١) G. Vajda . Contribution à la Connaissance de la litter ature arabe en Afrique Occidentale, Journal de la Société des Africanistes, t, XX, fou 2, 1950, 11, 229 - 237.

٨ — ضياء الأمة فى أدلات الأئمة ، ٩٣ص، ٥ر٢٣×١٨ سنتى، ٢٠ س لا يظهر اسم المؤلف على المخطوط . ولكن هناك مؤلف بإسم عبد الله فى فهارس أخرى . تاريخ التأليف ١٢٢٦ هـ . وهو مقتبسات من الشعرانى : كشف الغمة من جامع الأمة . رقم ٨٢/٩ .

٩ — لباب المدخل فى آداب أهل الدين ، ٦٣ ص ، ٢٠×١٦ سنتى ، ١٣ س . وخلاصة لابن الحاج « المدخل فى تنمية الأعمال » رقم ٨٢/١٠

١٠ — اللؤلؤ المصون ، ٤٢ ص ، ٢١×١٦ سنتى رقم ٨٢/١١

خلاصة مقفاة للمنهج المنتخب للزقاق . فى ١٠٨٠ بيت شعر مع التعليق كتبت عام ١٢٣١ هـ . ميكرو فيلم لمخطوط أستعير من الحاج بشير الميدوجرى .

١١ — المسائل ، ٢٤ص، ٢٠×١٦ سنتى ، ٢٠ س . فى الفقه فى شكل أسئلة وأجوبة . رقم ٨٢/١٢ .

١٢ — مطية الزاد إلى المعاد ، ٤٠ص، ٢٣×١٨ سنتى ، ١٦ س . تبحث فى الحاجة إلى الزهد ، والصلاة ، والذكر ، واتباع عظات الصالحين . كتبت عام ١٢٣٣ هـ . رقم ٨٢/١٣ .

١٣ — سبيل النجاة ٤ص، ٢٢×١٥ سنتى ، ٢٣ س . وهى فى قسمين :
(أ) فى الندم .
(ب) فى العناية بخمسة أعضاء هى : ـ العين والأذن واللسان والقلب والمعدة .

نسخة ميكروفيلم من مخطوطة م . أبو بكر النفاتى المدرس العربى الزائر فى باوتشى . رقم ٨٢/١٥ .

١٤ — تزيين الورقات بجمع بعض مالى من الابيات ، ١٩ص ، ٥٠ر٢٢×١٦ سنتى ، ٢٥ س .

عالج مضمون هذه المخطوطة بالتطويل براس(Brass)(١)

يوجد أربعة مخطوطات من هذا الكتاب فى مكتبة مدرسة الدراسات الغربية بكانو ، وأخرى فى لندن . وهذه المخطوطة أهم مؤلفات عبد الله ، كتبها فى عام ١٢٢٨ هـ . مخطوطة مكتبة ابدان غير كاملة (٢) . رقم ١٦/٨٢

عبدالقادر بن مصطفى بن ابنة عثمان بن فودو :

يعرف عند الحوصا باسم عبد القادرى دان تافا . وعند الرحالة بارت بأنه أعلم علماء الجيل بين أهالى سكوتو . وقد استفاد منه كثيراً . ومن مخطوطاته :

١ — أخبار البلاد الحوسية والسودانية ١١ص،٢٢,٥×١٧,٥ سنتى ١٨ س أهداها الشيخ جنيد وزير سوكوتو ، رقم ١١/٨٢ .

٢ — موضوعات السودان ؛ ٩ ص،٢٢×١٧ سنتى ، قصيدة فى ٢٦٥ بيت . ألفت عام ١٣٤٨ هـ ، رقم ١٩/٨٢ .

٣ — تعليق بديع وجيز على الأسئلة البضع والخمسين ، ١٤ص،٢٣,٥×١٨ سنتى ، ٢٠ س . عبارة عن ٥٣ جواباً لأسئلة تتناول أشياء كثيرة عن الخليقة إلى شريعة الميرات ، رقم ٢٠/٨٢

عبد الرحمن بن الخطيب محمد السنوسى الخزرجى :

من أهالى برنو وكان إمام مسجد كوكو . توفى فى بيروة حوالى ١٩٢٢ له مخطوطات كتبها عبد الرحمن بخط يده :

---

(١) Brass . Eine neue Quelle zur Geschichte des Fulbreiches Sokoto. Der Islam, X, 1920.

وراجع Bor Gall. Suppl. 11, p. 894.

وقد أشار إليها الرحالة بارت فى كتاب رحلاته ، طبعة ١٨٥٧/٨ ، جـ ٤ ص ١٨٦ .

(٢) أشار إليها الرحالة بارت فى كتاب رحلته ، جـ ٤ ص ١٠١ — ١٠٢ .

١ ـ الدرة السنية فى ذكر الكعبة البهية والمدينة المنورة الشذية وشيء من مدح ساكنيها خير البرية سيدنا محمد ، ٤ص، ٢٤×١٦ سنتى ، ٦٣ بيت ، صنفت عام ١٣٣٨ هـ ، رقم ٢١/٨٢ .

٢ ـ القصيدة اللامية ، ٤ص، ٢٣×١٨ سنتى ، ٦٢ بيت فى مدح النبى محمد ، ألفت ١٣٢٦ هـ ، رقم ٢٣/٨٢ .

٣ ـ القصيدة المامية فى مدح خير البرية ، ٤ص، ٢٢×١٧ سنتى ، ٦٥ بيت فى مدح النبى ، رقم ٢٢/٨٢ .

عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح (ابن فودى) :

أمير المؤمنين ، ومؤسس خلافة سوكوتو (١) .

الأمر بموالاة المؤمنين والنهى عن موالاة الكافرين : ٨ ص ، ٢٠×١٦ سنتى ، ١٢ س . مؤرخة فى ١٢٢٧ هـ ، رقم ٥١/٨٢ .

٢ ـ بيان البدع الشيطانية التى أحدثها الناس فى أبواب الملة المحمدية . ١٤ص، ٢٠،٥×١٦ سنتى ، ٢١ س .

توجد مخطوطة أخرى فى المكتبة الوطنية بباريس (راجع فاجدا ص ٢٣٠) .

٣ ـ بيان وجوب الهجرة على العباد : ٨٥ص، ٢٣×١٧ سنتى ، ١٨ س تحتوى على ٦٣ فصلا عن الهجرة ، وأمامة الجهاد ، يليها سيرة موجزة عن النبى محمد ، والخلفاء الأربعة . مؤرخة فى ١٢٢١ هـ ، رقم ٥٣/٨٢ .

٤ ـ حسن الأفهام فى جيوش الأوهام : ٦٧ص، ١٩،٥×١٣ سنتى ، ١٣ س . توجد نسخة أخرى فى المكتبة الوطنية بباريس . (راجع فاجدا ص ٢٣٠) .

---

(١) راجع E. J. Arnett . Gazetteer of Sokoto Provinces,
E. W. B.vill . Caravans of the old Sahara. London .

٥ - إحياء السنة وإخماد البدع : ١٨٦ص، ٢٢×٥ر١٦ سنتى ، ١٦ س
توجد نسخة أخرى من المخطوطة فى لندن والمكتبة الوطنية فى باريس
(راجع فاجدا ص ٢٣٠).

٦ — اتباع السنة وترك البدع : ١٥ص، ٥ر٢٢×١٧ سنتى ، ٢١ س .
رقم ٥٦/٨٢ .

٧ — نجم الاخوان : ٣٨ ص، ٥ر٢١×١٦ سنتى ؛ ٢٤ س .
نسخة غير كاملة من الفقه ، تمت فى ١٢٢٧ هـ . مستعارة من أمير بارتشى
رقم ٥٧/٨٢ .

٨ — نور الألباب : ٧ص، ٥ر٢٢×٥ر١٦ سنتى ، ٢١ س . توجد
مخطوطتان أخريتان فى المكتبة الوطنية بباريس، وثالثة فى لندن رقم ٥٨/٨٢
(راجع فاجدا ص ٢٣٠) .

٩ — سوق الصادقين إلى حضرة القدس: ٤ ص، ٢٠×١٦ سنتى ، ٢١ س
عن فوائد الجوع ومساوىء الشره . نسخة من مخطوطه فى كاتسينا . رقم
٥٩/٨٢ .

١٠ — سوق الامة إلى اتباع السنة : ٤٥ص، ٢٣×٥ر١٧ سنتى ، ٢٠ س
مستخرجة من البخارى رقم ٦٠/٨٢ .

١١ — نسخة أخرى ، ١٩ص، ٢٢×١٦ سنتى ، ٢٥ س . ميكروفيلم
مستعار من أمير بيدا ، رقم ٨٢/ ٦ .

١٢ — سراج الاخوان فى أهم ما يحتاج إليه فى هذا الزمان : ٤٩ ص ،
٥ر٢٣×١٨ سنتى ، ١٩ س .

توجد مخطوطة أخرى فى لندن ، وفى المكتبة الوطنية بباريس ، مؤرخة
فى ١٢٢٤ هـ ، رقم ٦٢/٨٢ (راجع فاجدا ص ٢٣١)

١٣ — عمدة العباد فيما يدان الله به من جهة الصلاة والصوم وتلاوة

القرآن ٦ص، ٢٢×١٦ سنتي ٢٠س رقم ٩٣/٨٢
وتوجد مخطوطة أخرى في كانو والمكتبة الوطنية في باريس (راجع فاجدا ص ٢٣١).

على ماعجي أبوجا :

الحبر الدنيا (هكذا)، ١٢٦٠ ص(٣أجزاء) ٢٠×١٦,٥س، ٢٤سطر رقم ٢٤/٨٢ (١).

غداد ابن الإمام وزير محمد بللو (٢)

روض الجنان في ذكر مناقب الشيخ عثمان، ١٤ص، ٢٣,٥×١٨ سنتي، ٢٠س. تم في ١٢٣٢، رقم ٢٨/٨٢.

محمد بلو بن عثمان بن فوديو (٣)

١ — الانصاف في ذكر ما في مسائل الخلافة من وفاء وخلاف، ١٣ص، ٢٢,٥×١٦,٥ سنتي، ٢٩س، مقتبسة من رسائل أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، مؤرخة في ١٢٣٢ هـ. ميكروفيلم من المخطوطة الأصلية، رقم ٣٤/٨٢.

٢ ـ جلاء الصدور عما يحتاج فيها من صدر الغرور، ٣١ص، ٢٤×١٨ سنتي ١٨ سطر. جمعت في ١٢٢٩ هـ. ميكروفيلم، رقم ٣٥/٨٢.

٣ ـ نسخة أخرى من المخطوطة السابقة.

٤ ـ مرثية عمه عبد الله بن فودي، صفحة، ٢٣×١٧ سنتي. ٢٩ بيت شعر بالشرح، ميكروفيلم، رقم ٣٧/٨٢.

٥ ـ قصيدة ... محمد بلو يمدح الغزاة من أشباهه، صفحة، ٢١×١٥,٥

---

(١) Hassan and Shu'aiba. Chronicle of Abuja Ibadan, 1952.

(٢) Arnett . Gazetteer of Sokoto Province London 1920- pp. 31 - 32.

(٣) راجع المرجع السابق ذكره E. W. Bovill , Caravans of the old Sahara, 1933

سنتى . ٢٥ بيت ؛ مستعارة من أمير باوتشى . رقم ٨٢/٣٨ .

٦ - القول المرهم فى أحكام الزنا بذات المغنم : ٣ ص ، ٢١×١٦ سنتى ، ٢٦ س . مستعارة من م . أبو بكر النفتى ، رقم ٨٢/ ٤٠ .

٧ - الرباط والحراسة : ٣٠ ص ، ٢٢ × ١٦ سنتى ، ١٩ س . مقتبسة من مشارق الأشواق ... الخ . رقم ٨٢/ ٤١ .

٨ - شرح القصيدة الطائية البدماشية ١٧ ص ، ٢٢×١٦سنتى ، ٢٨س، ميكرو فيلم من مخطوطات أمير باوتشى ، رقم ٨٢/ ٤٢ .

٩ - تنبيه الفهوم على وجوب اجتناب أهل الشعذبة (؟) والنجوم ،٣ص، ٢٣×١٧ سنتى ، ١٥ س . رقم ٨٢/ ٤٣ .

١٠ - تنبيه الصاحب على أحكام المكاسب : ٢ ص ، ٢٢ × ١٦ سنتى ، ٣١ س . جمعها فى عام ١٢٣٥ هـ . مستعارة من أمير باوتشى رقم ٨٢/ ٤٤.

محمد بلو رئيس قضاة كاتسينا :

الهائية فى مدح نيجيريا : ٣ ص ، ٢٦ ×١٧ سنتى ، ٣١ بيت ، أهداها المؤلف . رقم ٨٢/٤٥ .

محمد جبريم

بث الشوق والشكوى فى طلب الوصل والجدوى إلى ذوى الفضل والتقوى ١١ ص ، ٢٢٫٥ × ١٧ سنتى ، ٢٥٧ بيت فى مدح النبى محمد صلى الله عليه أهداها إلى محمد بللو رئيس قضاة كاتسينا ، رقم ٨٢/ ٤٦ .

محمد الوالى بن إبراهيم الوالى الفلاتى:

الأحكام للنجوم فى أشكالها : ٩ ص ، ٢٣×١٨ سنتى ، ٢٩٧ بيت فى الفلك (علم الرمل) كتبت فى عام ١٣٧١ هـ ، رقم ٨٢/٤٧ .

محمد الوالى بن سليمان بن محمد الفلاتى (١) :

المنهج الفريد فى معرفة علم التوحيد ، ٤٨ ص ؛ ٢٣×١٧ سنتى ، ١٧ س (رقم ٨٢ / ٤٨) .

محمود بن محمد بن محمد الأول ، المعروف بأمير العلماء :

من المحتمل أنها كتبت فى حوالى ١٨٩٠ ، تاريخ ، ١٧ص ٢٣، × ١٧ سنتى ، ٢٤ س . تشتمل على تاريخ نوبيه Nupe فى أيام حكم الفولة الأولى. تشتمل على أسماء ملوك نوبيه إلى المعز وملاحظات قليـــلة عن بعضهم . قم ٨٢ / ٢٣ .

القرآن الكريم :

٥٥٦ ، ١٣ س . (رقم ٨٢ / ٥٠) .

القضاعى ، أبو عبد الله بن محمد

الشباب فى الحكم والمواعظ والآداب والوصايا والأمثال ٥٨ ص ، ٢٤×١٧ سنتى ، ٩ س .

المخطوطات العربية فى سكوتو

وهناك فى مكتبة مدرسة الشريعة بمدينة سكوتو عدة مخطوطات عربية لعثمان بن فودى من أهمها (٢) ، كما يوجد فى مكتبة العلامة الوزير جنيدو عدة مخطوطات هامة من أهمها :

١ ـ نور الألباب .

٢ ـ ضياء الأمة فى أدلة الأئمة الأربعة .

---

(١) راجع محمد بلو : إنفاق الميسور ، تحقيق هويثنج ، لندن ١٩٥١ ، ص ٢٢ .

(٢) دكتور محمد الفحام : المسلمون فى نيجيريا . مقالان نشرا فى مجلة منبر الإسلام . أكتوبر ونوفمبر ١٩٦١ ص ٢١ ـ ٣٠ ، ص ٥٧ ـ ٦٠ .

٣ ـ نجم الإخوان يهتدون بإذن الله فى أمور الزمان .

٤ ـ بيان رجوع الشيخ السنوسى عن التشديد على التقليد فى علم التوحيد.

٥ ـ عمدة العباد فيما يدان به الله تعالى ، من جهة الصلاة والصوم وتلاوة القرآن وما كان من أوراد الذكر والصدقة .

٦ ـ إرشاد أهل التفريط والإفراط إلى سوء الصراط فى علم أصول الدين .

٧ ـ معراج العوام إلى سماع علم الكلام . فرغ من تأليفه سنة ١١٩٩ هـ .

٨ ـ تنبيه الغافلين وتنظيم الأخبار وبديع الآثار فى الوعظ .

٩ ـ السلاسل الذهبية للسادات الصوفية .

١٠ ـ كتاب عنوانه « لما بلغت ستاً وثلاثين سنة » .

ولعبد الله بن فودى شقيق عثمان فى مكتبة سكوتو ، المخطوطات التالية :

١ ـ نيل المرام من شيم الكرام مخطوط سنة ١٢٤٢ هـ .

٢ ـ تعليم الأصحاب فضل تعلم الأنساب مع ذكر نسب النبى صلى الله عليه وسلم والعرب والأنجاب سنة ١٢٤٣ هـ .

٣ ـ ضياء السياسات .

٤ ـ كتاب المدخل فى آداب أهل الدين والفضل .

٥ ـ ضياء الحكام فيما لهم وما عليهم من الأحكام .

٦ ـ قصيدة دالية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم .

مخطوطات كانو

فإذا قصدنا مكتبة مدينة كانو بشمال نيجيريا ، وجدنا المخطوطات التالية لعثمان بن فودى :

١ ـ عمدة علماء الفقه .

٢ ـ تحفة الألباب ونخبة الإعجاب فى التصوف .

٣ ـ تحذير الإخوان عن ادعاء المهدية الموعود به آخر الزمان .

٤ ـ إحياء السنة وإخماد البدعة .

ولعبد الله بن فودى بكانو المخطوطات العربية التالية :

١ ـ كتاب مطيــــة الزاد إلى المعـاد فى التصوف والوعظ . مخطوط سنة ١٢٣٣ هـ .

٢ ـ ضياء المجاهدين ، حماة الدين الراشدين ـ مخطوط سنة ١٢٢٦ هـ .

٣ ـ كتاب الحصن الرصين فى التصريف وهو نظم .

٤ ـ مختصر الحصن الرصين .

وبهذه المكتبة مخطوط لمحمد بن بلو بن عثمان فودى :

١ ـ النصيحة الوضيئة فى بيان أن حب الدنيا رأس كل خطيئة .

إن مكتبة كانو عامرة بكتب اللغة والنحو والحديث والتفسير والفقه المالكى وكلها مطبوعة بالقاهرة .

وبالإضافة إلى مكتبتى سكوتو وكانو ، هناك مكتبتان أخريتان فى زاريا وكاتسينا ، عامرتان بالمؤلفات العربية .

مخطوطات دار الكتب الوطنية بباريس

توجد فى هذه الدار عدة مخطوطات نيجيرية أهمها :

عثمان بن محمد بن فودى :

١ ـ بيان البدع الشيطانية التى أحدثها الناس فى أبواب الملة المحمدية رقم ٥٦٠١ ، (ص ٢٣٤ إلى ص ٢٤٥) رقم ٧ (٥٧) ، (ص ١٥ ـ ٢٧) .

٢ ـ حصن الأفهام من جيوش الاوهام ، رقم ٥٣١٩ ، (ص ٥٦-٧٠) رقم ٥٥٤١ ، (ص ١٠٨-١٢٩) ، رقم ٥٧٢٤ ، (ص ١-٢٦) .

٣ ـ إحياء السنة .

٤ - مسائل ملهمة : ١٤ سؤال وجواب .

٥ — سراج الاخوان فى أهم ما يحتاج إليه فى هذا الزمان . عشرة فصول تتناول شرح الاسباب لمحاربة المسلمين الطالحين، أكثرها مستمد مما قال به محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى ت ١٥٠٤ .

٦ — شمس الإخوان ؟ به أصول الاديان ، رسالة كتبت فيما بين ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ .

٧ — عمدة العباد فيما يدان الله من جهات الصلاة. عبارة عن ارشادات مقتبسة من الحديث عن فريضة الصلاة .

٨ — مخطوطة توضح الصلة بين عثمان بن فودى وأحمد المدنى (رقم ٠٥٤٨٤)

٩ — رسالة إلى عثمان بن فودى من الشيخ محمد راجى بن على أبو الفتح رقم ٥٧١٦ ، ورسائل أخرى (١) .

عبد الله محمد بن عثمان بن صالح بن فودى (١) :

١ - ضياء الاحتساب على طريقة السنة والصواب ، ويتناول الحسبة والحبوس (قم ٥٤٠١) .

٢ - ضياء الحكام فيما لهم وما عليهم من الأحكام . كتبها فى طريقه للحج ١٢١٥ هـ / ١٨٠٤ م من بلاد الهوسا وفى أثناء المعارك الظافرة التى أعقبتها .

٣ - مقاصد الهجرة - تنصيب الإمام - نواب الإمام - الجهاد - السياسة الشرعية .

٤ - ضياء السياسة وفتاوى النوازل (رقم ٥٥٩٩) .

---

(١) من أهم مؤلفاته : تزيين الورقات ؛ وكتابة البركة فى السكون والحركة الموسوية بإيداع المنسوخ من أفدت عنه من الشيوخ .

٥ ـ ضياء أولى الأمر والمجاهدين فى سيرة النبي والخلفاء الراشدين
(رقم ٥٦٣٤) .
٦ ـ مرثية : رثى فيها بعض الشخصيات السودانية (رقم ٥٦٨٧) .
٧ ـ شكر الإحسان على المنن لمن أراد صواب الأمان (رقم ٥٤٤١) .

ولمحمد بلو بن عثمان بن فودى :

١ ـ البدر اللامع فى الورد الجامع ، صنف عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠ - ٣١ .
٢ ـ مواعظ (ليس هذا العنوان الأصلى للمخطوط) .
٣ ـ قدح الزناد فى أمر هذا الجهاد (رقم ٥٥٧٦) .
حقائق عن الاحوال المدنية للسودان منذ ظهور عثمان بن فودى
ومعلومات عن بعض الوقائع الحربية .
٤ ـ شفاء الأسقام فى معرفة مدارك الأحكام . رسالة كتبت قبل عام
١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ فى سوكوتو وتحتوى على ثلاثة مقاصد .
٥ ـ الشبهات الواضحات فيما جاء فى باقيات الصالحات (رقم ٥٥٧٥) .
٦ ـ الطب المبين فى أوجاع العين (رقم ٥٦٦٦) .
٧ ـ عجالة الراكب فى الطب الصائب (رقم ٥٥٨٨) .
٨ ـ نبذة من كتاب الرقائق .
٩ ـ رسائل إلى أحمد بن أحمد وتلاميذه فى ماسينا .
١٠ ـ رسالة إلى الشيخ المختار (رقم ٥٥٧٤) ، ص ٣٣ ـ ٣٨ .

مخطوطات الحاج عمر الفوتى :

وفى دار الكتب الوطنية بباريس عدة مخطوطات للزعيم الحاج عمر
(ابن سيد الفوتى) ، وهى :

١ ـ أجوبة مسائل ـ فتاوى منوعة .
٢ ـ عقيدة (رقم ٥٧١٦) .

٣ ـ هاديات المذنبين إلى كيفية الخلاص من حقوق الله « عن التوبة » (رقم ٥٥٧٣) .

٤ ـ منظومة فى إصلاح ذات البين. عبارة عن أرجوزة كتبت فى فزان فى طريق الحج (رقم ٥٥٣٢) .

٥ ـ المقاصد السنية لكل موفق من الدعاة إلى الله من الراعى والرعية « عن أعمال الدعاة » .

٦ ـ قصائد منوعة (أرقام ٥٤٣٢ ، ٥٦٨١ ، ٥٦٨٤) .

٧ ـ رياح الحزب الرحيم على نحور حزب الرجيم « فى واجبات مريدى التيجانية ، ١٢٦١هـ / ١٨٤٥ .

٨ ـ سفينة السعادة فى أهل الضعف ؟ والنجادة .

٩ ـ سيوف السيد المتقد فى أهل الله .

كات التيجانى على رقبة الشقى الطريد المنقذ الجانى (أرقام ٥٤٠١ ، ٥٦٥١ ، ٦١٠٨) .

١٠ ـ تذكرة المسترشدين وفلا ؟ الطالبين (رقم ٥٧٠٨) .

١١ ـ أرجوزة فى العقائد (رقم ٥٧٢٢) (١) .

وفى المكتبة الوطنية بباريس قليل من المخطوطات العربية لأدباء السودان الغربى فى القرن ١٩ ، ولمن لهم بعض تلك المخطوطات :

أبناء الحاج عمرو أحمد ونيجو (الشيخ أحمد) ومنيرو (أحمد المدنى) ، فلهؤلاء المخطوطات ذات الأرقام ٥٤١٠ ، ٥٧٢٢ ، ٥٤٠١ .

---

(١) Edmond Blochet : Catalogue des manuscrits arabes des novelles additions.

المسلمون فى غرب أفريقيا

الدولة	عدد السكان	عدد المسلمين
أفريقيا الوسطى	١ر٢٨٠ر٠٠٠	٥٠٠ر٠٠٠
تشاد	٢ر٧٢٠ر٠٠٠	٤ر٦٠٠ر٠٠٠
توجو	١ر٥٦٣ر٠٠٠	٧٥ر٠٠٠
جابون	٥٠٠ر٠٠٠	٢٥ر٠٠٠
جمبيا	٣١٦ر٠٠٠	٢٧٥ر٠٠٠
داهومى	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٥٠٠ر٠٠٠
ساحل العاج	٣ر٦٦٥ر٠٠٠	١ر٧٥٠ر٠٠٠
سنغال	٣ر٣٦٠ر٠٠٠	٢ر٥٠٠ر٠٠٠
سيراليون	٢ر٢٤٠ر٠٠٠	١ر١٠٠ر٠٠٠
غانا	٤ر٣٤٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠
غينيا	٣ر٣٥٧ر٠٠٠	٢ر٢٥٠ر٠٠٠
فولتا العليا	٤ر٥٦٠ر٠٠٠	١ر٥٠٠ر٠٠٠
كاميرون	٤ر٥٦٠ر٠٠٠	١ر٢٠٠ر٠٠٠
ليبيريا	١ر٥٠٠ر٠٠٠	٢٢٥ر٠٠٠
مالى	٤ر٤٠٠ر٠٠٠	٣ر٢٠٠ر٠٠٠
موريتانيا	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٩٩٥ر٠٠٠
نيجر	٣ر١١٧ر٠٠٠	٢ر٣٥٠ر٠٠٠
نيجيريا	٥٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠
رواندا	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	

الدولة	عدد السكان	عدد المسلمين
بوروندى	٢ر٦٠٠ر٠٠٠	
كنغو (برازافيل)	٨٦٥ر٠٠٠	٧٥ر٠٠٠
بلدان غير مستقلة :		
أنجولا	٤ر٨٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠
افريقيا الغربية الجنوبية	٥٧٢ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠
إفنى	٥٠ر٠٠٠	٤٥ر٠٠٠
الصحراء الاسبانية	٢٤ر٠٠٠	٢١ر٠٠٠
غينيا الاسبانية	٢٤٥ر٠٠٠	
غينيا البرتغالية	٥٧٠ر٠٠٠	١٢٠ر٠٠٠

المراجــــع

علاوة على ماذكر من المراجع العربية والاجنبية فى الجزء الاول من الـكتاب ، نقدم للقارىء الراغب فى المزيد من البحث المراجع التالية :

Backwell, H. F. — The Occupation of Hausaland, Lagos Government printer 1927, (includes selections of Sokoto manuscripts),

Bivar, A. D. H. — Arabic Documents of Northern Nigeria. Bull. S. O. A. S. vol XXII. Part 2, 1959. pp. 324—349 with 4 pls.

Bivar and Hiskett — Arabic Literature in Nigeria. Bull. S. O. A. S. Vol, XXV. Part I. 1962, pp 104—148.

Brockelmann, C. — Geschichte der arabischen Literatur. 2e Aufl. 1934—49, 2 Bde, Suppl. 1937—42. 3 Bde.

Gibb, E. J. W. — Arabic Literature, 2nd,, Oxford 1930,

Hiskett, M, — Material relating ta the state of learning among the Fulani before their Jihad. Bull, S, O, A, S, Vol. XIX. pp. 5?0—578, 1957.

Hiskett, M. Kitab al-farq — a work on the Habe Kingdoms attributed to Uthman dan Fodio, Bull, S, O, A, S. Vol, XXIII, Part 3, pp, 558—579. 1960,

Junaido, Malam — Waziri of Sokoto : Tarihin Fulani (the History of the Fulanis), in Hausa, The North Regional Literature Agency. Zaria, N. Nigeria 1956,

Kensdale, W. E. N. — Acatalogue of the Arabic manuscripts preserved in the University Library, in I badan, Nigeria, 1955 — 1958.

— Field Notes on the arabic literature of the Western Sudan. J. of the R, Asiatic Society. Oct. 1955, april 1956, april 1958.

Palmer, R. — The Bornu, Sahara and Sudan, London 1936.

— Sudanese Memoirs, 3 Vols, 1926,

Robinson — Housaland, London 1896,

Paul Marty — Etudes sur l' Islam en Cotes d' Ivoire, Paris 1922 (includes some manuscripts),

Schultz, A, — The Sultanate of Bornu, translated by P. A. Benton, Oxford 1913

Smith, H. F. C. — Source material for the history of the western Sudan, J. of the Historical Society of Nigeria. 1. part 3' 1958, p, 245,

Whitting, C. E. J. — The unprinted indigenous arabic litterature of Northern Nigeria. J. R. Asiatic Society. april 1943, pp. 20 — 26.

Trimingham, J. S. — History of Islam in West africa. 1963.

— Islam in West africa, Oxford 1959.

محتوى الكتاب

صفحة

